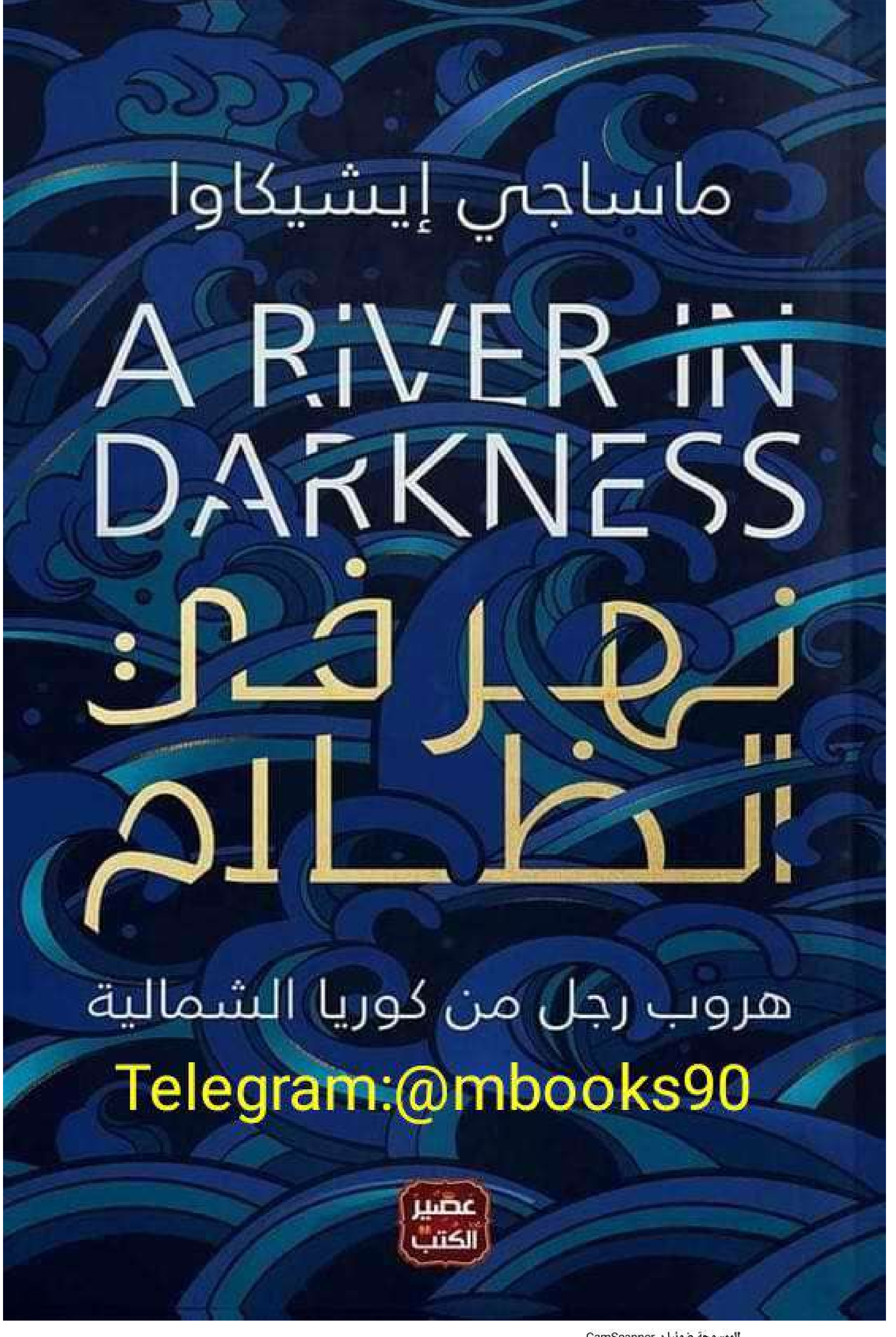

ماساجي إيشيكاوا
A RIVER IN DARKNESS
نهر في الظلام
هروب رجل من كوريا الشمالية
Telegram:@mbooks90
عصير الكتب

ماساجي إيشيكاوا

A RIVER IN DARKNESS



هروب رجل من كوريا الشمالية





تمهيد

ما الذي أتذكَّره من تلك الليلة؟ ليلة هربي من كوريا الشمالية، ثمّة أشياء كثيرة جدًا لا أتذكرها، فهي أشياء أبعدتُها عن ذاكرتي للأبد... لكن سأخبركم بما أستحضره.

يتساقط الرذاذ، لكنه سرعان ما يتحوَّل إلى مطر جارف غزير، حتى إني صرت غارقًا بالمطر، أتهاوى محتميًا بأجمة، عاجزٌ تمامًا عن قياس مرور الوقت، مُرهقٌ غاية الإرهاق.

غاصت ساقاي في الوحل، لكن بطريقةٍ ما، أزحف خارجًا من تحت الأجَمَة، ومن خلال فروعها، يمكنني رؤية نهر «يالو» أمامي، وقد تغيَّر واستحال تمييزه. صباح اليوم كان الأطفال يخوضون في ما كانَ أكبر قليلًا من مجرد مجرًى مائي، لكن شلال المطر المنهمر حوَّله إلى تيّار عارم يتعذَّر اجتيازه.

وعلى الجهة المقابِلة من النهر، على بعد ثلاثين ياردة تقريبًا، يمكنني تبيُّن الصين، وهي محجوبة خلف غِلالة رقيقة من الضباب. «ثلاثون ياردة» المسافة بين الحياة والموت. تعتريني رعدة، أعرف أنَّ أعدادًا لا تُحصَى من الكوريين الشماليين وقفوا هنا قبلي، وهم يرنون بأبصارهم إلى الصين الرابضة تحت جُنْح الظلام، وفي أذهانهم تطوف ذكريات الأشخاص الذين تركوهم خلفهم، أشخاصٌ يتضورون جوعًا، مثل الذين

تركتُهم، ما الذي كان يمكنهم فعله غير هذا؟ أحدِّقُ إلى التيار وأتساءل عن عدد الذين نجحوا منهم.

لكن مجددًا، ما الفرق الذي قد يُحْدِثه تساؤلي؟ إذا بقيت في كوريا الشمالية فسأموت من الجوع، الأمر بهذه البساطة، على الأقل بهذه الطريقة توجد فرصة، فرصة لنجاحي وتمكُّني من إنقاذ أُسْرتي أو على الأقل مساعدتهم بطريقةٍ ما. لطالما كان أطفالي سببًا لحياتي، ولن أكون ذا نفع لهم وأنا ميّت، لكنني ما أزال عاجزًا عن تصديق ما أنا مقبل على فعله. كم يومًا انقضى منذ أن قررتُ الهروب عبر الحدود، والعودة إلى مسقط رأسي؟

أفكر بالأمر مليًّا.

أربعة أيام... تبدو كحياة بأكملها، غادرتُ المنزل قبل أربعة أيام، تطلَّعتُ إلى وجه زوجتي وأطفالي للمرة التي كنت أعرف أنها قد تكون الأخيرة، لكن لم يكن بمقدوري السماح لنفسي بالتفكير هكذا، إذا كنت سأحصل على فرصة لمساعدتهم، كان عليَّ أن أغادر ما دمتُ أمتلك القوة على الهروب، أو أموت وأنا أحاول.

وما الذي أكلتُه منذئذٍ؟ بضع قشور ذرة حلوة دون بذور، ولبّ تفاحة ذابلة، وهو بعض الفتات الذي جمعته من قمامة أشخاص آخرين.

بحثت عن الحرَّاس الذين أعرف أنهم يتربَّصون كلّ خمسين ياردة أو نحوها على ضفة النهر، وتجهَّزت للموت من الإنهاك التام أو الغرق في أثناء محاولتي عبور النهر، لكن ما كنت لأسمح للحراس بالإمساك بي، كلّ شيء عدا الإمساك بي.. اندفعتُ غائصًا في النهر.

لا تزال آخر كلماتي لأُسْرتي ترنُّ في أذنَيَّ، «*إذا نجحتُ في الهروب، بطريقةٍ أو بأخرى سآتي بكم إلى هناك، مهما كلف الأمر*».

الفصل الأول

إنَّك لا تختار أن تولد، بل تولد فحسب، يقول بعض الناس: إنَّ ميلادك هو قَدَرك، وأقول: فليذهب ما يقولونه إلى الجحيم، أعرف هذا تمام المعرفة. لم أولد مرة واحدة فحسب، بل خمس مرات، وفي المرات الخمس تعلمت الدرس نفسه: في حياتك أحيانًا عليك أن تمسك بتلابيب قدَرك المزعوم، وتدقّ عنقه.

اسمي الياباني «ماساجي إيشيكاوا»، واسمي الكوري «دو تشان سون»، وُلِدتُ -أول مرة- في حي «ميزونوكوتشي» بمدينة «كواساكي»، الواقعة إلى الجنوب قليلًا من «طوكيو». وكان من سوء طالعي أن أُولد بين عالَمين، لأب كوري وأم يابانية. «ميزونوكوتشي» منطقة تلال معتدلة الانحدار، صارت الآن تكتظ في عطلات نهاية الأسبوع بالزوَّار من «طوكيو» و«يوكوهاما»، أولئك الذين يسعَون للهرب من المدينة وتَنَشُّقِ بعض الهواء النقيّ، لكن قبل ستين عامًا، عندما كنت طفلًا، لم تكن تضم سوى مزارع قليلة، فيها قنوات للرِّيِّ تسْتَمِد مياهها من نهر «تاما» القريب.

لم تكن قنوات الرِّيِّ عندئذٍ تُستخدَم للرِّيِّ فحسب، بل للأعمال المنزلية أيضًا كغسل الملابس وأواني الطعام. في صباي كنت أمضي أيام الصيف الطويلة في اللعب بالقنوات، أستلقي في وعاء غسيل كبير وأطفو على الماء طوال مدة العصر، أتنعَّم بأشعة الشمس وأشاهد الغيوم وهي تعبر

صفحة السماء، وقد جعلَت الحركةُ البطيئة تلك الغيوم العابرة تبدو -في عينَي الطفل الذي كُنته- مثل رقعة شاسعة من البحر، وكنت أتساءل عما قد يحدث إذا تركتُ جسدي ينجرف مع الغيوم، هل يمكن أن أعبر البحر وأصل بلدًا لم أعرفه قط، ولم أسمع به حتى؟ وفكرت بالفرص اللامتناهية لمستقبلي. أردتُ مساعدة الفقراء -من أمثال أسرتي- في أن يصبحوا أغنى، حتى يمكنهم أن يحظوا بوسائل الاستمتاع بحيواتهم، وأردت أن يعُمّ السلامُ العالمَ، وحلمت بأنني سأصبح رئيس وزراء اليابان ذات يوم، يا لسذاجتي!

كنت أتسلَّق تلَّة مجاوِرة وأصطاد الخنافس في ندى الصباح الباكر، وفي أوقات المهرجانات أتبع الضريح المحمول وأرقص واضعًا قناع الأسد.

جميع ذكرياتي جميلة، كانت أسرتي فقيرة، لكن أيام طفولتي في «ميزونوكوتشي» كانت أسعد أيام حياتي، وحتى الآن تفيض عيناي بالدمع عندما أفكر بمسقط رأسي، أنا على استعداد للتخلي عن أيِّ شيء لأعود إلى ذلك الزمن الجميل، لأشعر بالبراءة والأمل مرة أخرى.

كانت هناك قرية على تخوم «ميزونوكوتشي»، يعيش فيها قرابة مئتي كوري، اكتشفت لاحقًا أنَّ معظمهم أُحضِروا عَنوةً بطريقةٍ أو بأخرى من كوريا، من أجل العمل في مصنع الذخيرة المجاور، وكان والدي «دو سام دال» أحدهم، وُلد في مزرعة بقرية «بونغتشون ري» في كوريا الجنوبية حاليًا، واغتُصِبت حريته وهو في سن الرابعة عشرة، وجُلب إلى «ميزونوكوتشي».

لكنني لم أكن أعرف أنَّ لي أبًا إلى أن دخلت المدرسة الإعدادية، وليست لديَّ ذكريات عنه إطلاقًا، وفي الواقع صرت مدركًا لوجود أبي أول مرة عندما اصطحبتني أمي إلى مكان غريب -اكتشفت لاحقًا أنه

كان سجنًا- لزيارة رجل لم أتعرَّف عليه، أخبرتني أمي في ذلك اليوم مَنْ كان أبي. وفي النهاية جاء الرجل الذي رأيتُه عبر نافذة صالة الزوار إلى منزلنا، وقد كان سيِّئ الصيت في المنطقة بكونه رجلًا قاسيًا، وكان أقاربي يتحاشونه.

لم يكن يمكث في المنزل إلَّا لِمامًا، لكنه متى ما جاء، كان يقضي معظم وقته في معاقرة مشروب كحولي ذي رائحة نفاذة، وكان بمقدوره إنهاء لِترَين من الساكي خلال وقت وجيز، والأنكى من هذا، سواء كان ثملًا أم لا، أنه كان يضرب أمي متى ما جاء إلى المنزل، وتنكمش شقيقاتي من الرعب في أحد الأركان، حاولت إيقافه بالتشبث بساقه، لكنه دائمًا ما كان يركلني بعيدًا، وكانت أمي تحاول ألَّا تبكي بصوت مسموع، وتحتمل الألم وهي تكزُّ بأسنانها، تملَّكني اليأس والخوف حيالها لكنني كنت قليل الحول والحيلة. وبمرور الوقت، صرت أبذل ما بوسعي لأبتعد عنه، الأمر الذي لم يكن صعبًا؛ لأنه لم يكن يعبأ بي كثيرًا، لكن خطر لي أكثر من مرة أنني سوف أنتقم منه عندما أكبر.

أمي اسمها «مييوكو إيشيكاوا»، وُلدت عام 1925، كان والداها يديران متجرًا في ركن شارع التسوق القديم، حيث كانا يبيعان الدجاج، وجدّتي «هاتسو» هي التي كانت تدير المحل، وقد كان عملها شاقًّا وقذرًا، فلحم الدجاج لم يكن يُقطَّع ويُعبَّأ بعناية ونظافة كما هو الحال اليوم.. إطلاقًا. كانت الأقفاص مبعثرة بحيث يختلط الحابل بالنابل أمام المتجر، وعندما يظهر زبون، تُخرِج جدتي دجاجة زاعقة من قفصها وتذبحها في الحال.

عانت جدتي الربوَ؛ لذا كثيرًا ما كانت تداهمها نوبات السعال، وكانت كلما لمحتني قادمًا من المدرسة أو من اللعب في مكانٍ ما، تُقوِّس ظهرها وتقول: «مابو، أيمكنك أن تفرُك ظهري؟»، فكنت أمسح ظهرها الصغير وأدلِّكه بضع دقائق، وفي أثناء هذه الأوقات ونحن معًا، دائمًا ما

كانت تقول لي: «أنت فتى لطيف، يجب ألّا تكون مثل أبيك، لا أفهم لماذا ارتكبت أمك خطأ الزواج به؟!».

كنت أفهم سبب استخدامها كلمة «خطأ»، فقد كانت عائلة «إيشيكاوا» كريمة المَحْتِد وتاريخها عريق في المنطقة، وكانت هناك عدة أفرع من عائلة «إيشيكاوا» في «ميزونوكوتشي»، وكوّنوا مع السكان المحليين جماعة تربطها صلات وثيقة. توفي جدي «شوكيتشي» قبل مولدي، لكن لطالما قيل لي إنه كان رجلًا صالحًا لطيفًا يعتني بأُسْرته وبالآخرين في بلدته، أدخل أمي مدرسةَ البنات الثانوية وشجّعها على تعلُّم الحياكة، وبالرغم من أنّ الأسرة لم تكن توصف بالثراء، فقد بذل ما بوسعه ليوفر لأطفاله تعليمًا من نوعٍ ما.

كانت أمي امرأة ذات شخصية قوية، وجهها بيضاوي جميل بصفة خاصة، وأبي -من ناحية أخرى- كان ذا عينين حادّتين كشفرة حلاقة، قوي البنية، ومفتول عضلات الكتفين، لا أعرف ما الذي رأته أمي فيه، ربما انجذبَتْ لثقته بنفسه وغريزته القوية في البقاء، أعرف أنّ مجتمعنا المحلي صُعِق عندما بدأ يعيشان معًا، وكان الناس يطلقون عليهما سرًّا «الجميلة والوحش»، ويتساءلون عن سبب زواجها برجل فظيع مثله.

قالت جدتي لي ذات مرة: إنّ «الكوريين همجيُّون»، كنت أحبها لكنني امتعضت من تعليقها، ورغم أنني كنت أشعر بأنني ياباني -بقناعة راسخة- فقد كنت نصف كوري، وهو الأمر الذي كانت تعلَمُه جدتي تمام العلم، وكان شقيقا أمي الأكبر منها «شيرو» و«تاتسوكيتشي» يقولان تعليقات مشابهة من حين لآخر، كانا قد جُنِّدا ليخدما في الجيش الياباني في «منشوريا»، ودائمًا ما كانا يصفان الكوريين بأنهم فقراء وشُعْثٌ كمجموعة من الغوريلات، ولم يتحلّيا بالجرأة قطّ ليقولا شيئًا كهذا أمام أبي، بطبيعة الحال، لكن في غياب أبي، عادةً ما كان «شيرو» يقول: «من

الأفضل لـ «ميبوكو» أن نطلقه في أقرب وقت، الكوريون متعفنون حتى النخاع». ورغم أنني دائمًا ما كنت أشعر بوخزة من الضيق عندما يقول أشياء كهذه، لم يسعفني سوى الاتفاق معه. كنت أشعر بنفور بالغ من أبي، الذي قطعًا كان يعزز سمعة الكوريين بالهمجية متى ما ضرب أمي، ونظرًا لأننا كنا نراه يعذبها يومًا بعد يوم -وكان ذلك يرعب أخواتي حتى الموت- لم يكن من المفاجئ أن أبدأ، مثل جدتي، في كراهية الكوريين.

كان أبي يتبختر في الحي وفي أعقابه عشرين أو ثلاثين من أتباعه الكوريين، فقد كان من أبرز الزعماء المسيطرين في المجتمع الكوري، وكان يستمتع بافتعال المشاجرات مع أيّ ياباني يزعجه.. أيًا كان، سواء كان شرطيًا خاصًا أم من الشرطة العسكرية. كان الكوريون يعتمدون على حمايته، لكنه كان يرعب اليابانيين أيما رعب.

دائمًا ما كان أبي يُصِرُّ على فعل أيّ شيء بطريقته الخاصة، افتتح بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مع عدد من أتباعه، كُشكًا على جانب الشارع لبيع البضائع في السوق السوداء، كانوا يبيعون الأطعمة المعلَّبة المصنَّعة في مصنع الذخيرة الذي يعمل فيه أبي، بالإضافة إلى السُّكَّر والدقيق وبسكويت السفن والملابس، وأشياء أخرى تُشتَرى بطريقة غير قانونية من الجنود الأمريكيين، وذات يوم دخل أبي ورفاقه في شجار كبير مع بعض الجنود الأمريكيين بسبب البضائع التي كان يبيعها، فسُمعته السيئة لم تأتِ من فراغ.

ليس الأمر وكأن أبي كانت لديه خيارات كثيرة، فهزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية خلَّفت 2.4 مليون كوري في اليابان وقد تقطَّعت بهم السُبُل، لا ينتمون إلى الطرف المنتصر ولا المنهزم، دون مكان يذهبون إليه، وحالمَا أُطلِق سراحهم، أُلقِي بهم في الشوارع ببساطة، ووجدوا أنفسهم يائسين ومُعْوِزين، بلا وسيلة لكسب العيش، فصاروا

يهاجمون الشاحنات المُحمَّلة بالطعام الذي في طريقه إلى القوات المسلحة للإمبراطورية اليابانية، ويبيعون الغنائم في السوق السوداء. وحتى الذين لم ينخرطوا في أعمال عنف من قَبْل قط، لم يكن لديهم خيار سوى التحوُّل إلى خارجين عن القانون.

وبطريقة غريبة، حررت هذه الأفعال غير المشروعة أولئك الناس، ففي أثناء الحرب لم يكن أمامهم سوى خيارين قاتِمَيْن: إما أن يصبحوا جنودًا في جيش أعدائهم، أو يُستعبَدوا بوصفهم عمال حرب مدنيين. يُرسَل الجنود إلى الخطوط الأمامية ليُستخدموا دروعًا بشرية ضد القذائف، والعمال يكدُّون في العمل حتى الاستنزاف -وأحيانًا الموت- في مناجم الفحم أو مصانع الذخيرة؛ لذا كانت حياة الخارج عن القانون نوعًا من التحرر.

وفي مرحلةٍ ما، انضم أبي إلى ما كان يُعرف عندئذٍ بالاتحاد العام للكوريين في اليابان، الذي صار يُعرف لاحقًا بجمعية الكوريين المقيمين في اليابان، وكان هذا المجتمع الكوري في اليابان يؤيد مبدأ الصداقة بين الشعبين الياباني والكوري، ويجاهد لمساعدة الكوريين في عيش حياة مستقرة ومنتظمة في اليابان، لكن الأمر لم يكن بالبساطة التي بدا عليها، فمنذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، كان العديد من الكوريين من أصحاب «الإقامة الدائمة» على علاقة بالحزب الشيوعي، وقد كانت السياسات الشيوعية مناوئة للإمبريالية، ونظَّم الحزب حملات من أجل حقوق الكوريين المقيمين إقامة دائمة. وبعد الحرب، بعد وقت ليس بالطويل من تأسيس الاتحاد، أُطلِق سراح شيوعي شهير اسمه «كيم تشون هاي»، إلى جانب عدة أعضاء آخرين في الحزب الشيوعي، وكان هؤلاء الأفراد قد ظلّوا متحدين في السجن ورفضوا تغيير أفكارهم، وبعد إطلاق سراحهم، كان لهم تأثير قوي في الاتحاد، الذي أصبح يساريًا

-بطبيعة الحال- نتيجة لذلك، لكن المبدأ الأساس الذي كان يحكم سلوك أبي حينذاك لم يكن له علاقة بالاشتراكية، إذ كانت القومية هي الشيء الأهم بالنسبة إليه.

لم يكن هناك -من منظوري- اختلاف كبير بين حركة اشتراكية وحركة قومية، وشجار عنيف في السوق السوداء، فجميع هؤلاء الناس يشتركون في أمرين: جميعهم لديهم تاريخهم الشخصي في اليابان، وجميعهم فقراء، ولم يُريدوا سوى تأكيد وجودهم، الأمر الذي كان يعني القتال كيفما استطاعوا لكسب شكل من أشكال السُلطة.

كان أبي يُعرف بـ «النمر» في الاتحاد، ولا عجب، كانت لديه «قوة قتالية» من مقاتلي الشوارع الأوفياء، وهُم -في الواقع- مجموعة رجال يجتمعون أمام متجر قديم ويشعلون نارًا في سطل معدني، ويتجرَّعون المشروبات الكحولية طوال اليوم، لا أدري إن كانوا يناقشون المشكلات في السوق السوداء أو ينتظرون طلب «قوَّتهم القتالية»، لكن متى ما حدث شيءٌ وطُلِب حضورهم، يتداعون خِفافًا للقتال ويُهرَعون إلى مسرح الحدث.

وفي النهاية انهار عالم أبي، إذ صُنِّف الاتحاد العام للمقيمين الكوريين جماعةً إرهابيةً وأُمِر بحَلِّه عام 1949. عملت جمعية الكوريين في اليابان بديلًا للاتحاد بالنسبة إلى كثيرين، لكن الزمن تغيَّر، فبحلول ذلك الوقت، اسْتُعيد النظام العام، وببساطة لم تعد ثمة حاجة إلى مقاتل شوارع متهور ضعيف التعليم مثل أبي، كانت الجمعية التي أُسِّست حديثًا حينئذٍ بحاجة إلى إداريين مَهَرة، ولم يعد هناك مكان لأبي -الذي حتى لم يكن قادرًا على القراءة- في النظام الجديد. لا يسعني إلَّا أن أتساءل الآن عما إذا كان رفض تلك المجموعة له، هو ما جعله في النهاية

أكثر تصديقًا للوعود التي سمعها عن الحياة العظيمة المُنتَظَرة في كوريا الشمالية...

تحضرني مزيد من الذكريات هذه الأيام، وأحيانًا أتمنى لو أنَّني لم أتذكرها.

لديَّ ثلاث شقيقات أصغر مني -«إيكوو»، «هيفوميو»، «ماساكو»- لكننا لم نعِش معًا كثيرًا في اليابان، فلأن أُسْرتنا كانت فقيرة جدًّا، أُبعِدنا عن بعضنا وأُرسِلنا إلى منازل أقاربنا لكي يتشاركوا مهمة الاعتناء بنا، ومن ثم تخفيف العبء. وقد تغيَّر هذا الوضع في سنَتِي الأخيرة من المدرسة الإعدادية عندما انتقلنا جميعًا إلى «ناكانو» في «طوكيو». كان أبي قد قرر الحصول على عمل في مجال البناء، أو هذا ما قاله. أعرف أننا اضطررنا للانتقال بعجلة شديدة، حتى إننا لم يتسنَّ لنا الوقت لتوديع جيراننا، واضطررنا لترك جَدَّتنا الحبيبة خلفنا.

رغم أنني كنت قلقًا في البداية بشأن تَرْك كلّ ما أعرفه والانتقال إلى مكان لم أرَه قطّ، إلا أنني كنت سعيدًا بحياتنا الجديدة في البداية. بدأنا نعيش كأُسرة حقيقية، كنا نستيقظ معًا في الصباح ونخلد للنوم معًا في الليل، وكنا نتناول العشاء معًا، وكان لدينا روتين أُسَري، عَنَت هذه الأشياء الصغيرة لي الكثير، ففي النهاية، الأشياء الصغيرة هي التي عادةً ما تربط العائلات معًا بروابط الحب الأسري، لكن تلك الأوقات السعيدة نُسِفت قبل أن تبدأ تقريبًا، لم يمرّ وقتٌ طويل قبل أن يعود عُنف أبي أسوأ من ذي قبل.

في غضون أسابيع من وصولنا، عاد أبي للشراب مجددًا، يبدأ حالمًا يعود إلى المنزل في نهاية اليوم، يعاقر الشراب حتى تُنحَت على وجهه تقطيبة قاتمة، وعندما يحدث هذا، تعزل أمي شقيقاتي معي في الغرفة المجاورة، فنقف حيث نحن عاجزين ونستمع إلى المَحْتُوم الذي سيقع.

صوته الوحشي وهو يُعنِّف أمّنا، وصوت ضربه لها، وصوته وهو يحاول إخماد صرخاتها الممزوجة بدموعها، حدث الأمر نفسه ليلة تلو ليلة. غالبًا ما كنت أعجز عن فهم ما يقوله لها، لكن أيًا كان، لم يبدُ قطّ أنها تقاومه، تبكي فحسب. حاولتُ عدة مرات أن أقتحم الغرفة لإيقاف أبي، حتى إنني عضضت ساقه ذات مرة، لكنه كان يركلني مُلقيًا بي على الأرض ببساطة، فتتمدد أمي فوقي؛ لتحميني بجسدها، وأخيرًا يملُّ أبي أو يُضعِفه السُكْر، فيترنَّح خارجًا من المنزل ويختفي في ظلام الليل، فنَقتَعِدُ أنا وأمي وشقيقاتي الأرضية، رابضين معًا، وننتحب بصمت.

سمع أحد الجيران الصرخات ذات ليلة وتدخَّل، وفوجئ أبي لوهلة، لكنه سرعان ما أمسك بخناق الرجل، ودفعه إلى الجدار، وأوسعه ضربًا حتى أفقده الوعي، فلم يأتِ أحدٌ إلى منزلنا بعد ذلك أبدًا.

لم تزدَد الأمور إلَّا سوءًا منذئذٍ، عندما يعود أبي في وقت متأخر من الليل، يوقظ أمي، لا لشيء سوى أن يتمكن من ضربها مجددًا، أرتعب كل ليلة عندما أرى وجهه الجنوني، كان النظر إليه كالنظر إلى وجه شيطان، حتى إنني كنت أعجز عن النوم، غير قادر على إبعاد وجهه من مُخيِّلتي، وإذا تمكنت من النوم بالفعل، كانت تراودني الكوابيس عنه.

ومن ثَمّ حلَّت الليلة الأسوأ، كان فصل الخريف، وكنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، جاء أبي إلى المنزل ثملًا تمامًا كالعادة، لكن هذه المرة، لم يفُه بكلمة، قصد المطبخ وعاد وفي يده سكين، وضعها على عنق أمي وأرغمها على الخروج من المنزل، وعرَفت أنني عليَّ اللحاق بهما.

اختبأتُ خلف أجَمَة وشاهدت أبي وهو يُرغِم أمي على صعود تلة شديدة الانحدار تتخللها حُفَر، كان يُستخرَج منها التراب لاستخدامه في أعمال البناء، تبعتهما في الظلام وأبي يُرغم أمي على السير إلى حافة

منحدر، ارتعشت من الخوف لمرأى وميض السكين في الليلة الظلماء، أطلقَ صيحة عالية ودفعها دفعة قوية، فصرختْ وهي تتقهقر مترنُحة، ثم طاحت من فوق الحافة، ظل أبي واقفًا في مكانه هنيهة، والسكين لا تزال تومِض في يده وهو ينظر إلى الأسفل من مكانه العالي، ثم سار بخطوات قوية ناحية المنزل.

هُرِعتُ إلى التلة، إلى الحافة التي رأيت أمي تسقط منها، لم يكن بمقدوري تبيُّن مدى ارتفاعها، لكنني قفزت من فوق الحافة على أي حال، ولحسن الحظ، كانت التربة هشَّة، فلم يلحق بي أذى، وجدت أمي متمددة كدُمية مكسورة، وملابسها ملطخة بالدماء، فرفعتها مُسْنِدًا إياها، صائحًا: «يجب ألَّا تموتي! لا تموتي وتتركيني! لا يمكنكِ أن تموتي وتتركيني الآن!»، واستعادت وعيها أخيرًا، فقالت وأنا أحتضنها: «ماسابو، عليَّ أن أغادر، سوف يقتلني إذا لم أغادر، عليك أن تكون قويًّا»، فشعرت بالعجز واليُتم وأنا أتشبَّث بها، فقد كانت كل شيء بالنسبة إليَّ، الشخص اللطيف الوحيد في حياتي، لكنني كنت أعلم أنها ليس أمامها خِيار آخر.

ساعدتها في السير في الظلام وهي تعرج، واقتحمتُ باب المستشفى الذي بجوار محطة السكة الحديدية وأيقظت الطبيب الذي كان رجلًا لطيفًا عالج إصاباتها دون تردد، والمعجزة أنها لم تحتَج إلى قُطبة واحدة.

قعدنا معًا لاحقًا على مقعد جوار المحطة، في صمت، بانتظار أول قطار يتحرك، فقالت أمي فجأة:

– لا تقلق، سوف أكدُّ في العمل وأدَّخر بعض المال، ثم سأعود من أجلك ومن أجل شقيقاتك؛ لذا انتظروني حتى ذلك الحين.

ثم راحت تنتحب فحسب، بهدوء شديد، كان وجهها نحيلًا وشاحبًا كما لم أرَه من قبل، وبدت خاوية، أردت أن أكون قويًّا، لكن ها هي

ذي، تغطيها الجروح والكدمات، وما من شيء يمكنني فعله، فشرعتُ أنا أيضًا في البكاء من الإحباط واليأس الشديدين. لماذا تمرُّ بمثل هذه المحنة الفظيعة؟ لِمَ يكرهها أبي لهذه الدرجة؟ فهي في غاية الرقة واللطف، لم يبدُ الأمر منطقيًا لي.

نهضت أمي عندما توقف القطار في المحطة، وعانقتني عناقًا سريعًا، وسارت مبتعدة، واستدارت ولوَّحت لي من عند حاجز التذاكر، ثم تهاديتُ بخطى متثاقلة إلى منزلنا، شاعرًا بالخَدَر، والذهول، والوحدة المطلَقة.

تصرَّف أبي كأن شيئًا لم يحدث، وما زاد الطين بِلَّة، انتقال عشيقته إلى المنزل بعد وقت قصير من مغادرة أمي، كان اسمها «كانيهارا»، وهي كورية كأبي، كانت شريرة وقاسية، لا سيما مع شقيقاتي، لكن أبي لم يضربْ «كانيهارا» قط ولا مرة، وفي واقع الأمر فوجئتُ بأنهما كانا يبدوان شغوفين ببعضهما، كانا يضحكان ويبتسمان لبعضهما باستمرار، وقد أشعرني سلوكهما بالغثيان، حاولت أن أتحلَّى بالقوة، لكن شقيقاتي كنَّ يفتقدن أمي بشدة ويبكين كل ليلة، وعندما يبكين، تصفعهنّ «كانيهارا» وتوبِّخهنّ بعنف، الأمر الذي كان يجعلهنَّ يَفتقدنَ أمي مزيدًا من الافتقاد.

تخلَّيتُ عن الذهاب إلى المدرسة، وبدلًا منها صرت أجوب نواحي «طوكيو» يوميًا، بحثًا عن أمي، كنتُ أصعد كل صباح على متن القطار وأنسرِب في الطرقات لساعات دون توقف، واستمر هذا الحال نصف سنة على الأقل. بحثت جاهدًا في كل مطعم في المنطقة، عازمًا على عدم الاستسلام، وأثمرت مجهوداتي أخيرًا، لمحتها عبر نافذة مطعم ذات مساء، وشاهدتها -عاجزًا عن الحركة- وهي تفرُك طاولةً، ثم أجهشتُ

بالبكاء، لا بد أنني بدوْت مثيرًا للريبة لصاحب المطعم، لكنه أومأ لي، فركضتُ مباشرة إلى أمي وعانقتها.

تلطّف صاحب المطعم وقدّم لي شيئًا لآكله، وفجأة تدفق مني الكلام، وعجزت عن التوقف، أخبرت أمي بكل ما يتعلق بـ «كانيهارا»، سكنها معنا، ومعاملتها لشقيقاتي وكيف أنهن يفتقدنها، وكل شيء، ابتسمتْ بلطف قائلةً: «كن صبورًا قليلًا بعد»، ثم أعطتني عقدها وخاتمها الذهبيين، وقالت: «إذا واجهتك أيُّ مشكلة، فخذ هذه إلى مُسترْهِن، لكن لا تُحدّث والدك عني، اتفقنا؟ لا تقل له إنك رأيتني، ولا تخبره بمكاني».

عندئذٍ وقد وجدتُ أمي، بدأت الذهاب إلى المدرسة مجددًا، كنت أذهب لرؤيتها كل عصر تقريبًا حالمًا تنتهي الحصص، وأحيانًا في عطلات نهاية الأسبوع أو في العطلات العامة، كنت أصطحب شقيقاتي معي، وقد كان مالك المطعم لطيفًا جدًا معنا، أفترض أنه كان يعرف قصتنا، أمّا «كانيهارا» فلم يكن يهمني ضربها لأنني كنت أعتقد أنه ذات يوم -قريبًا- ستعود أمي وتنقذنا.

عندما أستذكر كل شيء، أعتقد أنني أتفهّم عقلية أبي في ذلك الوقت، لكن لا يمكنني مسامحته على ما فعله.

كان لديه، في أيام مجده، عشرون أو ثلاثون تابعًا، وكان الزعيم الكبير العرّاب، ففي السوق السوداء ميلادُك وخلفيتُك لا تعنيان شيئًا، سواء كنت عسكريًا سابقًا أو من أسرة نبيلة، وسواء كنت يابانيًا أو كوريًا... لا يهم، ميلادك وخلفيتك لا تعنيان شيئًا، كل ما كان يهم هو قوتك الجسدية، وكان أبي يعرف كيف يعيش بالعنف، لكن لاحقًا، عندما انتهت الحرب وعاد كل شيء إلى طبيعته، لم تعد لقوّته الجسدية أيُّ قيمة، وفجأة أصبحت الجنسية والخلفية تعنيان كل شيء، لم تكن له صلات عائلية بالميلاد، والأنكى من هذا، أنه كان كوريًا، وهذا ما صعّب

عليه الحصول على عمل. تلاشت «قوته القتالية» عندما عَدَّ الاتحاد العام للكوريين المقيمين جماعةً خارجة عن القانون، ومع ترقِّي رفاقه السابقين إلى مناصب رفيعة في جمعية الكوريين في اليابان، ظل هو قابعًا في الحضيض دون أمل في المستقبل؛ لذلك فرَّغ إحباطه على أمي، كانت عائلتها لديها بعض الأملاك، وهي نفسها تلقَّت تعليمًا معقولًا، وهي أشياء كان أبي متعطشًا لها، لكن لم يستطع الحصول عليها؛ لذا حملتْ على عاتقها كل غضبه على العالم. كنتُ أتساءل في البداية لماذا لم يضرب «كانيهارا» قط؟ وتخميني: لأنها كورية ولا تُمثِّل له تذكيرًا مستمرًا بكل ما لم يستطع الحصول عليه.

من الأشياء التي تعلمتها في هذا الوقت أنه في حين يحب بعض الناس –مثل أبي- استعراض قوتهم الجسدية، لدى بعض الآخرين سبب مُعيَّن يدفعهم للعنف.

قرر أبي، في عامي الأخير في المدرسة الإعدادية، أنه ينبغي لي الالتحاق بمدرسة متوسطة كورية، رغم أنني لا أتحدث الكورية، لم أرغب في هذا، لكن خوفي كان يمنعني من معارضة رغباته، فالتحقت بها.

كان معظمنا في المدرسة من أُسَر فقيرة، وقد كان فقْرُنا نابعًا من التفرقة العنصرية، ولا شيء آخر، لم يعبِّر معظم الطلاب صراحةً عن إحباطهم حيال هذا الوضع –فقد كانوا منشغلين بتدبير أمورهم- لكن هذا لا يعني أنهم كانوا مستسلمين، إذ غالبًا ما كان زملائي في المدرسة يتشاجرون مع اليابانيين عندما يلعبون بالخارج أو في طريقهم إلى المنزل من المدرسة، وبمرور الوقت، جميعهم صاروا يربطون بين التفرقة العنصرية والعنف، وقد كانت طريقة التفكير واضحة، إذا ضربك أحدهم، فلا تُدِر له الخَدَّ الآخر، بل تَرُدُّ الضربة بقوة مضاعفة.

شعرت بالتمزق وأنا أرى زملائي بالصف، لكنني بعد ذلك أحسست بنمو أواصر القربى بيني وبينهم، وأدركتُ أنَّ جدّتي وأقاربي الآخرين كانوا على خطأ، فالكوريون ليسوا بالوحوش الذين وصفوهم، كانوا يتَّسِمون بالخشونة بالطبع -أنَّى لهم ألَّا يكونوا- لكنهم أيضًا كانوا ودودين وطيبين. ورغم أنني كنت لا أزال أضع مسافة بيني وبين معظمهم، بدأت أتحدث مع فتى اسمه «كان تي سون»، كان يقعد بجانبي في الصف، كان لأغلبنا شعر قصير، لكن شعر «سون» كان كثيفًا أشعث، رغمًا عن لوائح المدرسة، شعره يشبه عُرْفًا؛ فأكسبه لقب «الأسد».

وبعدما عَرَف «الأسد» وضعَ أُسْرتي، دعاني ذات يوم لمرافقته إلى منزلهم، سِرْنا عبر متاهة في حيٍّ كوري بالقرب من مصنع حلويات، وكانت رائحة الحلوى اللذيذة تَعْبَق في الهواء، وعندما وصلنا إلى منزله، سألتني أمه على الفور عما إذا كنتُ جائعًا، وبعد لحظة، أسرعَتْ إلى المطبخ وعادت بأرز ومخللات كورية وعدة أطباق أخرى، وسرعان ما امتلأت المائدة بالطعام.

ما فتئتْ تقول: «كُلِ المزيد!»، رغم أنَّ فمي ممتلئ وكنت أغوص بالأرز الذي ألتهمه بنهم، كان «الأسد» وأمه يشاهدانني، ولم يسعْنِي سوى ملاحظة ابتساماتهما. اختَبَرْتُ حب الأم، وبالطبع أحببت شقيقاتي حبًا جمًا، لكن هذه كانت أول مرة أشعر فيها بعطف حقيقي مِن أشخاص لا تربطني بهم صِلة قرابة، كان دفؤهما وعطفهما ملموسين، ومنذ ذلك اليوم، كان منزل «الأسد» هو المكان الوحيد الذي يمكنني الاسترخاء فيه، ورغم ما مررت به من عقبات ومنعطفات في حياتي، لم أنسَ لطف أسْرَته قطّ.

وحالمَا صرتُ صديقًا «للأسد»، أحسست أنني أكثر قدرة على الحديث مع زملائي في الصف، لكن معظم دروسي كانت لا تزال غيرَ

مفهومة تمامًا بالنسبة إليّ، لأنها تُدرَّس باللغة الكورية، الرياضيات كانت مفهومة، وكذلك العلوم إلى حدٍ ما، لكن بقية المواد لم تكن سوى همْهَمات مُستغلَقة. كان يوجد آخرون مثلي لا يعرفون شيئًا من الكورية، لكن على غير المتوقع، كان بعض الأساتذة يتحايلون على اللوائح ويشرحون لنا باليابانية.. متمردون!

علّمونا أنّ «كيم إيل سونغ» هو «الملك الذي حرَّر كوريا من الاستعمار»، وأنه شنّ حربًا على الأمريكيين الإمبرياليين وأتباعهم الكوريين الجنوبيين الخانعين، وقد انتصر. وغُرِس في أذهاننا أنّ «كيم إيل سونغ» جنرال قويٌّ لا يُقهر، لاحظتُ أنّ الأساتذة كانوا فخورين بِدوره بوصفه «الزعيم العظيم» لأمة صاعدة.

ضربَ الركودُ اليابانَ في هذه المُدَّة، وأعلنت عدة شركات إفلاسها، فارتفعت نِسَب البطالة ارتفاعًا حادًا، وكان الكوريون هم الأكثر تأثرًا، فالظروف التي كانت صعبة فحسب مِن قَبْل، أصبحت فظيعة بالنسبة إلى عائلات كثيرة، وفي هذه الأثناء، في كوريا الشمالية، أعلن «كيم إيل سونغ» أنه بصدد بناء يوتوبيا اشتراكية، وسُمّيت بـ «حركة شوليما». كان أساتذتنا يعيشون في فَقْرٍ مثل بقيتنا، فتعلقوا بِقشّة الأمل، فهناك تلك الأرض، «أرض الميعاد»، «الجنة على الأرض»، «أرض اللبن والعسل»، وفي خضم يأسهم، صدّقوا هذه المزاعم، ومرّروا هذه الأكاذيب إلينا. كنت أستمع إلى ما يقولونه بنصف انتباه في أحسن الأحوال، آه بالطبع، توجد «جنة على الأرض» على الشاطئ الآخر من البحر، لكن الوضع هنا والآن هو كلُّ ما كان يهمُّني، كيف يمكنني تحسين حياتي الآن؟ كانت المظاهرات تندلع في الشوارع، وكانت أُسْرَتي بالكاد تتدبَّر أمرها، وكنا في حالة توتّر دائم، وعلاوةً على هذا، كانت «كانيهارا» لا تزال تعيش معنا، وما زِلت أتسلل مع شقيقاتي لنقابل أمي في كلِّ عطلة نهاية

أسبوع، وبالنظر لكل ما كان يحدث فيما حولي يوميًا، كان من الصعب الاكتراث كثيرًا بـــ «جنة» كوريا الشمالية.

عُدتُ إلى المنزل ذات يوم، بعد قرابة عام من هرب أمي، ووجدت صفًا من الأحذية مرصوفة خارج الباب الأمامي، وصُعِقتُ بما رأيته في الداخل: بعض الرجال يُوبِّخون أبي بعنف، والأهم من ذلك.. لم يُضرَبوا حتى الموت. كانت ثمة إجابة واحدة: لا بد أنهم من أصحاب الشأن في الجمعية، دلفتُ خلسة إلى الغرفة واستمعت إلى نقاشهم، قال أحدهم: «اسمع، إذا لم يكن بمقدورك تحسين سلوكك فيما يتعلق بزوجتك، فسننهي صداقتنا معك»، وقال آخر: «سوف نُبلِّغ الأمر للجمعية، وعندها سينتهي أمرك»، تناوبوا على تقريعه، واحدًا تلو الآخر، وكانوا يضربون على حصائر التاتامي ويرفعون أصواتهم وهم يطلبون منه التفكير بما اقترَفَه، وشرعوا في تعديد جميع تفاصيل حياته الدنيئة، وبعد ساعة أو نحوها، نهضوا جميعًا وغادروا، شاعرين بالرضا بأنهم أوضحوا وجهة نظرهم، كما غادر أبي و«كانيهارا»، لكن لم تكن لديَّ فكرة إلى أين تسللوا، عاد أبي لاحقًا وحده في تلك الليلة، ولا أدري إلى أين ذهبت «كانيهارا»، ولم أرها مجددًا أبدًا.

وبعد بضعة أيام، ظهر بعض الرجال المنتسبين إلى الجمعية عند بابنا، ومعهم أمي، ذُهِلتُ ذهولًا شديدًا لهذا التحول في الأحداث، ولم يسعْنِي سوى النظر مدهوشًا، جثا أحد الرجال من الجمعية منحنيًا أمام أمي وقال: «تعهَّد زوجك بأنه سوف يُصْلِح سلوكه، هل ترغبين في أن تبدئي معه مجددًا؟ الأمر لا يتعلق بكِ وحدكِ، فكري بالأطفال»، كانت أمي مشدوهة وقد انعقد لسانها، لكنها وافقت على العودة في النهاية، ورغم أنَّ شقيقاتي صرخن من البهجة والحماسة، فقد كنتُ قلِقًا أيَّما قلق، لم أستطع التفكير بشيء سوى أنَّ أبي سيبدأ ضربها مجددًا، وأنها مسألة

وقت ليس إلّا، لكن مرَّ يوم، ولا شيء، أسبوعٌ، ثم شهر، ولا شيء، لم يضربها مجددًا أبدًا، وظل رجال من الجمعية يأتون إلى منزلنا ليتحققوا.

لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، بل أوسعوا أبي تأنيبًا بشأن عدم عمله، كانوا يأتون إلى المنزل ويُقرِّعونه أيّما تقريع: «اسمع! ليس لديك عمل، وما الذي تفعله؟ تَثْمل طوال اليوم وتُحيل حياة زوجتك جحيمًا، لكن إذا ذهبت إلى هناك... ثمة وفْرَة في الوظائف! فكِّر بالأمر! ستتمكن من إدخال أولادك الجامعة»، لم أكن أعرف أين كانت «هناك» هذه، لكنهم ما انفكُّوا يحثُّونه على «العودة» إلى هناك. تحدثوا وتحدثوا، أحيانًا حتى منتصف الليل وبعده، كان بمقدوري سماع كل كلمة يقولونها من خلال الباب المنزلق الرقيق الذي يفصل غرفتي عن غرفتهم، كان من الواضح أنهم يناقشون أمرًا قد يغيِّر حياتي تغييرًا تامًا، دون سبيل للرجوع، وفقدت صوابي من الخوف مما قد يكون. ومن ثَم... ها قد ذُكر الأمر نفسه في المدرسة، «كوريا الشمالية هي موطنكم، إنها جنة على الأرض، هذه هي فرصتكم، اذهبوا إلى موطنكم!»، لكن كوريا الشمالية لم تكن بلادي، لا علاقة لي بها، لماذا كان أبي يُحَثُّ على «العودة» إلى هناك؟

طَفِقَ «كيم إيل سونغ» يتحدث عن الأمر في خطابٍ استمعنا إليه في المدرسة في 8 من سبتمبر 1958، إن لم تخُنِّي الذاكرة، قال كلامًا فيما معناه: «رفاقنا من أبناء وطننا الذين يعيشون في اليابان ليس لديهم حقوق، ويُميَّزُ ضدهم؛ ولهذا يعانون مشقّة الفقر، ويريدون العودة إلى وطنهم الأم، ونود أن نرحب بعودتهم، سوف تضمن حكومة جمهورية الشعب أن يتمكنوا من بَدْء حياة جديدة عند عودتهم، وسوف نضمن ظروف معيشتهم»، كان تعبير «العودة إلى كوريا الشمالية» لا يزال عصيًا على استيعابي، فأبي كان من الجزء الجنوبي من كوريا، وليس

من كوريا الشمالية، وكوريا الشمالية لم تكن موجودة عندما وُلِد أبي، فلماذا قد «يعود» إلى مكان لم يعرفه قط؟

وبعد تصريح «كيم إيل سونغ»، بدأ الاتحاد العام للمقيمين الكوريين حملة إعادة كبيرة تحت ستار الإنسانية، وفي العام التالي (1959) تفاوضت جمعية الصليب الأحمر الياباني وجمعية الصليب الأحمر الكوري سِرًّا بشأن «اتفاقية عودة» في «كَلكُتا»، وبعد أربعة أشهر، غادر أول فوج من العائدين ميناء «نيغاتا»، وبعد ذلك بوقت قصير، بدأ منتسبون إلى جمعية المقيمين في اليابان بالظهور عند باب منزلنا، متلهِّفين لإقناعنا بخوض الرحلة، وكانوا جميعهم مؤيدين للعودة الجماعية.

هل كانت اللجنة الدولية للصليب الأحمر تعرف شيئًا عن هذا؟ وهل كانت الولايات المتحدة والأمم المتحدة تعلم؟ نعم ونعم ونعم، وما الذي فعلوه حيال الأمر؟ لا شيء.

في الأيام الأولى لِما يُعرَف بالإعادة، غادر قرابة سبعين ألف شخص اليابانَ وعَبَروا البحر إلى كوريا الشمالية، واستمرت العملية حتى عام 1984، باستثناء انقطاعٍ وجيزٍ دامَ ثلاث سنوات ونصفًا، وخلال هذه المدة، عَبَر قرابة مئة ألف كوري وألفَي زوجة يابانية إلى كوريا الشمالية، ويا لها من هجرة كبيرة. وفي الواقع كانت المرة الأولى (والوحيدة) في التاريخ التي ينتقل فيها هذا العدد الكبير من الناس من دولة رأسمالية إلى دولة اشتراكية.

شجعت الحكومة اليابانية بنشاط عمليات الإعادة، زاعمةً أنها لأسباب إنسانية، لكن في رأيي، لم يكن يُحرِّكهم فعلًا سوى الانتهازية الخبيثة التي تهيمن عليها المصلحة الذاتية. فلننظر إلى الحقائق، إبّان مدة الإمبراطورية اليابانية، جُلِب الآلاف تلو الآلاف من الكوريين إلى اليابان

بغير إرادتهم ليعملوا في عبودية قسرية، ولاحقًا، ليُستَخدَموا وقودًا للمَدافع، والآن كانت الحكومة تخشى أنَّ هؤلاء الكوريين وأُسَرهم -الذين يُميَّز ضدهم ويسحقهم الفقر في سنوات ما بعد الحرب- قد يصبحون مصدرًا للقلاقل الاجتماعية، فكانت إعادتهم إلى كوريا حلًّا لمشكلة لا غير.

ومن منظور حكومة كوريا الشمالية، فقد كانت دولتهم في أمَسِّ الحاجة إلى إعادة البناء بعد الحرب الكورية، وما الذي يمكن أن يكون أكثر ملاءمة من تدفقٍ كبيرٍ من العمال؟ كان «كيم إيل سونغ» في حاجة شديدة إلى أن يُثبِتَ للعالم أنَّ الجمهورية الديمقراطية متفوقة على كوريا الجنوبية، وفكرة آلاف الكوريين العائدين لديارهم ليعملوا طَوْع أمرِه في «الخطوة العظيمة للأمام» -كما أسميها-، غذَّت أحلامه المهووسة.

صحيح إذن، كانت الإعادة الجماعية خبرًا سارًّا لكلتا الحكومتين، الحل المثالي الذي يُرضِي الجميع باستثناء البشر الحقيقيين المعنيين بالأمر.

صُدِّعتْ رؤوسُنا بِسَيل مستمرٍ من الإعلانات الصبيانية التي تكاد أن تكون هستيرية: «استمتعوا بالعمل والدراسة في كوريا الشمالية!»، و«كوريا الشمالية جنة على الأرض!». تقع اللائمة بالتساوي على الجمعية ووسائل الإعلام العامة، كان أصحاب الشأن في الجمعية موهومين، وكان الصحفيون سُذَّجًا سذاجةً لا نظير لها، وبالطبع، أحسُّوا بالذنب حيال ماضي اليابان الاستعماري، لكن هذا الإحساس بالذنب، الذي لم يَجْلُ بصيرتهم، وضع غِلالة على تفكيرهم وشوَّش مُقدَّراتهم النقدية، أعني أننا كنا في النصف الثاني من القرن العشرين، وهُم، للحسرة، ما زالوا ينظرون إلى الشيوعية بِعَدِّها الطريق إلى عالم مثالي. أتساءل عما

إذا كان أيٌّ من هؤلاء الذين يتشدَّقون بهذه الرسائل قد استوعبوا، في السنوات اللاحقة، مدى البؤس الذي كانوا مسؤولين عنه.

وبعد قول هذا، لستُ مقتنعًا بأنَّ تلك اليوتوبيَّة كانت فعلًا القوة الدافعة وراء قرار الناس بالهجرة، فبالنسبة إلى معظم النازحين الكوريين الذين كانوا يعيشون في اليابان حينذاك، كانت النقطة الرئيسة وعدًا أبسط بكثير: «إذا عدتم إلى دياركم، فسوف تضمن لكم الحكومة حياة مستقرة وتعليمًا من الدرجة الأولى لأطفالكم»، فبالنسبة إلى الأعداد التي لا تحصى من الكوريين العاطلين، والذين لا يتلقَّون أجرًا كافيًا، والذين يعملون في أيِّ وظيفة يُمكِنهم الحصول عليها، كانت وعود الاشتراكية المجردة أقلَّ تأثيرًا بكثير من الأمل في حياة مستقرة ومستقبل مشرق لأطفالهم.

ذات مساء في عام 1959، عندما دخلتُ المنزل عائدًا من المدرسة، أعلن أبي: «سنعود إلى بلادي»، فارتعشتُ من الغضب والصدمة، وقلت: «مُحال! لا أريد الذهاب!»، كان قلبي يخفق بشدة، والتفتُّ إلى شقيقاتي وأمي ملتمسًا المؤازرة، لم تكن شقيقاتي ناضجات بما يكفي لاستيعاب مضمون النقاش؛ لذا اكتفين بالاستماع برهبة وأبي يتابع حديثه: «ماذا لدينا هنا لنأكله؟ لا شيء تقريبًا، لكن إن ذهبنا، فهناك سنعيش حياة مستقرة، حياة لم نعِشْها هنا قط!»، فتدخَّلت أمي بصوت مرتعش: «لكن لا يمكنني الحديث بالكورية، فكيف سأعيش؟» بدت مرعوبة، وتشبثتُ ببصيص أمل في أنها قد تواجهه، لكنني لاحظتُ أيضًا أنها لم تقُل صراحةً إنها لن تذهب.

استشاطت جدتي غضبًا عندما أخبرناها أنا وأمي بما قاله أبي، وظهرت عليها أعراض السكْتَة قائلة: «هذه فكرة فظيعة! لا يمكن أن تكونوا جادِّين، جميع الكوريين همجيون، تمامًا مثل زوجِك، إضافة إلى

أنك وأطفالك يابانيون، سوف يكرهكم الكوريون الشماليون ويُسيؤون معاملتكم، أعرف أنّ هذا سينتهي نهاية سيئة»، لم أرها غاضبة قطّ كما كانت ذلك اليوم.

وعندما وصلنا إلى المنزل، وجدنا بعض البغيضين من الجمعية يحومون في المكان.

كانوا يأتون لمقابلة أمي يوميًا، وأوهنوا إرادتها تدريجيًا بوعودهم، كانوا يقولون أشياء مثل: «إذا ذهبتِ إلى هناك، فلن تعرفي شجارًا أبدًا، وسيتمكن أطفالك من دخول المدرسة مجانًا، ويمكنك العودة إلى زيارة اليابان بعد ثلاث سنوات»، يا لهم من بغيضين متملّقين، كرِهتُهم.

وفي النهاية، انتصروا.. انتصر الأوغاد، وافقَتْ أمي على الذهاب إلى كوريا الشمالية مع أبي، كنتُ مصعوقًا، واستبدَّ بي الاضطراب، ما الذي كانت أمي تفكر فيه؟ لماذا -بحق السماء- قرَّرَتِ الذهاب معه؟ من أجل الحب؟ بعد كل ما جعلها تمرُّ به؟ أم إنها وافقت بسبب حِسٍّ غريب بالواجب؟ هل صدَّقَت الوعود بحياة أفضل؟ لن أعرف أبدًا.

قُرِّرت مغادرتنا في يناير عام 1960، وعندما حلَّ اليوم أخيرًا، غادرنا أنا وأبي وأمي وشقيقاتي المنزل للمرة الأخيرة وتوجهنا إلى محطة «شيناغاوا»، حيث تَجمَّع حشدٌ ضخم، ورغم أنني ما كنتُ أتوقع حضورهم، مسحتُ الحشد بناظريَّ لعلِّي ألمح جدتي وأخوالي وأقاربي، لكنهم لم يكونوا موجودين، كانت جدتي قد أعلنت أنها لم تعد تربطها علاقة بأمي وأنها لن تتحدث معها مجددًا أبدًا، ورغمًا عن هذا، كنت آمل أنَّ واحدًا منهم -أيَّ واحد- قد يأتي ليودِّعنا. عَزَفَتْ فرقة آلات نحاسية وهي تسير بنظام وخطوات متصلِّبة بضجيج يصمُّ الآذان، صادر من سماعة فوق الحشد، وهتف الجميع: «مرحى!».

شقّ صديقي «الأسد» طريقه بين الحشد، وأمسكني من كتفيّ وهزّني، وكانت الدموع تنهمر على وجهه.

- أذاهبٌ أنت حقًا؟

- سوف أراسلك، وأعدك بأنني سأعود يومًا ما.

هذا كل ما استطعت قوله، تلوَّت معدتي، فقد كانت تجتاحني مشاعر كثيرة ونحن نصعد على متن القطار، وعندما نظرت إليه من مقعدي، كان وجهه شاحبًا، وأدركتُ فجأة أنني لن أراه مجددًا أبدًا.

وعندما بدأ القطار يتحرك، سمعنا أصواتًا ناشزة من هتافاتٍ بَهْجَةٍ وصرخاتٍ بدت قادمة من كل مكان، تساءلت: لماذا؟ ففي النهاية كانوا عائدين إلى موطنهم الأصلي، فلماذا كل هذا الحزن؟ وبدت الأمور مُنذِرةً بأشياء سيئة قادمة.

الفصل الثاني

انطلق بنا القطار، ثم أُدخِلنا إلى المركز الرئيس الفوضوي والمزدحم للصليب الأحمر الياباني، حيث أمضينا ثلاث ليال، وعندها حُوِّلنا ومُرِّرنا دون تدقيق خلال الإجراءات الرسمية لـــ «العودة» إلى بلدٍ لم يعِشْ فيه أيٌّ منا من قبل قطُّ. بعض الزوجات اليابانيات تخلصنَ من جوازات السفر اليابانية عندما حصلن على الوثائق الكورية، لكنّ أمي احتفظت بجواز سفرها، كانت توجد جُملة مدفونة في مكانٍ ما في أوراق الإجراءات، تنصُّ على: «حالما تستقر في كوريا، لن يُسمح لك بالعودة إلى اليابان دون تصريح رسمي من اليابان»، حاولتُ إقناع نفسي، بما أنني ياباني الميلاد، فلن أواجه مشكلة في العودة ذات يوم، لكن مع مرورنا عبر النقاط البيروقراطية المتعددة، لم يسعْنِي سوى الشعور بإحساس غامر بالرهبة.

نُقلنا أخيرًا بالحافلة إلى الميناء، وتسلَّقنا بجهد متن سفينة ركاب سوفييتية تبدو عتيقة، اسمها الـ «كوريريون»، عانى موظفو الصليب الأحمر بسبب الكم الهائل من المعاملات الورقية، كانوا يسمحون للناس المتعبين بالسير والصعود فحسب، تحركت السفينة بعد صعودنا بوقت قصير، ولم يكن ثمة مجال للعودة. حدقتُ كاسِفَ البال يائسًا إلى اليابان ونحن نغادر ميناء «نيغاتا»، ثم رحت أشاهد الأمواج الكليلة الكئيبة وهي تتكسر على مقدّمة السفينة، وكان الرذاذ يبلل البَحَّارة السوفييت الذين

يعملون على السطح، ولا يرتدون سوى قمصان خفيفة رغم الهواء البارد الذي يصفع بحر اليابان.

نظرت فيما حولي، ودُهشت من أنَّ بعض رفاقي الركاب صعدوا على متن السفينة دون أيّ حقائب، ما الذي كانوا يفكرون فيه بحق السماء؟ تذكرت الإعلان السخيف الذي أصدرَته جمعية الكوريين في اليابان: «إذا ذهبتم إلى كوريا الشمالية، فستتمكنون من الحصول على كل ما تحتاجون إليه»، كان هذا إيمانًا أعمى من جانبهم.

وبعد يومين طويلين في عُرض البحر، كنت في سريري عندما صاح أحدهم بأننا نقترب من ميناء «شونغجين» بكوريا الشمالية، فهُرِعنا جميعنا إلى السطح، ولمحتُ جبلًا على البُعد، بدَا أجردَ بائسًا، وما من أشجار بادية للعيان، هتف أحدهم: «مرحى للزعيم العظيم كيم إيل سونغ!»، وانتقلتْ العدوى إلى بعض الركاب الآخرين الذين انضمُّوا بمزيدٍ من الهتافات المَرِحة، لكنَّ صوتًا آخر بدأ يتصاعد من آخرين، صوتًا كأنه مزيجٌ من تأوُّهٍ وصراخٍ سرعان ما صار عاليًا ومرعبًا، تشبَّثَ رجل عجوز يقف بالقرب مني بحاجز السفينة، وقال: «هذا ليس...» تهدَّجت كلماته وتلاشت، وندت عنه شهقة «...هذا ليس ما توقعتُه»، تصلَّب جسده، واستحالت براجم أصابعه بيضاء كوجهه الشاحب شحوب الموتى، فجعلني مظهره الشبحي أرتعد، واقتربتُ من شقيقتي «إيكو» ألتمس فيها الدفء والعزاء، ولم يسعْني، وأنا أحدق إلى ذلك الجبل القاحل، سوى التساؤل عما سوف يحلُّ بنا.

ثم لاحظت، مع اقترابنا من الميناء، عدة سُفُن صدِئة راسية على مقربة، وبدت مهجورة تمامًا، ما من حمولة بانتظار تفريغها، وما من عامل مَرْفَأ على الرصيف، ميناء أشباح، وقد جَعَلتْ التلال الجرداء في الخلفية كلّ شيء يبدو أكثر كآبةً وقتامة.

ثَمَّة أوركسترا تعزف على الرصيف، موسيقاها باهتة ومُؤرِّقة، مرحبًا بكم في كوريا الشمالية! تذكرتُ فرقة الآلات النحاسية الشنيعة في «نيغاتا»، بغطرستها الفارغة المرحة الخرقاء، والآن ها هي هذه الأوركسترا الحزينة، تُحدِث أصواتًا نشازًا في الرياح الباردة، ومع اقتراب السفينة من المَرْفَأ، رأيتُ أنَّ العازفين جميعهم فتيات مدارس، ورغم أننا كنا في منتصف الشتاء، لم يكنَّ يرتدين أكثر من معطف رقيق للزِّيِّ القومي الكوري. هبَّت الرياح الحادة على عينيَّ، ثم ألقيتُ نظرة ثانية على وجوههن وابتساماتهن المزيفة، لا بد أنكم رأيتموهن على التلفاز، تلك العروض المشوَّهة لفتيات المدارس، اللاتي يُقْتَدْنَ آليًّا في «بيونغ يانغ» للاحتفال بعيد ميلاد الزعيم العزيز أو في أيِّ ذكرى سنوية كئيبة أخرى. ها هم أولاء، بالنموذج البُدائي والابتسامات المتشنِّجة التي ترتسم على وجوه الذين غُسِلت أدمغتهم، وبطبيعة الحال لم أفهم تمامًا ما كنت أراه عندئذٍ، لكن حتى في تلك اللحظة، كنت أعلم أن كلّ هذا هراء.

رَسَوْنَا على الرصيف، وصعد عدة كوريين شماليين لمساعدتنا في الإنزال، ملابسهم وأحذيتهم وكلّ شيء متعلق بهم أفصحَ على الفور عن أنَّ أهل الجنة هؤلاء قَطْعًا أفقرُ منا عندما كنا نعيش حياتنا القاسية في اليابان، ولبثتُ أفكر بالوثائق التي تلقيناها ونحن نسير بخطى متثاقلة على الممشى الخشبي، إذ أشارتْ إلى شيءٍ من قبيل «التقديم للعودة» وذكرتْ شيئًا فيما معناه: «إذا رغبتَ في العودة إلى اليابان في أيِّ مرحلة، حتى إذا أوشكتَ على دخول كوريا الشمالية، فأخطِر فورًا أيّ عضو من أعضاء الصليب الأحمر الموجودين حولك»، فنظرت فيما حولي مذعورًا بحثًا عن موظف صليب أحمر، لكن أبي وضع راحة يده على لَوْحَيْ كتفَيَّ ودفعني للأمام، ولم يعد أمامي خِيار سوى مواصلة السير في الممشى الخشبي.

وُلدتُ مجددًا.

اقتادونا إلى حافلات ونُقِلنا إلى مراكز الاستقبال في المدينة، حدَّقتُ خارج النافذة مغمومًا، وأنا أبحث عن أيّ شيء قد يمنحني الأمل، فلم أرَ سوى بضعة منازل في طريقنا إلى البلدة، كان المنظر الطبيعي موحشًا، ولا يزال يحمل الندوب التي خلّفتها قنابل الحرب الكورية، وحالما وصلنا، أُجرِيت لنا مقابلات مع المسؤولين، الذين كانوا يحددون المهنة المستقبلية لكل شخص ومكان إقامته، بهذه البساطة. ولم أستطع تصديق مدى لا مبالاة أبي، فعندما سُئل عن المكان الذي يرغب في الذهاب إليه، قال ببساطة: «أيّ مكان يناسبني، لا أعرف أسماء أيّ مناطق في كوريا الشمالية، وسوف أسعد بالذهاب إلى أيّ مكان»، كان في غاية الثقة والتفاؤل، لكن لم يكن بمقدوري تصديق أنه وضعنا ببساطة تحت رحمة المسؤولين.

لكن أمي نهَشَها القلق، ولن أنسى ما حييتُ نظرة الذعر والرعب التي بدت على وجهها، فسألَتْه بصوت متهدِّج: «ما الذي سيحدث لنا؟»، ظل أبي يقول: «لا تقلقي، سيكون كلّ شيء على ما يُرام»، لُذتُ بالصمت، كيف يمكنه أن يكون واثقًا من أنَّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام؟ وعندما أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم، أعتقد أنَّ اللغة لعبت دورًا، فأخيرًا صار بإمكانه الحديث بلغته الكورية الأصلية مجددًا.. وأخيرًا أحسَّ بالانتماء، وبدا أنَّ هذا الشعور بالارتياح تسرَّب إلى كل جوارحه، إذ كنت أراه مسترخيًا وهو يتحدث بلغته الأم، الأمر الذي أمدَّه بالثقة بشأن أيّ شيء آخر.

كنتُ -بطبيعة الحال- مثل أمي، قلقًا بشأن المستقبل، لكن بالنسبة إليَّ -أنا الصبي البالغ ثلاثة عشر عامًا ويكبر بسرعة- كان قعودنا لتناول وجبتنا الأولى أكثر ما أنذرني بالخطر، عجِزتُ عن تصديق الطبق

الذي ظهر أمامي، قدموا لنا لحم كلاب! أجل، لحم كلاب رائحته نفّاذة، كنا نتضوّر جوعًا؛ لذلك أمسكنا أنوفنا، لكن حتى عندئذٍ كنا على وشك التقيؤ، حاولت جاهدًا التغلب على غثياني، لكن أيًّا منا لم يكن بمستطاعه ازدراد لقمة واحدة، باستثناء أبي.

كنا محظورين من مغادرة مركز الاستقبال، فها نحن أولاء، المحظوظين بتلقي المعاملة الإنسانية، سجناء في جنة على الأرض. كلّ أُسْرَة أُفرِدت لها غرفة بعرض ستّ حصائر تاتامي، وكانت هبَّات الرياح المتجمدة تدخل إلى الغرفة من خلال الجدران المهلهَلة، والحصى يسلخ خدودنا، وفي تلك الليلة الأولى، تساءلتُ عما سيحلُّ بنا، ونحن جميعًا ممددون جوار بعضنا، نرتجف على الأرضية المتجمدة، ظلت شقيقاتي يناديننى بصوت منخفض حزين، «أخي! أخي!»، كُنَّ مرهقات وخائفات ويرتعشن من البرد، وأردتُ أن أُسَرِّي عنهن، لكن لم يخطر لي شيء لأقوله.

أمضينا عدة أسابيع في حالة الإهمال هذه، قابعين في البرد يومًا بعد يوم، ونرتجف على الأرضية ليلةً بعد ليلة، متوجِّسين من المستقبل والمجهول الذي ينتظرنا، حاولت ألّا أفكر بأيّ شيء، وأن أتجاهل ذكرياتي عن الحياة التي تركتها خلفي، وألّا أتخيل ما ستكون عليه حياتنا هنا.

حُدِّد مصيرنا بعدها ببضعة أسابيع، سيكون منزلنا المستقبلي في قرية «دونغ تشونغ ري»، كنت متوَتِّرًا بشأن هذا المكان الذي لم أسمع به قطُّ، لكن ظننت أنه لا بُدّ سيكون أفضل من وجودنا بين أسوار مركز الاستقبال. استغرقت الرحلة قرابة اثنتي عشرة ساعة بالقطار البخاري، وساعة أخرى على متن عربة تجرُّها ثيران، وعندما اقتربنا ببطء من القرية المحاصرة بالثلوج، توقفتْ عربة الثيران وترجَّلنا عنها بجهد، وسقطت شقيقتي الصغرى «ماساكو» على الثلج وشرعت في البكاء،

وسرعان ما تحوَّل بكاؤها إلى عويل جامح، كانت قد تمكنت بطريقةٍ ما من الصمود في وجه أهوال ظروفنا حتى تلك اللحظة، لكن انكبابها على الثلج كان القشة التي قصمت ظهر البعير، كانت قد بلغت السادسة للتو، وحياتها الصغيرة بأكملها انقلبت رأسًا على عقب في غضون بضعة أسابيع.

ظلت تنوح: «أريد العودة إلى البيت!» والدموع تنهمر على خديها، وصُعِقتُ عندما حملها أبي ليُهدِّئها؛ إذ لم أرَه يُظهِر أيَّ حنان أبويّ من قبل قطُّ، تحدث معها بلطف وحاول تهدئتها، ودليلنا يقودنا في الطريق، نظرتُ فيما حولي من أكواخ متداعية بسقُوفها المصنوعة من القش، التي تلتمع بالثلوج، قد يبدو وصفي جديرًا بأن يكون صورة رائعة، لكنه ليس كذلك، كان المنظر كئيبًا.

المبنى الذي قُدِّر لنا أن نسميه منزلنا كان يُستخدم مكتبًا خاصًّا بالحزب، وكان المبنى الوحيد في القرية المسقوف بالبلاط، فتحمَّس دليلنا تحمسًا يكاد أن يكون هستيريًّا وهو يشير إلى هذه المعلومة، ومن الواضح أنه كان «شَرَفًا عظيمًا أن نسكُن في مثل هذا المنزل»، فنظرتُ إلى هذا الشيء بكل أُبَّهته الملفَّقة، وجدرانه التي تكسوها الشقوق، كنت في حَيْرةٍ من أمري، هل يُصدِّق حقًّا ما يقوله؟ وإن كان يُصدِّق، لكدتُ أن أبكي من أجله، إلَّا أنني أنا الذي كنت سأعيش في المنزل في النهاية لا هو.

ألفَيْنا امرأة عدوانية المظهر في انتظارنا قرب الباب، فتحدثتْ إلينا بنبْرَة متغطرسة سوف تصبح مألوفة لديَّ في السنوات التالية، واكتشفتُ لاحقًا أنها رئيسة نقابة النساء الديمقراطية المحلية، وكانت قد جرَّت معها بعض الجيران للترحيب بنا، وكانوا منتظرين بالداخل، وحالمَا اجتزنا عتبة الباب، شرعتْ في إلقاء خطبة:

«هؤلاء الناس تعرضوا للعنصرية في اليابان، لكن بفضل لطف الزعيم الأعظم كيم إيل سونغ، تمكنوا من العودة إلى وطنهم الأم!».

لم يسعْنِي سوى ملاحظة أنَّ جيراننا المستقبليين لم يُولوا اهتمامًا كبيرًا لكلماتها، كانوا مشغولين بالتحديق بنا، إذ راحوا يرْنُون بأعينهم إلى ساعاتنا ودراجاتنا وبضعة أشياء أخرى تمكنا من جلبها معنا، ثم التفتت السيدة إليَّ قائلة: «سأصطحبك إلى المدرسة غدًا، كن مستعدًا!» وبعدها غادروا جميعًا المنزل.

بدا أنَّ الإضاءة تعمل، لكن المصابيح لم تكن تبعث سوى تَوَهُّج ضعيف باهت، ولم أكن أعرف شيئًا عن الجهد الكهربي المنخفض وقتذاك، ثم نظرت فيما حولي بحثًا عن إمدادات الغاز، لكنها لم تكن موجودة، ولم أجد حتى صنبور مياه باردة، فنظرت خارج النافذة، ها هي ذي على بُعد ثلاثين ياردة تقريبًا.. بئر.

كانت أمي ذاهلة عما حولها، ومثلي، لم تستطع تصديق ما تراه.

- كيف سنعيش هنا؟

ردَّدت الجدران الجرداء صدى كلماتها، وشعرتُ بالتشوش، عاجزًا عن التفكير أو الإحساس بأيِّ شيء، فاضَّجعتُ على حصيرة وحاولت أن أنام بعد الرحلة الطويلة، تململتُ وتقلَّبت، واستيقظت مُنهكًا وفاقدًا حِسِّي الزمان والمكان.

أوفَت رئيسة نقابة النساء الديمقراطية بكلامها وجاءت لتصطحبني في الصباح التالي في أول يوم لي في المدرسة بكوريا الشمالية، جاءت مع ابنتها، التي أعلنت بفخر أنها «قائدة كشافة»، ورغم أنني لم أكن أتحدث الكورية جيدًا، فهمتُ على نحو غامض ما كانت تتحدث عنه،

وقلتُ ببساطة: «صباح الخير» وتَبِعتُهم، لم تكن ثَمة صورة لليوم الأول في المدرسة لتوضع في أرشيف العائلة.

عندما دخلتُ إلى المدرسة، رأيت قرابة مئة تلميذ وأستاذ مجتمعين في غرفة واحدة، ألقيت عليهم التحية بلغة كورية خرقاء:

«شكرًا لكم للترحيب بي».

غمغم أحدهم: «ياباني لقيط».

ثم بدا أنَّ الجميع يهمسون بالكلمات: «ياباني لقيط!».

جُرِحتُ، وأحسست بالحرارة تتصاعد إلى وجهي، وتمنيت لو اختفيت، وبدأ التلاميذ يشيرون إلى حذائي البلاستيكي وأشياء أخرى لم يرضوا عنها.

– انظروا إلى حقيبته!

– إنه يرتدي ساعة!

– ياباني لقيط!

لاحظت أنهم لم يكن لديهم حقائب، ويلفُّون أغراضهم بقطعة قماش، فقررت أن أفعل مثلهم بعد ذلك.

وبعد هذا الترحيب، شاهدتُ عشرين تلميذًا يُقدِّمون مسرحية، كانت دعاية سَمِجة تصوِّر حياتي حتى تلك اللحظة، ووَفْقًا للمسرحية، فقد عشتُ حياةً عسيرة في اليابان، لكن بفضل مجهودات حزب العمال الكوري وجمعية الكوريين القديمة، تمكنتُ من «العودة» إلى «وطني الأم»، وعندما انتهى العرض، صفق الجميع بجَذَل، وصفقتُ أيضًا بداعي التهذيب فحسب.

كانت المدرسة صعبة، ليس بسبب الدراسة، لكن لأنني كنت أفهم القليل جدًّا من الكورية، وكلّ ما كنت أستطيع فعله هو أن أستنتج

بغموض ما يقولونه من السياق، وغالبًا ما كنت أُدعى بـــ «الياباني اللقيط»؛ لأنني لا أتحدث الكورية، ولاحقًا أدركت أنَّ السبب ربما يكون أيضًا لأنني لم أكن أستطيع الرد.

وذات يوم في طريق عودتي من المدرسة، شهِدتُ شجارًا بين زملائي، ولم أُطِق رؤية تعرض أحدهم للضرب بقسوة، فقفزتُ على المعتدي، ورغم ضآلة حجمي آنذاك، كنت قويًا لا أهاب شيئًا بفضل جينات أبي والمدرسة الكورية التي ارتدْتُها في «يوكوهاما»، ولدهشتي تمكنت من الإطاحة به أرضًا، ثم أمسكني رجلٌ من ياقتي، تصدَّى لي عندما سمع «الياباني اللقيط!» وشرع في ضربي، ولم يتوقف حتى أدمى شفتيَّ وتلطَّخت ملابسي بالدماء، وعندما عدت إلى المنزل، سألتني أمي عما حدث، لكنني لم أشأ إقلاقها، فقلت لها: إنه مجرد شجار مع أحد الصبية في المدرسة، آخر ما كنت أرغب فيه هو قَلَقُها عليَّ، فقد كانت أصلًا تعيش في حالة خوف دائم بفضل تحذير رئيسة نقابة النساء الديمقراطية لها من الحديث باليابانية.

لكن أبي بدا راضيًا بعض الرضا بحياتنا الجديدة، ولم يضرب أمي أبدًا، وبدأ يشتغلُ عاملًا زراعيًا في جمعية تعاونية، لم تكن هناك أيّ مزارع خاصة، ولا توجد سوى التعاونيات التي تعمل بها فِرَق، ولم يكن لديه خِيار سوى الانضمام أيضًا إلى نقابة العمال الزراعيين، وحضور اجتماعات التفاكر الإجبارية مرتين أسبوعيًا، للتفاكر بشأن أفكار «كيم إيل سونغ» وسياسات حزب العمال.

كان يجب على أيّ شخص الانضمام إلى مجموعة مُنتَسِبة إلى حزب العمال، وهذه المجموعات والنقابات لم تكن ذات أيّ غرض مُنتِج، وهدفها الوحيد هو تَلقين الأعضاء مبادئ الحزب وأفكاره، وعلى الجميع

استيعاب كلمات «كيم إيل سونغ» واكتساب معرفة وافية بسياسات الحزب.

كان الفرق الكبير بين العمال المنتظِمين وعمَّال المزارع، أنَّ عمال المزارع لا يتلقَّون راتبًا لائقًا، ويُمنحون قليلًا من المال، لكن مدفوعاتهم الرئيسة تتمثَّل في حصة من الحصاد كل خريف، ويتوقف التوزيع على ساعات العمل، إذ يُقيِّم العمل كل يوم، وإذا عُدَّ حجم العمل «قياسيًا»، يُمنَح العامل مقدار ساعة عمل واحدة، وإذا عُدَّ العمل «شاقًا»، يُمنح العامل مقدار ساعتي عمل.

لكن عند وصولنا، كان الحزب هو السخاء متجسِّدًا، إذ تلقى أبي ما يُفترَض أنه مخزون عام من الأرز! وعندما فتحنا الجوال، اتضح أنَّ معظمه مكوَّن من الذرة الحلوة وحبوب متدنِّية الجودة.

لم يحدث أن فكرت مليًّا بحياتي عندما كنت أعيش في اليابان، لكن بعدما انتقلتُ إلى كوريا الشمالية، كان أكثر ما يؤرِّقني هو الفَرْق الهائل بين حياتي القديمة وحياتي الجديدة، وصرت مهووسًا بكل الأشياء التي كنت أعدُّها مُسلَّمات من قبل، وبكل المشاق التي تحدد معالم حياتي الآن، لكن هذا لم يستمرَّ وقتًا طويلًا، إذ سرعان ما نما إلى علمي أنَّ التفكير ليس مجانيًا في كوريا الشمالية، ويمكن للتفكير بحرية إذا كُشِف أمره أن يودي بحياتك، وإن كنتَ محظوظًا، ربما تُرسَل إلى منطقة جبلية نائية لتؤدي الأعمال الشاقة، أو ربما تُرسَل إلى معسكر اعتقال خاصّ بالسجناء السياسيين لأنك صُنِّفت «ليبراليًّا» أو «رأسماليًا» صاحب «عادات سيئة»، والعادات السيئة يجب استئصالها، بالاستعانة بوسائل مثل الدَّوْس بالحذاء العسكري على الأعضاء التناسلية، أو يُمكِن أن تُعدَم ببساطة.

سوف تتسنى لك معرفة مكانك بسرعة في كوريا الشمالية، الجنة العظيمة التي يسودها مبدأ المساواة، إذا كنتَ صاحب صِلات جيدة ولديك أصدقاء في جمعية الكوريين في اليابان أو حزب العمال الكوري، فسيُتاح لك العيش في العاصمة «بيونغ يانغ»، أو «وونسان»، ثاني أكبر مدينة في البلاد، لكن إذا لم تكن لديك صِلات فانسَ الأمر، وعلى المستوى المحلي، يُقسَّم الجيران إلى مجموعات مكوَّنة من خمس عائلات لكل مجموعة، مع قائد مهمتُه التبليغ عن أيّ شيء متعلّق بأعضاء المجموعة للشرطة السرية، حتى إذا كان المرء نكرة، وكون المرء نكرة يعني تلقائيًا أنه مشتبه به، وأمثال هؤلاء يُرسلون إلى القُرى النائية ليعملوا كعبيد أرض، وبِقَولي «أمثال هؤلاء» أعني حقًّا أُناسًا مثلنا، إذن في كوريا الشمالية أيضًا، صرنا مجددًا أوضع الوضعاء.

كنا على الدوام تحت مراقبة جلّادي الشرطة السرية، وأظن أننا كنا نُمثّل تهديدًا مزدوجًا، فقد جَلَبنا بعض الأغراض الخطِرة معنا من اليابان عندما انتقلنا، أشياء مثل دراجات هوائية وأجهزة منزلية كهربائية وملابس شبه لائقة، ماذا لو أدرك سكان القرية المحلّيون أنّ معايير معيشتهم يُرثى لها؟ والأنكى من هذا، ما الذي قد يحدث إذا تناهى إلى مسامعهم منا مفهوم حرية التفكير؟ ربما يشككون في حكمة «كيم إيل سونغ»، وهذا هو المحظور.

انتقلنا إلى كوريا الشمالية من أجل الانعتاق من شَظَف العيش في اليابان، ولم نتصوَّر أنفسنا مشاركين في مسعى بطولي من أجل بناء يوتوبيا اشتراكية مستقبلية، والآن وقد صرنا في كوريا الشمالية، ماذا بعد؟ حسنًا، ثَمّة أمر واحد اتضح سريعًا، وهو أنَّ دَخْل أبي ليس كافيًا بأيّ درجة لإعالة أسرة مكونة من ستة أفراد، أصبحنا نأكل أقل بكثير مما كنا نأكله في اليابان.

كان يُتوقَّع من جميع البالغين أن يعملوا، وكان المبدأ هو «لا عمل، لا عشاء»، لكن المعضلة الوحيدة كانت أنَّ مسؤولي الحزب في القرية رفضوا توفير عمل لأمي؛ لأنها لا تتحدّث الكورية، كانت امرأة مقتدرة وبارعة للغاية، ولديها مؤهلات تقنيّة وشهادة في الرياضيات وخبرة في التمريض، من بين أشياء أخرى، لكن أيًا من هذا لم يشفع لها عند الحزب، وفي النهاية، عرَف أهل القرية أنها ضليعة بشأن الولادة، وصاروا يأتون إليها ملتمسين مساعدتها في ولاداتهم، ورغم هذا ظلوا يعاملونها بعدِّها مواطنة من الدرجة الثالثة، والحزب نفسه استمرّ في النظر إليها بعدِّها عديمة النفع؛ لذا في معظم الأيام لم تكن أمي تفعل شيئًا سوى السير إلى الجبال التي خلف المنزل وجمع الأعشاب وأيّ شيء آخر قابل للأكل لتكمِل نظامنا الغذائي.

وفوق معاناة أمي في سبيل إيجاد طعامٍ كافٍ لنا، كانت تعاني في طهيه، فكل ما لديها لتعمل به كان موقدًا خشبيًّا بُدائيًا، وكانت كمية الحطب التي تتمكن من العثور عليها تتباين من يوم لآخر؛ لذا كان التحكم في الحرارة يمثل لها مشكلة عويصة، فالأرز الذي تطهوه عادةً ما يكون نصف نيء أو محروقًا، لكن أبي لم يتبرَّم قطُّ، وكان دائمًا ما يتناول الأرز الذي تعدُّه متلذذًا، كان تغيُّر أبي هو الأمر الجيد الوحيد في انتقالنا إلى كوريا الشمالية، وعندما أعود بذاكرتي الآن، أرى أنَّ اللطف القليل الذي أبداه كان أقل ما يمكنه فعله.

كنتُ وشقيقاتي ننمو بسرعة وجائعين دومًا، وسرعان ما ضقنا ذرعًا بعدم أكل شيء سوى الأرز، فباع أبي واحدة من دراجاتنا العزيزة الأربع وبعض الملابس التي جلبناها معنا إلى مسؤولي الحزب في القرية، أخيرًا وقد أصبح بحوزته بعض النقود، انطلق إلى سوق المزارعين الواقع على تخوم القرية. كانت الدولة تتحكم في توزيع الغذاء، وعمليات

اليوم الخاصة ممنوعة نظريًا، ومع ذلك، كان يُغضّ الطَّرفُ عنها أحيانًا، ويتمكن المزارعون من بيع بعض الخضراوات والبيض خُلسة، وكما يمكنكم التخيل، كانت الأسعار باهظة، تبلغ أحيانًا عشرة أضعاف السعر الرسمي.

عاد أبي، لدهشتنا، ومعه خنزير ونعجة ودجاجة، تدبّرنا وضعهم في الباحة، وكانت هذه الحيوانات أشبه بألعاب جديدة بالنسبة إلى شقيقاتي، رغم أننا كنا نربّيها من أجل الطعام، لم أرهُنّ بتلك الحماسة منذ مدة طويلة.

لكن في عصر ذلك اليوم نفسه، اقتحم شرطي القرية باحتنا كأنه يمتلك المكان وراح يدسّ أنفه في أنحائه، كان رجلًا خبيث المظهر لديه خدّان أجوفان وعينان غائرتان، لم أرغب في النظر إلى تلكما العينين المرعبتين؛ لذا أغضيتُ طرْفي وركّزت على تجهيز علف الخنزير.

- أيها اللقيط الياباني الأبله! ما الذي تفكر به؟ أتضع الأرز في علف الخنزير؟ الأرز للبشر، أيها الخراء!

عقد الخوف لساني، والأرز الذي يتحدث عنه مُهتاجًا كان يتكون من بضع حبيبات تافهة سقطت على الأرضية في أثناء الغداء، وكنت أعرف أنني لا يمكنني رميها ببساطة؛ لذا جمعتها حبة حبة وأضفتها إلى علف الخنزير، وهأنذا أُتّهم بالتبذير.

اندفع أبي خارجًا من المنزل، وأمسك بالشرطي من ياقته وضربه طارحًا إياه أرضًا، عاد نِمر السوق السوداء، لكن ليس لمدة طويلة، فعندما وقف الشرطي على قدميه، سحب مسدسه وفي عينيه نظرة جنونية، تقهقر أبي قائلًا: «حسنًا حسنًا، فهمت الرسالة، لا داعي لإطلاق النار عليّ»، أقحم الشرطي مسدسه في ظهر أبي وزعق به ليسير إلى

قسم الشرطة، نظر أبي إلى الخلف وهتف بي وهو يسير مبتعدًا: «لا تقلق!».

خشينا أنا وأمي من الأسوأ ونحن ننتظر عودته مدة بدت دهرًا، وعندما ترنح داخلًا قرابة منتصف الليل، كان عاجزًا عن المشي باستقامة، ووجهه دامٍ ومتورم على نحو بشع، لم أحبّ أبي أو أحسّ نحوه بعطف قطّ، لكن إحساسًا جديدًا بدأ يتحرك بداخلي تلك الليلة.

قال غاضبًا: «عليكم أن تكونوا حذرين جميعكم، يا إلهي، أولئك الملاعين خدعوني، جمعية الكوريين اللعينة!» كان يرتعد، ليس من الغضب فحسب، علمتُ أنَّ شيئًا بداخله كُسر، ولأول مرة كان مرعوبًا.

لم أرَه خائفًا من أيّ شيء من قبل، فعندما كنا نعيش في اليابان، إذا اعترض أيّ شخص طريقه، كان -ببساطة- يلكمه حتى تُظلِم الدنيا في وجهه، وحتى عندما اعتُقِل، لم يكترث، لكنه كان خائفًا عندئذٍ، خوفًا صريحًا محضًا، وخوفه أخافني أيّما خوف، وعندما رأيت الرُّعب في عينيه وسمعت نبرة التسليم في صوته، عرَفت على الفور أننا أُودِعْنا في الجحيم، فاقشعرَّ جلدي، كان أبي قد ابتاع خنزيرًا ودجاجة ونعجة ليُطعِم أسرته، ورأى أحد الجيران الوطنيين أنَّ من واجبه أن يشي به لجنايته الجسيمة ويورده المهالك، وذلك الشُّرطي كان لِيَسْعَد بقتله بسببها.

فكرتُ بهذه اللحظة مرات عديدة، ومنذ تلك الليلة -وقد صرت مدركًا للمكان الذي كنت فيه والمكان الذي وضعَتني فيه الجمعية والحكومة اليابانية- صرت أذاكر دروسي بجنون لأعوِّض عن خلفيتي «العدائية»، معتقدًا بسذاجة أنَّ بوسعي التغلب عليها بالعمل والمثابرة، وكنت عازمًا على بذل كل ما بوسعي لتحسين وضع أسرتي، تطورت مهاراتي في اللغة الكورية تدريجيًا، وصرت في النهاية قادرًا على الحديث بالكورية

مع أبي بسهولة، ومع هذا التقدم الذي أحرزته، أحسست بنفسي أقترب منه ببطء.

وبعد عام من وجودنا في كوريا الشمالية، كنت في السنة الثالثة بالمدرسة الثانوية الوسطى، وأخيرًا اعتُرِفَ بمجهوداتي في المدرسة، وأصبحتُ مُنسِّق الصف، وأظنني ما كنت أريد سوى أن أجد القبول وأن أثبت أنني أكثر من «ياباني لقيط»، كنت إذا مرض أحد زملائي واضطُرَّ للغياب عن المدرسة، أجلبُ له الدواء وأُدرِّسه الأشياء التي فاتته في الصف، ورأيت أن هذا واجبي ومسؤوليتي.

لكن ما الذي كنا نتعلمه؟ كانت دروسنا تتجاوز كثيرًا الموادَّ القياسية كالإملاء والرياضيات والفيزياء، كان علينا أن نتعلم بشأن التغييرات الثورية الإعجازية التي أحدثها «كيم إيل سونغ» المُعظَّم، وكان أهم شيء هو مدى الولاء للزعيم العظيم، فكان الأساتذة وجميع من حولنا يحاولون غسل أدمغتنا لنصبح أعضاء شبه مُستَرَقِّين في طائفتهم الدينية الزائفة. سايرتهم، وتعلمت بسرعة أنَّ في وضع كهذا، إذا أردتُ أن أنجو، فعليَّ كبْت قدراتي النقدية ومسايرة الأمور. واستوجب عليَّ أن أختار معاركي بعناية وألَّا أسمح لسفاسف الأمور بتكدير صفوي، لكن المشكلة أنَّ بعض الناس حقًّا ينتهي بِهم المطاف بأدمغة مغسولة، ويُصدِّقون كل تلك التُّرهات، لكن لحسن الحظ، كان هناك كثيرون لا يصدقونها، وذات يوم سيكونون سببًا في سقوط نظام كوريا الشمالية، والذي ما هو إلا بيت من ورق.

انضممت إلى جمعية الشباب الديمقراطيين عندما كنت في الرابعة عشرة، كما أصبحت عضوًا في لجنة المدرسة، سئمت من سماع «أنت ياباني أيها اللقيط الأبله، إنك عديم النفع بلا شك»، كنت أعرف أنني لست عديم النفع، وكنت عازمًا على إثبات هذا.

وفي أثناء مراسم الانضمام إلى المجموعات، عليك أن تقف أمام مجموعة من مسؤولي الحزب وتغني أغنيةً تمدح «كيم إيل سونغ»، ثم تصطف مع البقية وتقسم بالولاء له، وتتعهد ببذل كل ما بوسعك لتعزيز اشتراكيته، ومن ثَمّ يَعقد مسؤولٌ وشاحًا أحمر حول عنقك ويُثبّت بملابسك شارة.. يرمز اللون الأحمر لدماء الثورة وروح الشيوعية.

تتراوح أعمار أعضاء جمعية الشباب بين الرابعة عشرة والثلاثين، وكان الهدف الأسمى هو تحقيق النصر الكامل للاشتراكية، لم أكن أكترث أدنى اكتراث بالاشتراكية، بطبيعة الحال، ولم أرغب إلا بتحسين حياتي وحياة أسرتي، كانت بعض المجموعات ترتدي أوشحة حمراء فحسب، لكن أعضاء مجموعتنا في جمعية الشباب كانوا يحملون بطاقات عضوية.

لن أنسى أبدًا اليوم الذي تلقّيت فيه بطاقتي، وكان مكتوبٌ عليها: «يجب عليكم جميعًا أن تحموا أُسُس الاشتراكية وتناضلوا في سبيل انتصار الثورة»، ولا تزال القيادة تُلقِي مثل هذه المواعظ الفارغة حتى يومنا هذا، وبطبيعة الحال، لم أصدّق أيًا من ذلك الهراء، لكن حتى أنا غُرِّر بي للحظة.

رحتُ أحدّق إلى البطاقة مدة طويلة، شاعرًا كما لو أنني في الواقع شخص ذو هدف نبيل.

في ذلك الربيع أمضت جمعية الشباب شهرًا في غَرْس شُتُول الأرز وتسميدها، وكان غَرْس شُتُول الأرز في الربيع أقسى الأعمال، ويكرهها الجميع، وكان أول عمل أؤمر بأدائه. يمكنني إلى يومنا هذا استحضار جميع تفاصيل غَرْس تلك الشُتُول، كنتُ متحمسًا لأداء المهمة، لأنني لم أزرع الأرز من قبل، رفعت بنطالي إلى ركبتيّ وغصت بقدميّ في الطين الرطب البارد في حقل الأرز، شكّلنا صفًا، حاملين الشتول على جوانبنا،

وكان مرشدنا يقف في ممر بين حقول الأرز، وعندما رأى أننا مستعدون، زمجر: «انطلقوا!» كأنه يعلن بداية سباق، فشرعنا في العمل.

ظلَّ المرشد يراقبنا مُدقِّقًا هنيهةً.. ثم زمجر: «لا! إنكم لا تغرسونها غرسًا صحيحًا، قلِّصوا المسافة بين الشُتُول!».

ألقيتُ نظرة فوق كتفي، فها هو ذا يتبختر معتدًّا بنفسه ويصيح بالأوامر، لم أستطِع استيعاب سبب أوامره لنا بغرس الشتول قريبة من بعضها، أو سبب عدم قيامه ببعض العمل بنفسه.

التفتُّ إلى زميلٍ يعمل بجانبي وسألته: «ما الذي يتحدث عنه؟».

نظر زميلي إليَّ كما لو أنني أبله، ثم سألني والرِّيبة بادية عليه: «ألا تعرف؟ هذه هي أحدث الأساليب العلمية، وتُنتِج أكثر».

لم أكُن قد غرست شتول الأرز من قبل، لكنني كنت أعرف ما يتعلمه كلّ طفل ياباني في المدرسة الإعدادية، إذا غُرست شتول الأرز قريبًا جدًّا من بعضها، فستُزاحم بعضها ولن تنتج محصولًا جيدًا، أبجديات زراعة الأرز، إذا شئت تسميتها. لكن عندئذٍ فكَّرتُ مع نفسي، لا يُعقل أن يكون هذا الرجل هاويًا، ولا بد أنه يعرف شيئًا لا أعرفه، ربما اكتشفوا شيئًا جديدًا؛ لذا تابعت عملي، ولستُ بحاجة إلى قول إنَّ المحصول فشل فشلًا ذريعًا، وكثيرًا ما أتساءل عن عدد الذين تضوروا جوعًا نتيجةً لهذه السياسة البَلهاء.

استمتعت بالزراعة في بادئ الأمر، فقد كانت شيئًا جديدًا بالنسبة إليَّ، لكن داهمتني التقلُّصات والآلام بعد بضع ساعات، فاعتدلتُ واقفًا لأمدد ظهري الذي يؤلمني.

«لا تسترِح!» زعَقَ أحدهم بي.

فنظرت فيما حولي ووجدته أحد عمال المَزارِع الدائمين، يقف في مكانه دون أن يفعل شيئًا إطلاقًا، فلم أتمالك نفسي وغمغمت: «لا تبدو أنك تعرف أيّ شيء عن الزراعة، فما الذي يعطيك الحق في التسلُّط عليَّ؟».

تحققت لأرى ما إذا كان أحد مسؤولي الحزب يراقبني، وسِرْت مبتعدًا لأدخِّن.

ولاحظت بعد ذلك أنَّ عمال المَزارِع الدائمين بالكاد يقومون بأيّ عمل، ويُمضُون سحابة يومهم في إصدار الأوامر لجمعية الشباب والجنود بما عليهم فعله، لكن في نهاية اليوم، يزعم المزارعون أنهم عملوا يومًا كاملًا، ويُدْرِج المسؤولون ساعاتهم دون سؤال، لم نحتجَّ، فعندما يجد المرء نفسه عالقًا في نظام جنوني حلُم به معتوهون خطِرون، ما عليه سوى الانصياع لما يُؤمَر به.

ورغم أنني أمسكت لساني، لم يسعْني سوى التساؤل عن سبب نفاق المزارعين الصارخ، فعند الاستماع إلى «الخبراء» الزراعيين، يَبدون في غاية التواضع ونكران الذات، لكنهم ينقلبون إلى طغاة عندما يتحدثون معنا. واتَّضح السبب وراء هذا لاحقًا في ذلك العام، عند وقت الحصاد.

كان الحصاد يُعرف بـــ «معركة الخريف»، لا أدري مَن صاحب هذه العبارة، لكنها تحمل بصمات «كيم إيل سونغ»، كلّ شيء كان «معركة» أو «مسيرة» أو «حرب»، وهي كلمات محفِّزة لتشجيع الناس على القتال بضراوة، ودائمًا ما تُنطَق بنبرة مفخَّمة تبدو مُدَّعية وبَلْهاء في الوقت عينه.

وعندما حلّ وقت الحصاد، وُجِّهنا بالاصطفاف في الحقول تمامًا كما فعلنا في الربيع، وصاح مهرِّجٌ ما: «انطلقوا!» فتحركنا معًا، نحصد الأرز بمناجلنا، وبالطبع كان المرشدون مشغولين بالزمجرة بالأوامر،

والمزارعون الدائمون يتظاهرون بأنهم يعملون، والوحيدون الذين يقومون بأيّ عمل حقيقي كانوا جميعهم أعضاء جمعية الشباب، وقد كان عملًا يقْصِم الظَّهر.

وعندما مالت الشمس للمغيب، أحسستُ بموجة ارتياح لفكرة أنَّ يوم عملنا على وشك الانتهاء، بَيْد أنه لم يكُن على وشك الانتهاء؛ فمع بداية هبوط الظلام، أمرَنا أحد المرشدين برصف إطارات سيارات قديمة على الممر بين حقول الأرز، لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن الذي أحضر الإطارات، لكننا رصفناها كما وُجِّهنا.

سألت أحد المزارعين: «ما حكاية الإطارات؟».

فأجاب بصوت خافت: «علينا إنهاء الحصاد اليوم، إنها أوامر الجهات العليا».

وعندما حلَّ الليل، أشعل المزارعون الإطارات القديمة، وكان ضوء ألسنة النار النَّتِنة يُمكِّننا من العمل طوال الليل.

لماذا لا نذهب للنوم ونستأنف الحصاد في اليوم التالي؟ لن يبرح الأرز مكانه خلال الست ساعات التالية، ففيمَ العجلة الشديدة؟ وكانت الإجابة بسيطة: البيروقراطية.

كانت «لجان الإرشاد» المحلية هي التي تدير مزارع القرية، وهذه اللجان مسؤولة عن كلّ شيء: الآلات والري والمواد، ولم يكن لدى المزارعين خِيار سوى اتباع إرشادات اللجنة. كان النظام يُعرف بـــ «مبدأ القابلية للتطبيق»، مبدأ القابلية للتطبيق! هذا ما يحدث للّغة في دول مثل كوريا الشمالية، فالديكتاتورية الشمولية هي «جمهورية ديمقراطية»، والعبودية تُعرف بـــ «العِتْق من العبودية».

لكن فلنعد لـــ «مبدأ القابلية للتطبيق»، لم يكن البيروقراطيون المسؤولون عن إنتاج المَزارِع يأبهون بالموقع إطلاقًا: شمال، جنوب، شرق، غرب، الأمر سيان، لا يكترثون البتّة بالخصائص المتعلقة بمنطقة معينة، وكانت السياسات الزراعية الموحّدة وحدة متخشّبة تُصدَر بوصفها حقائق كونية، وكانوا يتجاهلون تمامًا أيّ ظروف بيئية محلية، ويصدرون الأوامر نفسها للجميع: «انتهوا من غرْس شُتول الأرز بتاريخ كذا!»، «هذا هو الموعد النهائي للحصاد!» وعلى المزارعين التزام الجدول الزمني بصرف النظر عن مدى تسلُّط الأوامر وغرابتها، وأحيانًا كنا نعمل طوال الليل.

وإذا تجاسر مزارع واعترض على غرابة بعض التوجيهات، يُقال له: «سبب عجْزِك عن إنجاز العمل في وقته هو الضعف الشديد في ولائك لكيم إيل سونغ والحزب»، وكان الجميع يعرف ما يعنيه هذا؛ لذا لم يجرُؤ أحد على التذمر.

كان الجنود وأعضاء جمعية الشباب يُرسَلون للعمل في المزارع مرتين سنويًّا فحسب، لكن المزارعين الحقيقيين مضطرون للعمل في ظل هذه الظروف السخيفة طوال الوقت، وكانوا يعلمون أنهم -مهما طالت مدة عملهم ومهما بذلوا من جهد- لن يُكافؤوا على مجهودهم، وسيكون الأجر الذي يتقاضَونه هو نفسه، وكان عليهم اتباع إرشادات هواة لا يعرفون ما يتحدثون عنه؛ لذا من البديهي أنهم فقدوا كل دافع، مَن يمكنه أن يلومهم؟

كان العمل في المزرعة شاقًّا جسديًّا، لكنني كنت مراهقًا آنذاك؛ لذا تمكنت من التكيُّف معه، وأكثر ما كرهته بشأن العمل، هو أنني لم يكن بمقدوري الاستحمام في نهاية اليوم، أعود إلى المنزل مكسوًّا بقشرة من

الطين ومُنتِنًا بالعرق، ولا أريد سوى الاغتسال، لكن منزلنا لم يكن مزوَّدًا بحوض استحمام، ولا أيّ منزل آخر.. في عام 1960، في جنّة الأرض.

وفي النهاية، رقّعنا حوض استحمام مؤقت خاصّ بنا، وحاولنا استغلاله الاستغلال الأمثل، أتخيل أنَّ «العائدين» الآخرين فعلوا الأمر نفسه، لكن هل كانوا يجلسون في أحواضهم الملفقة، كما كنتُ أفعل، ويتأملون الماضي؟ تذكرت حوض الغسيل المضحك في طفولتي، وتذكرت نفسي وأنا أرنو ببصري إلى الغيوم حالِمًا بمستقبل مجهول الاحتمالات، وبدلًا من ذلك، هأنذا أرنو ببصري إلى الجحيم، أظن أنه كان ينبغي لي أن أبكي مِحْنتي، لكنني لم أبكِ، فحتى عندئذٍ، كنتُ قد تخطيت مرحلة البكاء.

أثار حمَّامُنا المتضعضع جنون جيراننا، فقد كان رمزًا للانحلال الياباني في نظرهم، وكان الاستحمام فعلًا برجوازيًا غارقًا في الترف، وكذلك تغيير ملابسنا كل يوم، واتّهَمَنا جيراننا من كبار السن بأننا نتصرف «كمُلَّاك الأراضي»، لم أفهم في البداية ما كانوا يقصدونه، لكنني استنتجت من نظراتهم التي تفيض كراهيةً أنهم يشيرون إلى طبقة عُليا مندثرة.

بدا الناس الذين حولي أنهم بالكاد يُغيِّرون ملابسهم أو يغسلونها، وبالكاد يستحِمُّون أو ينظفون أنفسهم، فتغلغلت الأوساخ في أجسادهم وكانوا قذرين على الدوام.

كانت تُجرى حملات نظافة شخصية من حين لآخر، لتفقد القمل في المدارس. إذا كنتَ متّسِخًا، تُوبَّخ لعدم اعتنائك بالنظافة الشخصية، لكن إذا اعترفتَ بأنك تستحِمّ على الدوام، فستُوبَّخ بدرجة مساوية في هذه الحالة، بتهمة «الانحلال الياباني».. ما من مخرج آمن، كالعادة.

لم أستطِع تفويت الأمر، فقلت لأحد أصدقائي: «قالوا لنا أن نعتني بنظافة أنفسنا، صحيح؟ إن كانوا صادقين، ينبغي لهم تشجيعنا على الاستحمام كلّ يوم».

«ما الذي تتحدث عنه؟ حمام كلّ يوم؟ لا يدعو لأمر كهذا إلَّا ياباني لقيط» أجابني، كأنني اقترحت شيئًا جنونيًّا.

صُدِمت، لم أُصدم برأيه بقدر ما صُدمت بنبرة كلامه، إذ كنت أعتقد أنه صديقي، فكيف أمكنه أن يدعوني بـ «الياباني اللقيط» في وجهي؟

عندما أعود بذاكرتي الآن، لا أعتقد أنَّ الناس كانوا يُدرِكون أنَّ الكلمة جارحة، فبالنسبة إليهم كان نعتُ اليابانيين باللقطاء مجرد سرد لحقيقة، إذ غُرِس في أذهان الكوريين الشماليين الاعتقاد بأن جميع اليابانيين قساة، وللأمانة، كنت أصف الكوريين الشماليين بــ «البُدائيين»، كما كان يصفهم معظم «العائدين».

في الأوقات التي لا نعمل فيها بالمزارع، تتولى جمعية الشباب أعمالًا أخرى، مثل جمع أيّ موارد يمكن إعادة استخدامها، مثل: خردة الحديد والمطاط والزجاجات الفارغة، والورق المستعمل، وما إلى ذلك، وأحيانًا كنا نؤمر بالبحث عن خردة يمكن استخدامها في صناعة دبَّابة أو طائرة، وكان أساتذتنا يتحدثون بلا انقطاع عن أحدث «خطوط إنتاج الدبَّابات» أو «خطوط إنتاج الطائرات»، وكلّ شهر يُحدَّد عدد الأرطال التي علينا جمعها.

لكن في كوريا الشمالية ما من أحد يُلقِي أيّ شيء ذي قيمة أو يمكن استخدامه؛ لذا كان من المستحيل تحقيق الأهداف التي يحددونها لنا، ورغمًا عن هذا، إذا فشل أحدهم في تحقيقها -وهو أمر حتميّ من حين لآخر- يُوبَّخ بشدة، كما يوبَّخ والداه.

ورغم أنَّ هذا ربما يبدو غريبًا، فقد كان أصعبُ شيء عليَّ جمعه هو جِلْد أرنبين اثنين سنويًّا، وهذا كان يُستخدم في صنع القبعات وأغطية الأذنين والقفازات لحماية الجنود من البرد القارس، وكان الأطفال يُشجَّعون على تربية الأرانب وجمع الطعام لها في طريق عودتهم من المدرسة، الأمر الذي كان في غاية السُّخف، لأن فُرَصنا في اصطياد أرنب تكاد تكون معدومة، وكلّ مَن يتمكن من اصطياد أرنب يأكله على الفور ويبيع جِلده في سوق المزارعين. إذن ماذا يفعل التلاميذ إذا لم يتمكنوا من اصطياد الأرانب؟ عليهم أن يذهبوا إلى السوق ويبتاعوا جلدًا، لكن الجلد الواحد يكلف أربعة أو خمسة «وونات»، وهو مبلغ ضخم إذا أخذنا في حسباننا أنَّ الراتب السنوي للعامل العادي كان سبعين أو ثمانين «وونًا».

غنيٌّ عن القول إنَّ الأساتذة كانوا يُقرِّعون أيّ تلميذ لم يتمكن من إحضار الجِلدَين المطلوبَين، والآن أتذكر كلماتهم المُرَهِّبة المتوعِّدة: «إذا لم تتمكن من إحضار جلود الأرانب، فأحضر بعض الأسمنت! وإذا لم تتمكن من إحضار الأسمنت، فأحضر بعض القرميد!».

الأسمنت والقرميد كانا بالطبع قيِّمَين بِعدِّهما موادّ بناء، وإذا تمكن الأساتذة من تقديم كمية مقبولة من الأسمنت وعدد كافٍ من القرميد لِعِلْيَة القوم من أعضاء الحزب، فسينالون رضا المسؤولين؛ لذا كانوا يضغطون على تلاميذهم ليأتوا بالأشياء المفيدة.

وكان آباء التلاميذ المتعثرين في دراستهم يمنحون الأساتذة السجائر والكحول بِعدِّها رشوة، لكن الرِّشا لم تكن كافية قط، إذ يضغط الأساتذة بعنف مطالبين بالمزيد ثم المزيد، والتلاميذ الذين لم يعُد بمقدورهم تحمُّل المزيد من الرِّشا لم يرغبوا في الذهاب إلى المدرسة.

وفي الشتاء تُوْكَل إلينا مهمة جمع حصة من حطب النار والفحم، بعض العائلات لم تكُن تُكلِّف نفسها عناء جمع الحطب وابتكروا حلولًا بديلة، إذ كانوا يصنعون الفحم الخاصّ بهم أو حتى إنهم يحتالون لسرقة الكهرباء لأغراض الطبخ، وهؤلاء الأطفال لم تكن لديهم طريقة للإيفاء بما عليهم، ونتيجة لذلك؛ يركضون في نواحي القرية عشيَّة موعد التسليم، ويسرقون أيّ حطب وفحم يجدونه.

حالمَا يتجاوز الأفراد سِنَّ المدرسة، يُتوقَّع منهم القيام بمهمَّتين، هما: المساهمة في الإنتاج والمشاركة في العمليات العسكرية. كان النظام بأكمله قائمًا على «الشعارات العسكرية الأربعة»، والعقائد الأساسية هي: «تسليح الشعب بأكمله»، و«تحصين الأمة بأكملها»، و«بناء أمة من القادة العسكريين»، و«إكمال التحديث العسكري»؛ لذلك كُوِّنت ميليشيات عديدة.

وعندما لم تعُد سِنِّي تُناسب جمعية الشباب، لم يعُد أمامي خِيار سوى الانضمام إلى إحدى هذه المليشيات، وقد كان «جيش العمال والمزارعين الأحمر»، وتجنَّدتُ عندما تخرجت في المدرسة الثانوية، وانخرطت في مدة تدريب.

كان التدريب احترافيًا بما فيه الكفاية، تعلمت كيفية حفر الخنادق والقتال لحماية مواقعنا، ودُرِّبنا بِعدِّنا قناصةً تدريبًا جيّدًا. مجموعات الأفراد الذين اعتادوا العمل معًا شُكِّل منها وحدات عسكرية، وكانت الفكرة هي إمكانية تعبئة الوحدات بسرعة في حال نشوب أزمة، وتُجرَى التدريبات مرتين سنويًا، في أسخن أوقات السنة وأبردها، كنا نفعل أشياء مثل: تسلق جبل أو حفر خنادق في الأرض المتجمدة، ومن البداية ظللت أسأل نفسي سؤالًا واحدًا: ما حكاية هَوَس الحزب بعَسكَرة الشعب بأكمله؟

عند نهاية إحدى مُدد التدريب القاسية، قلت لأقرب أصدقائي: «رباه! لم أعُد قادرًا على الاستمرار، إنه صعب للغاية!» إذا سمع أحد أفراد الشرطة السرية حتى هذه الشكوى التافهة، لَأُرسِلت إلى معسكر اعتقال في الحال، لم أكن الوحيد الذي يتذمر، لكنه كان أمرًا محفوفًا بالمخاطر.

كان صعبًا عليَّ استيعاب لماذا لم يبدُ أنَّ أيّ أحد يُشكِّك في جدوى التدريب، لكن كان عليَّ أن أتذكر أنَّ أدمغتهم غُسِلت منذ أن كانوا أطفالًا بأصوات زمْجَرات الأوامر الهستيرية، فمنذ نعومة أظفارهم كانت تأتيهم الأوامر من أساتذتهم ومن مسؤولي الحزب الذين كانوا يغرِسون فيهم الرسائل نفسها يومًا تلو يوم. «أشعل ديكتاتور كوريا الجنوبية الحرب الكورية! كان مناصرًا للإمبريالية الأمريكية! قائد حكومة صُوَرية! خانع!» ونتيجة لذلك؛ كانت عسكرة الشعب مُبرَّرة تمامًا من وجهة نظرهم، كانوا الملاذ الوحيد من خطر الأمريكيين الإمبرياليين أو الهجمات الكورية الجنوبية، وكل من يتساءل أو يُشكِّك في هذه الحكمة لا بد أن يكون معاديًا للثورة ومُخرِّبًا وخائنًا.

وأنتم تتساءلون عما إذا كانت أدمغتهم غُسِلت إلى هذه الدرجة، خذوا في حسبانكم أنَّ الكوريين الشماليين لم يعرفوا ديمقراطية ليبرالية من قبل قط، وليس لديهم مفهوم عن ماهيتها وما تعنيه، لم يعرف رفاقي أو يسمعوا إلا بالحكم الاستعماري على يد اليابان، والديكتاتورية على يد «كيم إيل سونغ»، وقبل ذلك كانت مدة الإقطاع البائسة في عهد السلالات الكورية. لم يعرف الكوريون الشماليون سوى العبودية، ولم يكن لديهم أيّ شيء ليقارنوا دولتهم به، لأنهم لم يختبروا شيئًا آخر، وحتى عندما يفعل «كيم إيل سونغ» شيئًا وحشيًا أو فظيعًا، لا يُبدي أيُّ أحد أقل مقدار من الدهشة.. «تذكروا زمن حكم اليابان الاستعماري!»، «لا تنسوا أبدًا

فظاعة الإمبريالية الأمريكية!»، وصدَّق الشباب الكوريون الشماليون الدعاية، نظرًا لعدم معرفتهم بأيّ معلومات أخرى.

حلَّ إبريل من عام 1964، السنة الرابعة لنا في كوريا الشمالية، والطقس شديد البرودة، لا تظننَّ أنَّ إبريل ينبغي أن يكون بداية الربيع، إذ كانت الثلوج بالخارج تبلغ خصري. كان يوم 14 من إبريل 1964 هو عيد ميلاد «كيم إيل سونغ»، الذي يُعدُّ أحد أكبر عطلات السنة، وتلك السنة تحديدًا كانت كارثية لأسرتي.

كان الجميع في كوريا الشمالية يحتفلون بذلك اليوم المشؤوم، ويتلقَّى كل مزارع رطلين ونصف الرطل من لحم الخنزير، وبعض الحلوى والفواكه، وهذا تَرَف لا يُسمَح به في أيّ وقت آخر من العام، ومن المذهل أنَّ الناس كانوا يُخدَعون بهذه «الهدايا»، ويعتقدون حقًّا أنَّ «كيم إيل سونغ» يهتم بأمرهم. الحيلة لم تنطلِ عليَّ قط، لكنني وشقيقاتي مع ذلك كنا نتطلع إلى المناسبة بقدر ما يتطلع إليها الآخرون، لحم خنزير وحلويات وفواكه كلها في يوم واحد؟ كان اليوم الوحيد من أيام السنة الذي لا أشعر فيه بالجوع، فما الذي قد لا أحبه؟

خلال سنواتنا الأولى هناك، كان أبي يخرج عشية يوم الاحتفال الكبير ويبيع بعض أغراض المنزل التي جلبناها من اليابان، لكي يتمكن من شراء بعض اللحم والكحول، وعندما يحل اليوم العظيم، يظهر الجيران من حيث لا ندري ليزوروا أمي، التي عادةً ما يتجاهلونها ما لم يحتاجوا إلى مساعدتها في ولادة طفل، ولا يكفُّون عن الابتسام في عيد ميلاد الزعيم العظيم.

جاء الناس إلى منزلنا من كل حَدَب وصوب: عِلْية القوم من الحزب والقادة العسكريين، ورجلٌ ما يُعرف بـــ «قائد الاشتباك»، ورئيس القرية، والعديد من المتملقين الذين تمكنوا جميعهم بطريقةٍ ما من

الوصول إلى منزلنا رغم وقوعه في أعماق الجبال. لم يكونوا مغفلين، كانوا يعرفون أنَّ لدينا طعامًا شهيًّا وشرابًا سنشاركه مع الجميع، وكانوا يعرفون أنَّ منزلنا الياباني الزِّرِيّ -ويا للمفاجأة!- نظيف، والأهم على الأرجح، كانوا يعرفون أنه ستكون هناك وفرة في الكحول.

في ذلك العام (1964) أوقدْتُ مع أمي النار في المطبخ، وظلَّتْ تطبخ لساعات، وجاء جميع المنافقين والطفيليين وحظُوا بوقت عظيم مستمتعين بثمار مجهوداتها. جميعهم سكِروا وضحكوا وغنَّوا حتى الواحدة أو الثانية فجرًا، وفي النهاية خرج الجميع في أعقاب بعضهم، ما عدا حلاق اسمه «هان جو هان»، الذي كان ثَمِلًا للغاية بحيث عجز عن الوقوف، قد يبدو هذا غريبًا، لكن الحلاقين كانوا نادرين في كوريا الشمالية آنذاك؛ لذا كان هذا الحلاق صاحب حظوة عند العديد من عِلْيَة القوم، ورغم أننا طلبنا منه أن يمضي الليلة معنا، أصرَّ على الذهاب إلى بيته، وبعدما تمكَّن أخيرًا من النهوض، ترنَّح خارجًا في الظلام، لم تكن توجد مصابيح شوارع، ولم يكن معه مصباح يدوي، والثلوج متراكمة في كل مكان، ومِن الممكن أن يسقط بسهولة في نهر أو ينزلق من حافة طريق جبليّ، لكنه أصرَّ على المغادرة، وأنا ووالداي وشقيقاتي كنا في غاية الإرهاق فَأوينا إلى الفراش حالمَا غادر.

استيقظتُ شاعرًا بحَرٍّ لا يطاق، وعندما فتحتُ عينيَّ رأيتُ ألسنة اللهب تلعق السقف، ظننت في البداية أنني أحلم لا بد، ثم قفزتُ من فراشي وصرخت لأوقظ الجميع، لكنهم كانوا يغطُّون في نوم عميق، وبطونهم مليئة بالطعام الجيد، هززت أبي وأمي ثم شقيقاتي، وأنا أصرخ بهم لأوقظهم، خفق قلبي بشدة، وكنت متأكدًا أننا سنموت جميعًا، وفي النهاية نجحتُ في إيقاظهم، وعندما رأوا ما يحدث قفزوا خارجين.

لم يتسنَّ لنا الوقت لنرتدي ملابسنا أو لنحمل أيّ شيء معنا، وبعد ثوانٍ من مغادرتنا المبنى المشتعل.. انهار بأكمله، نجونا بأعجوبة حقًّا، وما زلت أرى كوابيسَ عن الحريق إلى اليوم.

اتَّضح أنَّ الحلاق المحتفل هو الذي تسبَّب في الحريق، فعندما اصطدم بالثلوج التي يتعذَّر اختراقها، مع سُكْره، عاد أدراجه متعثِّرًا إلى منزلنا، لكنه بدلًا من الدخول، ترنَّح إلى السقيفة حيث كنا نحتفظ بالقش والحطب، ثم سوَّى لنفسه فِراشًا من القش، وفي غمرة سُكْره أشعل سيجارة وغرِق في النوم على الفور؛ فاشتعل المكان مثل علبة مفرقعات، ويبدو أنه استيقظ وحاول أن يصرخ، لكنه كان مذعورًا وقد أخذ السُكْر منه كل مأخذ بحيث عجز عن فعل أيِّ شيء، فزحف مبتعدًا في الظلام.

وسرعان ما خرج عددٌ من أهل القرية إلى الشارع واندفعوا وَجِلين لمساعدتنا في محاولة إخماد النيران، فشكَّل بعضهم صفًّا من البئر إلى المنزل ومرَّروا دلاء الماء، وآخرون جلبوا الماء من حقل الأرز في أيِّ وعاء عثروا عليه، حتى إنَّ بعضهم حاولوا استخدام الثلوج، لكن جهودهم كانت عقيمة، واحترق منزلنا تمامًا، ومعه كل ما نملكه، وأصبحنا بلا مأوى في لمح البصر، لم يسعْنِي سوى الإحساس بأننا ملعونون.

ذهبت مع أبي في الصباح التالي لمقابلة المسؤولين أنفسهم الذين استمتعوا بضيافتنا في اليوم السابق، وسألنا عما إذا كان بمقدور الحزب مساعدتنا، قبل أقلّ من أربع وعشرين ساعة تناولوا طعامنا مبتهجين وثمِلوا بالكحول التي اشتراها أبي، والآن غيَّروا نبرة حديثهم تغييرًا تامًا: «ما الذي تتحدث عنه أيها الياباني اللقيط؟ لماذا ينبغي لنا توفير سكنٍ لكم؟ لكن سنمنحكم إعفاءً خاصًا لقَطْع بعض الأشجار حتى تتمكنوا من بناء منزل جديد لأسرتكم، هذا هو قرار الحزب»، هكذا قالوا، ومن

الواضح أنهم كانوا راضين عن أنفسهم بشأن ما عدُّوه بادرة سخيَّة، وقد أشعرني نفاقهم بالغثيان.

ذهبنا مباشرة إلى كبير العمال، المسؤول عن قسم الصيانة، لنستعير عربة ثيران، وانتشلتْ أمي بعض الأرز وموقد الفحم من حطام منزلنا المحترق، وأعدَّت لنا كُرتَي أرز كبيرتين، ثم انطلقتُ مع أبي إلى الغابة التي تبعد قرابة خمسة أميال من القرية، أخبَرَنا شرطيٌّ بالمكان الذي يمكننا أن نقطع منه بعض الأشجار، وشرَعْنا في العمل دونَما إبطاء، وبعدما قطعنا اثنتي عشرة شجرة، أخذْنا استراحة غداء.

قال أبي لي: «كُلْ كُرتَيِ الأرز الاثنتين».

شعرتُ بالحرج الشديد محاولًا إعادة كرة أرز واحدة، إذ لم أكن معتادًا على عطفه أو مراعاته.

قلت: «لا، لا، لا.. لنتشاركهما».

لكنه دفعني عنه، ففقدتُ توازني وسقطت، وانزلَقَتْ كرتا الأرز من يديَّ وتدحرجتا إلى المنحدر، فطاردهما أبي واستعادهما، كانتا مغطَّيتين بالطين، لكن أبي ناولهما إياي على أيِّ حال، قائلًا: «أمك أعدَّتهما لك؛ لذا كُلهما فحسب!»، ولدهشتي أجهَشَ بالبكاء، لم أرَه يبكي أو يُظهِر عاطفةً من قبل قط، فبدأت أنتحب أنا أيضًا بطبيعة الحال، وبطريقةٍ ما، جعل إظهار أبي مشاعرَه كلَّ شيء يبدو أسوأ بكثير، لكنني بالتأكيد ازدردت كُرتَيِ الأرز.. بَذْرة حُبِّي لأبي -التي غرستُها عندما وصلنا أول مرة- بدأت تنمو.

كان ثمة شخص واحد في القرية يعاملنا بلطف، اسمه السيد «تشون»، وهو حدَّاد، حاول إبهاج أمي التي بلغت الحضيض، ومتى ما شكرناه على الطعام القليل الذي يتدبَّره لنا أو أعربنا عن شُكرنا له

لمروره بنا وتفقُّدنا، كان يقول ببساطة: «المرة القادمة، سوف تكونون أنتم الذين تساعدونني»، لكن معظم أهل القرية تجاهلونا، حتى أنَّ بعضهم بدا سعيدًا بدمار منزلنا، كانوا يغارون منا منذ وصولنا، والآن شعروا بأنهم انتقموا لأنفسهم.. «آه، لماذا يعيش هؤلاء اليابانيون القطاء في منزل أفضل من منازلنا؟ لماذا يتسنَّى للعائدين السكن في مثل هذا المنزل الجميل؟»، لم يكن منزلنا الذي هو عبارة عن كوخ بأفضل من منازلهم بالطبع، بل كان مسقوفًا بالبلاط فحسب، لكن هذا كان كافيًا لإثارة حنقهم، وقالوا الشيء نفسه عن ملابسنا اليابانية التي كانت رخيصة وتعصف بها يد البلى يومًا في إثر يوم، وبعيدة كل البعد عن الموضة الرائجة، لكنها كانت مُتْرَفة بالنسبة إليهم. وفي أثناء ترتيب حطام منزلنا المحترق، كان بعض سكان القرية يسيرون عابرين وهم يبتسمون بشماتة سافرة، لم يسعْني سوى ملاحظة أنهم الأشخاص أنفسهم الذين التهموا بشراهة أطباق أمي وأسرفوا في شرب خمر أبي قُبيل أيام فحسب، وعندئذٍ بدأت أنعتهم بـــ «البُدائيين».

عندما بدأنا في بناء المنزل، كان السيد «تشون» هو الوحيد الذي ساعدنا من أهل القرية. أولًا أخذْنا الأشجار التي قطعناها من الغابة إلى مَنشرة لمعالجتها، ثم وضعنا أساسات المنزل مستخدمين حجارة جمعناها من قرب النهر، واستخرجتْ أمي وشقيقاتي الطين الذي سيُستخدم في بناء الجدران، وبعد بضعة أسابيع، صنعنا سقفًا من القش يقينا من المطر، ورغم أننا شعرنا بشيء من الارتياح عندما اكتمل المنزل، كنا لا نزال نفتقر إلى الأثاث والطعام والملابس، فاضْطُرَ أبي لإنفاق معظم ميزانية المنزل الضئيلة لشراء بعض المواد الغذائية الأساسية من سوق المزارعين، ولم يكن لدينا مال يكفي للملابس؛ لذا

كان لدى كلٌّ منا زيّان فحسب، وتعيَّن علينا تدبُّر أمرنا دون ملابس داخلية.

وطوال هذه المدة، ظلّت أمي تقول مرارًا وتكرارًا: «أنا آسفة جدًّا! أنا آسفة جدًّا!».

وقال أبي: «أنا آسف أيضًا، دائمًا ما أجعل حياتكم صعبة»، ومجددًا، صُدمت بكلماته، إذ بدا أنه صار رجلًا مختلفًا.. شعرتُ بالتشوُّش، كانت المرة الأولى التي أرى فيها أبي يعتني بأمي، وهو تطورٌ مُرحَّب به بالطبع، لكن في الوقت نفسه، قلتُ لنفسي، أهذا ما يتطلبه الأمر لحمل أبي على الاعتناء بأمي؟ الدمار الشامل؟ بدا أنه استغرق وقتًا طويلًا جدًّا ليبلغ هذه المرحلة.

أتساءل حتى الآن، عن سبب اختلاف أبي الشديد في كوريا الشمالية عن الرجل الذي كانه في اليابان، كنت أظن أنَّ للأمر علاقة بقوَّته الجسدية، فهي التي منحته سلطة حقيقية في اليابان، لكن في كوريا الشمالية صارت قوَّته بلا معنى، وفي الواقع كانت عِبئًا عليه أكثر من كونها ميزة، لكنني أظن أنَّ المسألة أعقد من هذا؛ ففي اليابان واجه الكثير من التعصُّب والتحيُّز والتمييز، والطريقة الوحيدة التي كان قادرًا بها على التعبير عن مشاعره والمقاومة، هي العنف، لكن آنذاك -حسبما كان يرى- كان يقاتل ليدافع عن إخوته الكوريين.

بدأ أبي تدريجيًّا يتحدث عن ماضيه بعدما انتقلنا إلى الكوخ المتضعضع الذي بنيناه.

وما انفك يتأمل مليًّا في الأشياء القديمة نفسها في الماضي التي مثَّلت له مصدر امتعاض.. ومن يمكنه أن يلومه؟ كان يقول: «أمرٌ لا يُصدَّق، حاولت حقًّا أن أقاتل من أجل أبناء وطني في اليابان، وكنت

لأموت من أجلهم، وبماذا جُوزيتُ؟» وعندها يومئ إلى محيطنا قائلًا: «هذا!».

وأحيانًا يعجز عن احتواء غضبه وإحباطه، «لا أصدق الطريقة التي خدعني بها أولئك الناس! يا ماساجي، إذا تمكنتَ من العودة إلى اليابان، فأخبرهم برأيي فيهم!».

من الغريب أنني لم أسمعه قطّ يلوم النظام السياسي في كوريا الشمالية أو يتذمر منه، وأدركت أخيرًا أنه لم يختبر الحرية الحقيقية قط، فهو وُلد في ظل الحكم الاستعماري الياباني، ثم نُقل قسريًا إلى حياة عبودية العمل في اليابان، ولم يعرف شيئًا آخر، فهذا ربما يفسّر لماذا أصبح لا مباليًا ومتقبّلًا وضعَه بمرور الوقت.

لكن خوف أمي كان يشتدُّ بمرور كل يوم.

جاءنا شرطيٌّ شاب بعد وقت ليس بالطويل من انتقالنا إلى كوخنا المتداعي، ووَفقًا لما قاله، كان ثمة خلل في سِجل أُسرتنا، إذ سُجِّلت جنسية أمي على أنها يابانية، وسُجِّل اسمها بـ«ميوكو إيشيكاوا».

«يجب عليكِ أن تغيري اسمك!» صاح وهو يرمق أمي بنظرة نارية.

قلت: «إنها يابانية، وليست بحاجة إلى تغيير اسمها».

فأخذ يخور في وجهها: «إنكِ تعيشين في كوريا الشمالية، يجب أن تغيّري اسمك! يجب أن تستخدمي اسمًا كوريًا!».

قلتُ راكضًا لأدافع عنها: «لا تلمسها، إذا لمستَ شعرة منها، فسأقتلك!».

فبدا أقلَّ ثقة بنفسه عندما سمع كلامي.

لم تفهم أمي كلمة مما قاله، لكن رغم ذلك بَدَت في غاية الخوف.

أرجَعَ الشرطي كتفيه ونفخ صدره في محاولة غير مقنعة ليبدو ضخمًا، ودمدم: «حسنًا، غيّري اسمك.. حتى المرة القادمة!».

أيًا كان ما يعنيه بذلك، التفتُّ إلى أمي وقلتُ لها ألّا تقلق، ولم أرغب في قول المزيد خشية إقلاقها.

تنهدتْ وأمسكت بحقيبتها المصنوعة من الخيش، وبَدَت في غاية الوهن والإرهاق، كما لو أنها لم تعُد لديها القوة حتى لتكون خائفة.

– عليَّ الذهاب لأبحث عن طعامٍ للعشاء.

وسارت بتثاقل إلى الجبل لتبحث عن السرخس والفطر البريّ، أو أيّ شيء قابل للأكل ولو قليلًا، كانت ترتدي بنطال عمل منتفخًا فضفاضًا غَشِيَته الرُّقع، وتنتعل حذاءً مهترئًا، أردتُ أن أبكي كما كانت تبكي أحيانًا، إذ غالبًا ما كانت تنهار باكية وتنشج لساعات، وكنت أحاول تعزيتها، بيد أنني لم أجد الكلمات.. لا وجود لها.

اعتقدتُ حقًّا عندما كنت في المدرسة الثانوية أنني إذا درست بجد، فسأتمكن من إيجاد مَخرَج من مأزقي وإنقاذ أسرتي، ورغمًا عن فاجعة حريق المنزل والتمييز الذي نواجهه كلّ يوم، كنتُ مقتنعًا تمام الاقتناع أنني إذا بذلت المجهود الكافي، فسأتمكن من انتشال نفسي من هذه المحنة الفظيعة وإيجاد سبيل إلى حياة أفضل لي ولأسرتي، ومع اقتراب موعد التّخرُّج، ذاكرت دروسي بجد كما لم أذاكر من قبل.

وذات يوم، قبل ثلاثة أشهر من التّخرُّج، أعطانا الأستاذ استمارة، وكان علينا كتابة ما نريد أن نفعله بعد التخرج ووصْف أحلامنا المستقبلية، وكانت عملية قاسية ومؤلمة بما أننا لم يكُن لدينا اختيار حقيقي في الأمر، بيد أنني لم أكُن أعرف هذا بعد، كانت الفيزياء مادتي المفضلة،

وأردتُ دراستها في الجامعة ومن ثم أُصبح باحثًا، فكتبتُ مُفْعَمًا بروح المسؤولية:

«أريد دخول الجامعة ودراسة الفيزياء».

سألني أحدهم عما كتبته.. فأخبرته، وسمع بعض زملائي ما قُلتُه فانفجروا ضاحكين عليَّ.

قال أحد زملائي: «ها! هذا الشاب يريد الدخول إلى الجامعة».

وبدأ مَزيدٌ منهم يضحكون، لم أستوعب الأمر، كما يمكنكم التخيُل، ففقدت أعصابي وقلت: «أجل، أريد دخول الجامعة، ما المشكلة في هذا؟».

اكتشفتُها في اليوم التالي خلال جلسة استشارتي، التي تلطَّف بتقديمها لي مديرُ المدرسة وأستاذُ صفِّي، واتّضح أنَّ هذه «الاستشارة الأكاديمية والمهنية» ليست سوى أضحوكة، إذ عَلِمت أنه بعد التخرج في المدرسة الثانوية في كوريا الشمالية، توجد ثلاثة مسارات على المرء الاختيار منها، بيد أنها لا وجود لها، ففي الواقع، يُختَار مسارك نيابة عنك، إذا كنت ذكيًا، وكان ميلادك وخلفيتك جيِّدين بما فيه الكفاية، فسوف تُرسل إلى الجامعة، وإذا كنت قويًا جسديًّا، فسوف تذهب إلى الأكاديمية العسكرية أو تصبح جنديًا عاديًا، ويُرسل البقية إلى أماكن العمل بوصفهم عمالًا، لم يكن أهمّ عامل في تحديد المسار هو مدى اجتهادك، بل الطبقة التي تنتمي إليها.

كانت الطبقات الثلاث هي «الموالية» (أو المركز)، و«الأساسية» (أو المتأرجحة)، و«المعادية»، وثلاثة معايير تحدد طبقتك: ميلادك وخلفيتك، وما تُظهِره من ولاء للحزب، وصِلاتك. أما الإنجازات الأكاديمية

لم تكن لها علاقة بالأمر، مهما كان تميُّزها. حياتك بأكملها تُحدَّد بالطبقة التي تُصنَّف فيها، إذا صُنِّفتَ «مركزًا»، فسينتظرك مستقبل زاهٍ، لكن إذا صُنفتَ «معاديًا»، فأنت أوضع الناس قدْرًا وستبقى هكذا مدى الحياة، ما من مسار مهني، وما من فرصة لتحسين وضعك، وما من مَخرَج.

اتضح أنَّ مدير المدرسة لم يكن سوى عضو حزب آخر، وفي ذلك اليوم بالتحديد، كانت مهمته هي إخطاري بالطبقة التي وُضعتُ فيها، وقيل لي إنني صُنِّفتُ «معاديًا».. وقُضِي الأمر.

دار رأسي، وأحسست كما لو أنني على وشك الغوص في الأرض، كأنني أسقط في غورٍ سحيق، واحتشدت الأسئلة في رأسي.. صنفتُ؟ مَن ذا الذي نصَّب نفسه قاضيًا؟ ولماذا؟ ألم أجتهد في دراستي؟ ألم أعمل بجدٍّ من أجل الحزب؟ هل كان كل شيء إهدارًا للوقت والجهد؟ ماذا سيحدث لأسرتي الآن؟

كنت أعرف أنَّ كوريا الشمالية ليست «جنة الأرض» منذ أن وَطِئت قدماي ترابها، لكنني اعتقدت أنَّ دخول الجامعة هو فرصتي الوحيدة لتحسين وضعي؛ فدخول الجامعة، عندما كنا في اليابان، كان أحد الإغراءات للانتقال إلى كوريا الشمالية، وَعَدونا بأننا سنحصل على تعليم جيّد مجانًا، كان حافزًا كبيرًا، لكن أيضًا كذبة محضة صفيقة، يصعب التعبير بالكلمات عما فعله بي هذا الاكتشاف، تشظَّيت تمامًا. إدراكُ أنني كُتِبَ عليَّ إمضاء بقية حياتي في قاع المجتمع دون فرصة للخروج، وقع على رأسي كانهيار جليدي، فقدتُ كلّ أملٍ في المستقبل، وشعرت كأن جزءًا مني مات في ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي، وصلتْ وثائق ما من مكتب اللجنة الشعبية إلى العمال، ولإدراكي أنَّه لا يوجد مقدار من الجهد أو العمل يمكن أن يُحدِث أيّ فرق في مستقبلي، لم أكترث بنوع العمل الذي سوف أحصل عليه..

باستثناء واحد؛ إذا أصبحتُ مزارعًا، فما من أمل في ترقية، وما من أمل في مغادرة القرية، مثل أبي؛ لذا عندما حان وقت مَلء الجزء من الاستمارة، حيث تُحدِّدُ نوع العمل الذي تأمل مزاولته، كتبتُ:

«عامل مصنع»

وفي الواقع لم يكن يهم ما تكتُبه؛ لذا فحتى «أمنيتي» المثيرة للشفقة بالعمل في مصنع رُفِضَتْ، وقُرِّر عليَّ العمل في مزرعة القرية، وعندما جاء المرشد من اللجنة الشعبية المحلية ليعلن مكان عملي، لا بد أنَّ خيبتي كانت بادية، لأنه زعق بي فجأة: «ابن المزارع يجب أن يكون مزارعًا، هذا هو الحال في هذا البلد، وينبغي لك أن تكون شاكرًا لأنك وأمثال أسرتك تَجِدون عملًا أصلًا».

ثم قال لي على سبيل العزاء: إنَّ الزراعة ليست أسوأ مهنة، فهي -في نهاية المطاف- أفضل من العمل في منجم فحم، وإنَّ الناس من أمثالنا -الذين جاؤوا من اليابان، أوضعُ الناس قدْرًا- ينبغي أن يكونوا شاكرين لحظهم السعيد.

كنت أعلم بطبيعة الحال أنَّ الحزب مُعادٍ لنا، لكنني لم أدرك حتى تلك اللحظة أنها سياسة مُتعمَّدة تهدف لوضع اليابانيين في قاع المجتمع، وصُعقتُ بأن ذلك الرجل قد يعترف بشيء كهذا صراحةً.

استبدَّ بي فجأة إحساسٌ بالغضب والإحباط واليأس، وكلّ ما استطعتُ فعله هو أن أهيم على وجهي ناحية الجبل وأبكي، قال أحدهم ذات مرة: «لو كان بإمكان طفل يبكي أن يهدم الكون، لفعلها».. كان هذا هو إحساسي يومئذٍ، أردت أن أهدم الكون بأكمله، لكن الحقيقة المحزنة كانت أنه انهار فوق رأسي بالفعل.

لم يكن بمستطاعي الصراخ والبكاء والتنفيس عن يأسي في المنزل، لأن أمي ستسمعني، وهي التي بَلغتْ خاتمة اصطبارها، ولم أحتمل أن أسبِّبَ لها مزيدًا من المعاناة، كما لم أعرف كيف أُحدِّث شقيقاتي عن مشاعري، إذ لم أرغب في تحطيمهن أيضًا؛ لذا لُذْتُ بالصمت في المنزل ورُحتُ ألعن قدَري بصمت، وعلمتُ عندئذٍ أنني قُدِّرَتْ لي حياة جحيم على الأرض، وليس ثَمّة شيء يمكنني فعله.. إطلاقًا.

وقبل أن أبدأ عملي الجديد، حاولت اتخاذ مدخل فلسفي لمستقبل العمل في الزراعة، وقلت لنفسي إنَّ المزارعين يكُدُّون في العمل في جميع أركان المعمورة، إنها حياة قاسية مليئة بالأيام الشاقة، لكنَّ بها شيئًا من كرامة، أو حتى نُبْلًا، لا.. هذه ليست الكلمة الصحيحة، ثَمّة جلال بشأنها، فحتى عندما كنت أُستدعى للعمل في مزرعة في أيام المدرسة الإعدادية، دائمًا ما كنت أشعر بأنني أساهم مساهمة صغيرة في سبيل مسعًى أكبر بكثير. تشتمل الزراعة على العديد من الأجزاء الصغيرة، كلٌّ منها يقتضي الجهد والكدح، بلا ريب، لكن كلّ جزء يتطلب مجموعة من المهارات ونوعًا من الحكمة.

كانت فكرة جميلة، وحالمَا بدأت العمل بدوام كامل في المزرعة، تذكَّرتُ الأسلوب الكوري الشمالي في الزراعة، الذي شهدْتُه في أيام جمعية الشباب، كان أسلوبًا غبيًّا غاية في البُدائية، وكالعادة.. كان الحزب يُشْهِر سياساته بشعارات هستيرية سخيفة: «ازرعوا الأرز في جميع نواحي البلاد! احصدوا في جميع نواحي البلاد!»، وإلى يومنا هذا أنكمِش عندما أتذكر هذه العبارات.

عندما كنت طفلًا في اليابان، كنت أحيانًا أشاهد المزارعين وهم يعملون، وحتى آنذاك، خطر لي أنَّ زراعة المحاصيل تشبه قليلًا تربية الأطفال، كان المزارعون يتعهَّدون محاصيلهم بالعناية، ويعاملونها بحب

ورعاية، أما في كوريا الشمالية، قال مرشدونا إنَّ النظام الياباني غير فعَّال على نحو ميؤوس منه، «بلادنا تستخدم مبدأ جوتشي في الزراعة، عليك أن تروِّض الأرض وتغدوَ سيِّدها، فهذه هي الطريقة الوحيدة لحصد كميات ضخمة من المحاصيل!»، ونموذج جوتشي في الزراعة أساسه معاملة زراعة الأرز كأنها إنتاج صناعي بكميات ضخمة. قرونٌ من تقنيات زراعة الأرز عُومِلت بازدراءٍ تام، كنا نؤمَر بإقحام الشُتُول قريبًا من بعضها، وبزراعة المزيد، والزراعة بسرعة قدر الإمكان، كان المزارعون يعرفون أفضل من هذا، لكن ليس بيدهم حيلة سوى تنفيذ ما يُؤمَرون به، مفتقرين للدافع عن فعل ما هو أفضل.

فبحلول الوقت الذي بدأتُ فيه الزراعة، كان كل هذا الهراء قائمًا منذ مدة طويلة، ولا بد أنَّ أعضاء الحزب أدركوا أنَّ الأمور لا تسير كما ينبغي، لأنهم بدؤوا بالسماح للعائلات الزراعية بتكوين مجموعات وأخذ عقودِ إيجارِ قطعِ صغيرة من الأرض، وكانت الفكرة هي زيادة دافعية المزارعين، لكنهم أفسدوا الأمر مجددًا؛ إذ لا يهم مقدار الجهد الذي يبذله المزارع في قطعة أرضه المستقلة، أو مقدار الغذاء الذي ينتجه بالفعل؛ لأن الحزب يأخذه ببساطة، ولا يهم مدى العناية التي يوليها لمحصوله، فالحصة السنوية المخصصة له تبقى هي نفسها، أيُّ دافعية توفرها هذه الممارسة؟

وفي هذه الأثناء، ما فتئ مَن يُسَمَّون بالخبراء الزراعيين يُزمجرون بإدخال الآلات في تقنياتنا الزراعية، واستخدام المُخصِّبات الكيميائية الجديدة، كنا نُؤمر بفعل المستحيل.

والأمر الذي كان يثير جنوني أنني لم أكن أستطيع الذهاب إلى المنزل مباشرة بعد العمل، كان عليَّ أن أسجِّل إجمالي إنتاجي اليومي قبل أن أغادر، ثم عليَّ أن أحضر، مرتين أسبوعيًا، اجتماعَ تفاكر أيديولوجي من

نوعٍ ما، مهما كنت مرهقًا. كنا نُشرَّب، أسبوعًا تلو أسبوع، بأفكار «كيم إيل سونغ» والتاريخ البطولي لحزب العمال الكوري، أو بتحليل رصينٍ لمقالة سخيفة في صحيفة الحزب، وبعد الاجتماع، نُرغم على البقاء لنقاشات وأحاديث إضافية، دائمًا ما تخلُص إلى النتيجة نفسها: عبقرية الفلسفة السياسية عند «كيم إيل سونغ»، فنقعد متظاهرين باهتمامنا بآخر تأمُّلات زعيمنا الهُمام. أفترض أنه يمكن تسميتها بغسيل دماغ من نوعٍ ما، لكن للأمانة، جميعنا كنا من الإرهاق نعجز عن الانتباه، لكن إذا كنتَ أحمق بما فيه الكفاية لتغيب عن اجتماع تفاكري واحد، فسيُشتبه بتمردك وتُوضَع تحت رقابة الشرطة السرية. وكأنما كل هذا ليس كافيًا، كان علينا أيضًا احتمال مهزلة تدريب جيش العمال والمزارعين الأحمر مرتين سنويًا، وفي نهاية المطاف، كل ما كان يهم هو ما إذا كان ولاؤنا لـ «كيم إيل سونغ» يبدو قابلًا للتصديق أم لا؛ لذا أصبحنا بارعين في التظاهر.. جميعنا، وإلَّا للقينا حتفنا.

كنا نسمع كلمة جوتشي المَمْجُوجة البغيضة أينما ذهبنا، «نموذج جوتشي الخاص بنا في الزراعة... طريقة جوتشي الثورية للإنتاج...» دائمًا ما يكون شيء ما هو جوتشي، وكان الجميع يؤيدون، لكن بَدَا أنَّ لا أحد يسأل عما تعنيه الكلمة في الواقع.

يمكن أن تُترجم الكلمة بعدة معانٍ: قد تعني الاعتماد على النفس، أو الحكم الذاتي، أو الاستقلال؛ أيْ جميع الأشياء التي كنا محرومين منها، ووَفقًا لــ «فلسفة» الــ جوتشي فإن «البشر هم أسياد العالم؛ لذا من حقهم تقرير كلّ شيء»، وتوحي بأننا يمكننا أن نعيد تنظيم العالم، ونشق لأنفسنا طريقًا في الحياة، ونكون أسيادًا على أقدارنا، وقد كان هذا مثيرًا للضحك بطبيعة الحال، لكن هذه هي طريقة الأنظمة الشمولية دائمًا، تَقلِب اللغة رأسًا على عقب؛ العبودية حرية، والقمع تحرر، والدولة

البوليسية جمهورية ديمقراطية، ونحن كنا «الأسياد على أقدارنا»، وإذا رَجَوْنا أمرًا مختلفًا، فنحن في عِداد الموتى.

حتى والناس يواجهون الفاقةَ والحرمان من أيّ تنوُّع ماديّ أو معنويّ، ويُهلَكون في ظل نقص الغذاء، لم يكن مسموحٌ لنا بالتفكير من أجل أنفسنا أو اتخاذ أيّ مبادرة، فعقوبة التفكير هي الموت.. لن يمكنني أبدًا مسامحة «كيم إيل سونغ» على حرماننا من الحق في التفكير.

وبعد بضعة أشهر، طلبتُ نقلي إلى «قسم الآلات»، الذي كان على وشك الحصول على ثلاثة جرّارات زراعية روسية، كانت ساعات عمل سائقِي الجرّارات تُحسب مضاعفة؛ لذا كان من الطبيعي أن يرغب أيّ أحد في أن يكون سائق جرّار، وفوجِئت بالكاد عندما وجدتُ التحيُّز المعتاد عندما تقدَّمتُ بطلبي أول مرة.

– أتدرك أنَّ الجرارات تُقتادُ على الطرق؟

– امم، نعم.

– وتدرك أنَّ الطرق في هذه البلاد تُصنَّف أسرارًا عسكرية؟

– هه؟

الغريب أنَّ هذه كانت الحقيقة، في ذلك الوقت جميع السكك الحديدية والطرق والأنهار كانت أسرارًا عسكرية، ينبغي لك ألَّا تكشف مواقعها إلَّا على فراش الموت.

– ألا يخطر لك أنَّ شخصًا مثلك ينبغي ألَّا يعرف هذه المعلومات؟

شخص مثلي.. مشروع خائن ياباني، لكنني رفضت قبول رفض آخر، فكتبت إلى اللجنة الشعبية في القرية:

«كما تعرفون، لقد عملت جاهدًا من أجل بناء المستقبل الاشتراكي العظيم لوطننا، والآن أريد بذل مزيد من الجهد؛ لذا أتمنى أن أكون سائق جرار، يروقني أنَّ الجرارات تسير مسافات طويلة، ولن أتذكر أبدًا المسار من الرحلة إلى التي بعدها، لكنني سوف أبذل كل ما بوسعي».

ولدهشتي الشديدة، قبلوا طلبي! تلقيت بضعة دروس قيادة واجتزت اختبار قيادة الجرار من المحاولة الأولى، وأخيرًا بدأت الأحوال تُبشِّر بخير.

في ذلك الوقت نفسه، نُقِل أبي فجأة من المزرعة إلى جمعية تعاونية من نوعٍ ما لإنتاج الفواكه، ولا أحد يدري لماذا، لكنه استمر في العمل حتى كاد يُقصَم ظهره، وأنا كذلك. لكن مهما عملنا بِكَدٍّ، لم يكن بمقدورنا كسب ما يكفي لإعالة أسرتنا، شقيقاتي كُنَّ لا يزلن في المدرسة، ولن أنسى أبدًا مدى شعورنا بالتفاهة لعدم مقدرتنا على إعالتهن كما ينبغي، لا يمكنني حتى وصف اليأس والكآبة التي كنتُ أشعر بهما وأنا أدخل منزلي في «دونغ تشونغ ري»، بعد يوم عمل طويل وأواجه جوعهنَّ، فمهما فعلنا، لم يكن يتوفَّر طعام كافٍ للجميع.

يحصل المرء -نظريًّا- إذا كان بصحة جيدة، على سبعمئة جرام من الطعام في اليوم، وكبار السن والمرضى يحصلون على ثلاثمئة جرام في اليوم، أجل.. هذا صحيح، إذا كان المرء مريضًا أو مُسِنًّا فسيُعاقَب، لكن الواقع كان أسوأ، الواقع كان «لا عمل، لا عشاء»؛ لذا كان كبار السن يضطرون للعمل حتى يموتوا.. كانوا يموتون بالفعل.

كانت أمي لا تزال ممنوعة من العمل، ولا تزال تذهب إلى الجبل يوميًّا لتجمع الفطر والأعشاب، فنأكل بعضًا منهما، وتبيع الباقي في السوق

السوداء التي تداهمها الشرطة السرية من حين لآخر، ودائمًا ما يكون أحد الباعة مكلَّفًا بمراقبة ظهورهم، ومتى ما صاح «الشرطة!»، يتلاشى تجار السوق في الحال، وكانوا من وقت لآخر يتمكنون من رَشْو الشرطة حتى تدعهم وشأنهم، لكن كان عليهم أن يكونوا أذكياء؛ لأن الشرطة يمكن أن تَتَنكَّر لهم دون تردد.

كنا نُبقي على حيواتنا بالكاد، وكلّ ما نجده ننفقه على الطعام، لكن بطريقةٍ ما، كنتُ لا أزال أعتقد أنني يمكنني، بمعجزةٍ ما، أن أجد عملًا أفضل، ورغم هذا، عليَّ أن أعترف بأنني استمتعت بقيادة الجرار. كنا نعيش تحت رقابة دائمة وخانقة بحيث نعجز عن التنفُّس، لكنني على متن الجرار كنت حرًا على نحوٍ غريب، كانت إحدى الأوقات القليلة التي أكون فيها وحدي في عالمي الخاص، وكنت قادرًا على استطلاع الأشياء دون أن يراقبني أحد، لن أستطيع التعبير عن مدى بهجتي بذلك.

استهزأ الناس بي، وكانوا يسألونني: «ما الذي تفعله بحق السماء؟ لماذا تجتهد في عملك؟» إذ لم يفهموا أن قيادة ذلك الجرار كانت الحرية الوحيدة التي لديَّ، ومُتنَفَّسي الوحيد من الأوامر والإهانات التي تنهمر علينا يومًا بعد يوم؛ لذلك.. لا، لم أكن مجنونًا، كان العمل ملاذي الوحيد.

وحقًّا استمتعت بقيادة ذلك الجرَّار.

الفصل الثالث

ثمّة مقولة، «الحزن والسعادة يتبعان بعضهما»، وأرى أنّ الناس الذين يعيشون أوقاتًا متساوية من الحزن والسعادة في حيواتهم، لا بد أن يكونوا محظوظين للغاية؛ إذ يعيش بعض الناس حياةً لا شيء فيها سوى الأسى.. أعرف هذا تمام المعرفة.

أصبحتُ سائق جرّار في صيف 1966، وبعدها بوقت قصير، وصلتْ رسالة عبر الصليب الأحمر من شقيق أمي في اليابان، وبحلول الوقت الذي تلقيناها فيه، كانت قد سال حبرُها وطُويت زواياها، كانت أمي قد أرسلت لأقاربها عدة رسائل خلال السنوات السابقة، لكنها لم تتلقَّ أيّ ردّ.

وعندما وصلتْ هذه الرسالة، فتحَتْها أمي بلهفة جامحة، وقرأتْها قراءة صامتة سريعة، لكن عندما بلغت الصفحة الثانية، سقطت الرسالة من يديها، وتهالكت هي على الأرضية.

فركضتُ إليها وسألتها: «أمي! ما الخطب؟ ماذا حدث؟».

والتقطتُ الرسالة ورأيتُ أنها تحمل خبر موت أمها:

«كانت أمُّكِ تنادي اسمَكِ عندما رحلتْ».

استحضرتُ كلمات جدتي الأخيرة لي، قالت: «أنت ياباني»، وأتذكر مدى الحزن في عينيها، كانت تعرف التاريخ، وتفهم الأشياء الفظيعة

التي تجري في ظل الحكم الاستعماري، وكنتُ أعرف أنَّ جدتي حاولت ثني أمي عن مغادرة اليابان، لكن بلا جدوى، ولا أزال أتذكر بحثي عنها في محطة «شيناغاوا»، لكنها لم تأتِ لتودّعنا.

بعد موت جدتي، سرعان ما حُفِرت التجاعيد العميقة على وجه أمي، وصارت فجأة أكثر ذبولًا وإنهاكًا وهشاشة، لم تكن تجاعيد التقدم في السن، بل تجاعيد الألم. أردتُ أن أجعل حياتها أسهل، لكن لم يَلُحْ لي سبيل لفعل ذلك، مهما بذلتُ من مجهود، تظل حِصّة طعامنا على حالها.. كل شيء يظل على حاله.

وسرعان ما أُنزِل بنا مزيدٌ من البؤس...

ذات يومٍ مشمس من بداية ربيع 1968، جاءت شاحنة وهي تَهدِر إلى قريتنا، وتلَتها شاحنة أخرى ثم أخرى، وفجأة اجتاحت وحدة عسكرية القرية وتوقفت، فأمرَنا أحدهم بالتجمُّع، وهو الذي بدا أنه قائدهم.

حدَّجَنا بنظرة ارتياب وأعلن: «ستُعدُّ هذه القرية الآن حاميتنا العسكرية».

ثم ساروا مبتعدين.

حامية؟ عادةً ما تصف الحامية موقعًا محصّنًا، حيث يُقيم الجنود عندما يُرسلَون لحماية منطقة، لكن مِمَّ كانوا يحموننا؟ هل كنا على وشك التعرض للغزو؟ لم نكن نعرف حتى اسم الوحدة العسكرية.

هُرِع رئيس القرية إلينا وقال لنا إنَّ هؤلاء الجنود تحت إمرة «كيم تشان بون» المباشرة، وليس لدينا توضيح أكثر من هذا، وإنَّ الجنود موجودون هنا لحماية منطقتنا من شيء لا يعلمه إلّا الله ولمدة لا يعلمها إلّا الله.

وسرعان ما اكتشفتُ أنَّ «كيم تشان بون» هذا و«كيم إيل سونغ» كانا رفاق سلاح، وأصبح «كيم تشان بون» شخصية ذات نفوذ في الحزب، وهو صاحب بعض الابتكارات العسكرية المهمة.. ظل جميع مَن حولي يتداولون هذا، لكنه، لا يُفسِّر ما يفعله في قريتنا بفرقة رجاله المَرِحين.

مرت بضعة أيام، واستبدَّ القلق بالجميع، وساد توتّرٌ في الهواء كأنه كهرباء، كان الجميع يتوخَّون أقصى درجات الحذر ويختارون كلماتهم بعناية، وذات صباح وأنا أهُمُّ بالمغادرة للعمل، لمَحتُ جنديين يقتربان من منزلنا.

فقلت على الفور لأمي وشقيقاتي أنْ يختبئن بالداخل، ثم وقفتُ أمام الباب الأمامي لأوقفهما، اقترب مني جندي مخيف المظهر.

وقال: «احزموا أمتعتكم واخرجوا من هنا في الحال!».

سألته: «لماذا؟ أيمكنك التوضيح من فضلك؟».

كان قلبي يخفق بشدة ودمي يغلي، لكنني حاولت أن أبدو هادئًا.

زمجر: «لماذا؟ أتسألني لماذا؟ تصنيف الـــ «سونغبون[1]» بالطبع، بلا شك أنت تعرف أنك «معادٍ»، أوضع الوضيعين، والآن اغرب عن وجهي!».

وبذلك، استدار وسار مبتعدًا عاليَ الخطو مع الجندي الآخر الذي يقف جواره، وبهذه البساطة اختفيا.

لم نكن وحدنا، أُمِرتْ عدة أُسَر أخرى بالمغادرة أيضًا، ووفقًا لما أمرنا به نحن، كان علينا أن ننتقل إلى قرية اسمها «بيونغيانغ ري»،

---

(1) Songbun نظام سياسي واجتماعي واقتصادي في كوريا الشمالية، يُصنِّف الأفراد حسب مستويات انتمائهم للحكومة والحزب الحاكم ويُحدِّد امتيازات المواطن. (المترجم)

على بُعد عدة أميال، فحزمنا متاعنا القليل وانطلقنا، وعندما وصلنا.. لم يكن هناك منزل لنا، ووجدنا مُلتَجأً في منزل مهجور كان قد بُنِي لعامل مزرعة، ولم تكن لدينا فكرة عمَّا حدث له، وعلى الأرجح قضى نَحْبه من الإرهاق واليأس.

ولحسن الحظ تمكنتُ من مواصلة عملي سائقًا للجرّار، وبدأ أبي وشقيقاتي العمل في فريق زراعي محلي، أما أمي، فقد استمرت في الذهاب إلى الجبال بحثًا عن الأعشاب كدأبها دومًا.

جاء عدة أعضاء من وحدة «كيم تشان بون» العسكرية إلى قريتنا الجديدة أيضًا، وقد كان سلوكهم إجراميًّا محضًا؛ كانوا يسرقون الحيوانات التي أوَلاها العمال عناية بالغة، ويقتلونها ويأكلونها، ويسلبون الذرة الحلوة والبطاطس من مستودع الغذاء الخاصّ بالقرية، وينهبون مصنع معدات المزرعة ويغادرون بالمحركات والمنشارات الكهربائية على شاحناتهم، ويغوون النساء الشابات بوعدهن بالزواج، دون نية في الزواج بهن، بطبيعة الحال.. جميعنا كنا نمقتهم ونحتقرهم.

اختفى كبار مسؤولي الحزب في «بيونغيانغ ري» وقريتنا القديمة، وتولى صِبْيَة «كيم تشان بون» زمام الأمور، وصار الوضع من السوء بحيث كنا نخشى الخروج حتى في منتصف النهار، إذ كان الجنود يفتعلون المشاجرات مع الناس ويضربونهم ضربًا مبرِّحًا.

كان منزلنا الآيِل للسقوط بالكاد يحمينا من المطر، لكن الرياح تعصف بالمكان على الدوام، كنا لا نزال في فصل تساقط الثلوج، وتنخفض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، فكنا نُبقي موقدًا مشتعلًا طوال الليل، وكنا شاكرين للرياح، فبفضلها لم نقلق بشأن التسمم بأول أكسيد الكربون.

لم نعثر على حصائر، فكنا نحن الستة نَربِض حول الموقد، ندفِّئ ظهورنا أولًا، ثم ندفِّئ بطوننا، وهكذا نتلوَّى ونتقلَّب طوال الليل، ومن حين لآخر نغُطّ في النوم لهنيهة، ولأننا كنا نغيِّر وضعياتنا طوال الليل، غالبًا ما كنت أنا وأبي نستيقظ برؤوس متورِّمة، وأحيانًا ننفجر ضاحكين كالمعتوهين. إذا عانى المرء معاناة طويلة بما فيها الكفاية، يكاد الوضع أن يصبح مضحكًا، ويجد المرء نفسه يضحك وهو في أتعس الظروف.. أظنها نوعًا من الهستيريا.

استيقظتُ ذات مرة في منتصف الليل واكتشفتُ أنَّ شقيقتي الأصغر، «ماساكو» غير موجودة، فذعرت وهُرِعت إلى خارج المنزل، حيث رأيت آثار أقدامها على الثلوج، وتبِعْتُها فأوصلتني إلى قريتنا القديمة، فكانت هناك بالطبع، واقفة أمام منزلنا القديم، تنشِج بلا انقطاع.

وحالما رأتني قالت: «هذا هو منزلنا! لا أريد أن أتركه!».

حملتُها على ظهري وسرت متثاقلًا إلى «بيونغيانغ ري» تحت ضوء القمر، كانت الثلوج تتلألأ وتلتمع، تُغلِّف كآبة المنظر أمامي، واخترق البرد ملابسي الرثَّة، لكنَّ وزن «ماساكو» أمَدَّني بالدفء، أرهقها نشيجها المتواصل، فسرعان ما نامت على ظهري، لا أظنني أحسست بالقرب منها كما في تلك الليلة؛ إذ تسرَّب يأسها وخوفها وإرهاقها إليَّ من خلال ملابسها الخفيفة ولامَسَ شغاف قلبي.

استمر سفاحو «كيم تشان بون» في اضطهادنا ومعاملة جميع سكان القرية كأنهم رقيق يمتلكونهم، كان علينا أن نُقدِّم لهم أيّ طعام يطلبونه، ولم يكن ما نقدمه كافيًا قط بطبيعة الحال، إذ دائمًا ما يتبجَّحون بادعاءاتهم السخيفة: «إننا نقاتل من أجل وطننا! نريد المزيد!».

أردتُ أن أرُدّ: «معركة؟ أي معركة؟ لا توجد معركة، ما الذي تتحدثون عنه؟ كل ما تفعلونه هو نشر البؤس واليأس وإرهاب الناس المحترمين

الذين يكُدُّون في عملهم، وما مقدار ما نأكله نحن في ظنِّكم؟ نحن الذين ننتج الطعام فعلًا في حين أنكم تجُولون وتضربون الناس».

لكنني لزمت الصمت بالطبع، لَقتلوني إذا جاهرتُ بكلامي.

ومِن المدهش أنّني، حتى في تلك الأيام الحالكة، وقعتُ في الحب فجأة، كان اسمها «ريم سو يون»، في التاسعة عشرة من عمرها، وهي أجمل فتاة رأيتها قط، قابلتها في المزرعة حيث كانت تعتني بأرانب تربِّيها للتكاثر، وكنت أُوصِل العشب إلى هناك وَفقًا لمسار قيادة الجرار، لم أُكِنَّ هذه المشاعر لأيّ أحد من قبل، ولم أدرِ ما عليَّ فعله، فكلما حاولت الحديث معها؛ ينعقد لساني، لذا تجنَّبت الحديث معها تمامًا، لكنني كنت أفكر بها دومًا.

وذات يوم عندما كنت أُنزِل العشب، جاءت إليَّ وعرضت مساعدتي، فعملنا في صمت تام، وفي اليوم التالي، عادت وساعدتني مجددًا، وفي اليوم الذي تلاه أيضًا. وذات يوم كسرَتْ الصمت أخيرًا وسألتني عمّا إذا كنت سأشارك في منافسة كرة القدم القادمة، فقلتُ لها إنني لن أستطيع؛ لأنني لا أملك أيّ بنطال قصير، وعندما قابلتها في المرة التالية، أعطتني بنطالًا قصيرًا صنعَتْه من النايلون الأبيض، التفَتُّ إليها وقلتُ متلعثمًا بلا تركيز: «أحبكِ، فهلا تزوجتِني؟»، يا لها من عبارة غزل افتتاحية!

فنظرتْ إليَّ بخجل وسألتني: «أيمكنك الحصول على موافقة أمي؟»، فعلمتُ أنها تستلطفني أيضًا، وأحسست بقلبي يتضخم بالأمل.

استجمعتُ شجاعتي في اليوم التالي وذهبت إلى منزلها، كان والدها قد توفي منذ مدة طويلة؛ لذا قلتُ لأم «سو يون» إنني أريد أن أتزوجها. وللأمانة، لم تقاطعني أو تختصر كلامي، بل سمعتني حتى النهاية بحنان دافق.

وقفتْ «سو يون» جوارها، متعلقة بكل كلمة أقولها، ويمكنني تصورها حتى الآن، كانت تتورَّد خجلًا، واحمرَّت أُذناها.

ظلَّت أمها صامتة هنيهة، والحزن بادٍ عليها، فتسارع وجيب قلبي، وشعرتُ كأنه سيقفز خارجًا مني.

«يؤسفني القول.. زوج ياباني لابنتي.. حسنًا، أخشى أنَّ هذا لن يكون مقبولًا»، بَدَت كما لو أنها شعرت بالذنب على قرارها، واستشعرتُ أنها تلتمس تبريرًا قد يُهدِّئني ويعزِّيني.

«كما ترى، الأمر هو.. حسنًا، كُلِّي ثقة بأنك رجل شريف تمامًا.. أعني، أعرف أنك شريف، لكن كل ما في الأمر هو.. إذا تزوجَتْ ابنتي بعائد.. حسنًا، فسوف نكون في موقف خطِر أيضًا، كما تعرف».

شددتُ قبضتَيَّ حتى ابيضَّتا، ونظرت إلى «سو يون»، فوجدتُها قد اعتراها الشحوب.

لا أستطيع تذكُّر ما فعلْتُه تحديدًا بعد ذلك، لا بد أنني غادرت بسرعة، شاعرًا بالخِزْي، لكنني أتذكر الأفكار التي كانت تتلاطم في عقلي.

ما الذي كنتَ تفكر فيه؟ رجلٌ حياته ليست بأفضل من حياة متسول! أيّ امرأة تملك ذرة عقل قد تتزوجني؟ كنت مثيرًا للسخرية عندما اعتقدتُ أنَّ أم «سو يون» قد توافق.

وفي المرة التالية التي رأيت فيها «سو يون»، أردت أن أركض وأختبئ، لكنها عانقتني وهمست: «آسفة، خذني إلى مكانٍ ما ولنهرب معًا»، أردتُ أن أهرب معها، وأن أعيش هذا الحلم، لكن أين عسانا قد نذهب؟ وماذا عن أمي وشقيقاتي المسكينات؟ لا يمكنني أبدًا التخلي عنهن، كان أمرًا مستحيلًا كحلمي بتحسين حياتي ودخول الجامعة.

وبعدها بوقت قصير، سمعتُ أنَّ «سو يون» تزوجت أحد عِلْية القوم في «بيونغيانغ»، وقررتُ ألّا أقع في الحب مجددًا أبدًا.

بعد عام، اختفى «كيم تشان بون» ورفاقه فجأةً، لا أعرف التفاصيل الرسمية، لكن ثمة إشاعة في القرية بأن وحدته العسكرية سُرِّحت. لم تكن توجد وسائل إعلام كبيرة في تلك الأيام؛ لذا كل الأخبار كانت تنتقل شفويًا، لكن ما تَلُوكه الألْسُن كان موثوقًا بما فيه الكفاية في معظم الأوقات، وفي النهاية، ظهرَ أنَّ «كيم إيل سونغ» تخلَّص من «كيم تشان» في حملة تطهير.

القصة المعتادة.. كان «كيم تشان بون» قُرَّة عين الزعيم العظيم ردحًا من الزمن، مُبرَّأً من كل خطيئة، لكنه بذل مجهودًا صادقًا في سبيل تحديث الجيش وتنظيمه تنظيمًا أفضل، واتضح أنَّ هذا هو سبب سقوطه، فقد تمكن من خلق قاعدة نفوذ داخل المؤسسة العسكرية وتمرير مبادراته الخاصة به، ولم يمرّ وقت طويل قبل أن يكسب «كيم تشان بون» نفوذًا في رقعة واسعة من كوريا الشمالية، متمكنًا من اقتطاع منطقته المستقلة الخاصة به، ومن البديهي أنَّ «كيم إيل سونغ» عدَّ هذا تحدّيًا وتهديدًا؛ لذا طُهِّر.

عدنا إلى «دونغ تشونغ ري» على الفور، ولحسن الحظ، وجدنا منزلنا لا يزال قائمًا، وعند وصولنا، أحضرنا بعض الماء من البئر وغليناه وشربنا نخبًا، نظرتُ إلى وجهَيْ والديَّ الذاوِيَين ونحن نشرب ذلك النخب، كان أبي في الخامسة والخمسين، وأمي في الرابعة والأربعين، وتبقَّت لديها قرابة ثماني أسنان. ما الذي كنا نشرب نخبه بحق السماء؟ مستقبل أفضل؟ عودة إلى الماضي؟ لا أدري.. أظن أننا كنا مبتهجين فحسب بالانعتاق من كابوس «كيم تشان بون».

قالت أمي بعدما شربنا النخب: «أريد تناول كرة أرز مكسوَّة بفاصوليا حمراء محلَّاة».

بدا أبي مفجوعًا، لأن أمي لم تطلب أيّ شيء من قبل قط، وكان يعلم أنه سيكون من المستحيل تلبية حتى مثل هذا الطلب المتواضع، الفاصوليا الحمراء غالية مثل الأرز، وكان السُّكَّر عزيزًا جدًّا، إذ يكلف الجوال مئة وونٍ في السوق السوداء، وهو مبلغ فاحش بالنسبة إلينا.

«لا تقلق!» قالت وهي مدركة لما لا بد أنه يفكر به، «عندما أفكر بالأمر، أجد أنني لا أستطيع أكل كرة أرز حتى إذا حاولت، ليس لديّ ما يكفي من الأسنان، لقد ولَّت أيام أكل كرات الأرز بالنسبة إليَّ».

ثم انفجرَت ضاحكة.

لم أسمع ضحكتها منذ دهور، وقد كانت مُعْدِية، فبدأنا جميعًا نضحك معًا، حتى طفَرت الدموع من أعيننا.

انقضت ثلاثة أعوام خالية من الأحداث بعد تسريح وحدة «كيم تشان بون»، وكنا لا نزال نعاني الفاقة والعَوَز، بالطبع، لكننا على الأقل عشنا في سلام، الحدث الجدير بالذكر خلال ذلك الوقت كان تلقّي شقيقتي «إيبكو» عرض زواج وهي بعمر الثالثة والعشرين، من رجل يُدعَى «كان كي سون»، وهو أصلًا من «كوبه» باليابان، كان والده يعاني سرطانًا في مرحلة متأخرة؛ لذا أراد أن يتزوج قبل رحيل والده، كانت عائلته ثرية، وهو أمر غير معتادٍ لدى العائدين؛ لذا اعتقد أبي أنَّ أسرته وأسرتنا لا تناسبان بعضهما، فرفض العرض بتهذيب، ومع ذلك بدأت والدة «كان» تأتي إلى منزلنا لاستئناف قضيتها.. قالت: «أريد لابنتكم أن تكون كِنَّتي»، ورغم أنها جاءت لتطلب مرات عديدة، تشبث أبي بالرفض.

في مطلع عام 1972، ظهر رجلٌ، يبلغ من العمر أوسطه، عند منزلنا ذات يوم، فظننتُ في بادئ الأمر أنه له علاقة بـ «كان» ثم فوجئتُ عندما دقّقت النظر إليه، إذ لم يكن سوى «يونغ سيوك بونغ»، وهو صديق قديم لأبي، كان عضوًا في الاتحاد العام للكوريين المقيمين في اليابان.

ألقى الحقيبة التي كان يحملها وأحاط ذراعيه حول كتفَي أبي.

قال يونغ لنا: «كيف حالكم؟ لقد كبرتم كثيرًا بلا شك!»، وَدَعته أمي للدخول.

ثم فتح حقيبته، وناولني ساعة وأخرج بعض الأوشحة لشقيقاتي، لم أصدق عينيَّ، إذ كانت الساعات اليابانية شيئًا نادرًا وعزيزًا، والجميع يتوق للحصول على واحدة منها، ثم أدخل يده في حقيبته وأخرج قنينة كحول لأبي، لكن لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، أخرج دواءً وسُكَّرًا وعدة مقتنيات قيِّمة أخرى ورصفها على المنضدة، فأجهشت أمي بالبكاء.

شرب مع أبي حتى وقت متأخر من الليل، وكنت أسمعهما يتحدثان بنبرة هامسة.

قال أبي: «انظر إلى حالي! كنتُ أُسمَّى «النمر»، لكنني الآن حطام رجل، بفضل جمعية الكوريين المقيمين في اليابان، أولئك الأوغاد المخادعين!».

«مهلًا، احذر»، قال «يونغ» وهو يلقي نظرة سريعة في نواحي الغرفة، «للجدران آذان، كما تعرف! توَخَّ الحذر!».

لم يقُل أبي شيئًا لكنه أومأ.

تابع يونغ: «على أي حال، فلنرَ إذا كان بإمكاننا مساعدة بعضنا من الآن فصاعدًا، أعتقد أنك مررت بالكثير من المصاعب».

كان نائب رئيس لجنة الحزب في مدينةٍ ما ومشغولًا جدًّا، لكن بعد تلك الليلة، كان يتدبر أمر زيارتنا من حين لآخر، وحالما علم بأمر عرض زواج «إيبكو»، ذهب لزيارة «كان» ثم جاء وقال لـ «إيبكو»: «إنه رجل صالح، طيب ولطيف، لا تقلقي بشأن المال»، وأوصى أبي بإعادة التفكير في موقفه، فرغم كلّ شيء، «كان» عائدٌ أيضًا.

حُسم الأمر، وحددوا تاريخ الزفاف بعد شهرين، ومِن المحزن أننا لم نتمكن من شراء ملابس جديدة أو فراش لشقيقتي، وقالت والدة «كان» إنها ما دامت ستتزوج، فهذا يكفي، وليست بحاجة إلى جلب أيّ متاع معها.

لكن «يونغ» أعطى أمي بعض المال قائلًا: «خذي، اجعليها جميلة بهذا».

أُثير إعجابي، حتى إنني تأثرت، كانت مراعاته كنفحة هواء منعش، نادرًا ما كنا نشهد أو نختبر أيّ إنسانية حقيقية أو أيّ دِفء في حياتنا اليومية، إذ كان كل شخص يفكر بنفسه.. كيف يتقدم، ويتظاهر بالاهتمام بالحزب، ويبتعد عن المتاعب، ويكافح لجمع الطعام، ويستخدم السجائر والكحول رشوةً لتدبُّر أمره مع ذوي السلطة، وللأمانة.. هذا هو السبيل الوحيد للنجاة؛ إذ جرَّدهم النظام من الإنسانية تجريدًا تامًّا؛ أيْ نحن. وكان الأمر المحزن هو أنني أنا نفسي بدأت أفكر بالطريقة عينها، لكنّ سلوك «يونغ» ذكّرني بمعنى أن أكون إنسانًا، وأدركتُ أنه مهما بلغتْ صعوبة الواقع، يجب على المرء ألّا يدَع روحه تنهزم، ويجب أن يتحلّى بإرادة قوية، عليه استحضار ما يعرف أنه صحيح من أعماق ذاته ويعمل وَفقًا له.

جاء السيد «يونغ» إلى منزلنا ذات يوم، وهو يبدو زَريَّ الهيئة، وهو الذي عادةً ما يبالغ في تأنُّقه، لكنه في ذلك اليوم تحديدًا، بدا شعره

أشعث وعيناه محتقنتين بالدماء، والأسوأ من كل هذا، بدا خائفًا حدَّ الموت، نادى باسم أبي ثم أمسك يديه صامتًا هنيهة، ثم بدأ يتكلم بجنون.

أوضحَ أنه كان قد حضر حفل رأس سنة، وكان هناك بعض أصحاب الشأن في الحزب بين الحضور، وارتكب «يونغ» المسكين زلّة لسان، كان على ما يبدو، بعد انتقاله إلى كوريا الشمالية، أنه قد كتب رسائل إلى رجل يُدعى «هام دو كوسو»، رئيس جمعية الكوريين في اليابان، وكان يعرف «هام» منذ سنوات، لكنه لم يتلقَّ منه ردًّا، ومن الطبيعي أنَّ سلوك «هام» ضايقه.

أثار «يونغ» هذا الموضوع عن طريق الخطأ، قال شيئًا فيما معناه: «لَمْ يصبح «دو كوسو» رئيسًا إلّا بمساعدة الجميع ودعمهم له، لكنه لا يُقدِّر ما فعله الجميع من أجله، والآن صار يترفَّع عن الرد على رسائل أمثالي، يا له من متعجرف!».

واتضح أنَّ كلماته هذه كانت خطأً قاتلًا، ففي اليوم التالي أُزيحَ «يونغ» من منصبه؛ إذ إنَّ انتقاد «كيم دو كوسو» كان يعني انتقاد «كيم إيل سونغ» نفسه.

تمالك يونغ نفسه قليلًا بعدما تحدث مع أبي.

قال أبي له: «فلنكن أقوياء، حسنًا؟ سيكون المستقبل أفضل، أعرف أنه سيكون أفضل.. سوف ترى»، أظنه لم يجِد كلمات أفضل ليقولها.

أومأ «يونغ» إيماءة واهنة، وقال لـ «إيبيكو»: «فلتسْعَدي!» ثم انحنى لنا وغادر.

وبعد أيام قليلة من زفاف «إيبيكو»، علمنا أنَّ «يونغ» شنق نفسه، وكتب في رسالة انتحاره:

«لم تعد لديَّ كرامة، ولم أعد أستطيع العيش».

وهكذا انتهت حياة رجل لطيف ومحترم.

وبحلول الوقت الذي ذهب فيه أبي لرؤية جثمانه، كانت الشرطة السريّة قد أخذته مسبقًا.

ثم انتحرت زوجته بعد بضعة أيام.

لا أدري كم عدد العائدين الذين عاشوا مثل هذه المآسي، أظن أنه يوجد أعداد لا تحصى من مثل هذه القصص، بعضهم أُرسِل إلى معسكرات الاعتقال، وبعضهم طُهِّر أو أُعدِم، حيوات كثيرة أُهدِرت.

عندما بلغت شقيقتي «هيفومي» «سن الزواج»، كما كانوا يسمونه، ظهر رجل آخر، اسمه «لي سونغ راك»، وساعد في إيجاد زوج لها، كان «لي» يعمل في قسم الدعاية بجمعية الكوريين في اليابان، وقد جلب معه معدَّات إرسال من اليابان عندما انتقل إلى كوريا الشمالية، وساهم مساهمة مقدَّرة في الحزب، فقُدِّرت جهوده علنًا وأُثني عليها، كما كان رجلًا طيب القلب. اتصلَ بعائدٍ يعيش في «وونسان» عندما علم بأنَّ «هيفومي» مؤهلة للزواج، وقبل وقت ليس بالطويل تزوَّجَته شقيقتي، لم يرُقني زوج «هيفومي» الجديد إطلاقًا؛ كنت أراه كسولًا وأمتعض من مجيئه إلى منزلنا طوال الوقت ليطلب الطعام لوالديه، في حين أننا بالكاد لدينا ما يُقيم أوَدنا، وكانت أمي قلقة من أنها إذا رفضت، ربما يقسو على «هيفومي»؛ لذلك كانت تطلب من سكان القرية منحنا الطعام لتساعده، لم أُطِق حقيقة أنها تتسول نيابةً عنه، وفي النهاية لم نعد قادرين على الاستمرار، وانتقلوا إلى «بوجون».

في هذه الأثناء، كان «لي سونغ راك» مكلَّفًا بالإشراف على مصنع معدات إرسال في «سينانجو»، ومن ثَم، ذات يوم، أُعلِن فجأة عن خيانته؛ لأنه تزوج امرأة من كوريا الجنوبية، لم تكن المشكلة الحقيقية ذات أيّ صلة بزوجته، بالطبع، فقد كانوا يعرفون بأمرها طوال الوقت، كلّ ما

في الأمر أنه حاول إدخال إصلاحات في منصبه الجديد، أصبح «لي» شخصية غير مرغوب فيها، وأُعفِي من منصبه، وغدا كأنه غير موجود.. بهذه البساطة، ثم سمعتُ لاحقًا أنَّ عائلته انقسمت، وأنه أصبح متشرِّدًا يُرى وهو يتسكع حول محطة قطار «سينانجو».

كان أصدقاء أبي يختفون واحدًا تلو الآخر، ومن الذين لقوا نهايةً حزينة أيضًا «كيم أُو يون»، وهو «عائدٌ» كان يُدير مصبغة في «كاواساكي» باليابان، ومثل أبي كان متزوجًا بامرأة يابانية، وفي كوريا الشمالية، أصبح «كيم» سائق حافلة، وذات يوم في أثناء استراحة، بدأ يتحدث مع زملائه عن حياته في اليابان، وبعد بضعة أيام، اعتقلته الشرطة السريّة هو وزوجته وقذفت بهما في معسكر اعتقال «يودوك»، وهو بؤرة شقاء سيئة السمعة، وبعد عشر سنوات -بمنزلةِ أبديَّةٍ في مثل ذلك المكان- أُطلِق سراح زوجته وجاءت لتعيش قرب منزلنا، كانت امرأة مَرِحة فيما مضى، لكنها صارت خدِرة وخاوية تمامًا، وجهها خالٍ من التعابير، وصوتها مجردٌ من أيّ إحساس، كانت تتجنَّب التواصل مع الناس بأيّ ثمن، وأصبحَت شخصًا آخر يعيش بين ظهرانينا كأنه غير موجود.

ظهرتْ عند منزلنا ذات يوم، وهي تحمل ابنها، وفوجئنا بذلك؛ لأنها كانت تسعى جاهدة لتجنُّب الناس، واتضح أنَّ ابنها مريض للغاية، فحملْتُه على ظهري إلى عيادة القرية.

سألتُ الطبيب: «لسانه متقيِّح، وغير قادر على الأكل منذ ثلاثة أيام، أيمكنك إعطاؤه حقنة بنسلين ج؟».

لم أكن أعرف ما إذا كان البنسلين سيعالجه أم لا، لكنه كان المضاد الحيوي الوحيد المتوفر في كوريا الشمالية، وظننت أنه فرصته الوحيدة في النجاة.

«ماذا؟ تريدني أن أعالجه مجانًا؟ أيها الصفيق الحقير! لماذا أُهدر دواءً قيِّمًا عليه؟ ادفع، أو على الأقل اجلب لي بعض الأعشاب الطبيّة! عندها سنتحدث».

يُفترَض أنَّ الرعاية الصحية مجانية في كوريا الشمالية، لكنها في الواقع ليست مجانية إطلاقًا، لا يستطيع الفقراء الحصول على العلاج دون أن يدفعوا بطريقة أو بأخرى. إذا ليس لديك مال، فأحضر بعض الكحول، أو بعض السجائر، أو بعض الأدوية الصينية، أو انس الأمر.

لاحظتُ اقتباسًا في إطارٍ على جدار العيادة خلف الطبيب، يقول: «الطبُّ فنٌّ خيِّرٌ، وعلى الطبيب أن يكون أكثر شيوعيةً من أيّ أحد»، كلمات «كيم إيل سونغ».

وفجأة صِرتُ ألتهب غضبًا، وانفصم شيءٌ بداخلي.

صِحتُ: «مَن الذين تعالجهم حقًا؟ ألا تعالج أحدًا؟».

قلتُ ذلك ولكمتُه، كان الأمر كما لو أنَّ سدًّا انهار بداخلي، وتدفقت كل أعوام البؤس واليأس، واعتليته على حين فجأة، وانهلتُ عليه بقبضتَيَّ، لكن حتى هذا لم يكن كافيًا، كان غضبي يزداد استعارًا، فركضتُ عائدًا إلى المنزل لأحضر سكينًا، أردت حقًّا أن أقتل الرجل. طبيبٌ لا يريد مساعدة الناس كان أسوأ من عديم النفع، كان يُجسِّد السخرية من كل ما يُمثِّله. وعندما عدت إلى العيادة، وجدتُ عدة رجال شرطة يقفون في الرُّواق، ففكرت بقتلهم أيضًا، لكن أبي ظهر بغتةً من حيث لا أدري وانتزع السكين من يدي.

أمرني بمغادرة المكان، وفجأة ارتطمتُ بإدراكِ واقعِ ما كنت أعتزم فعله، وركضتُ إلى المنزل.

بقي أبي في العيادة بعض الوقت، ثم جاء إلى المنزل، وبعد ثلاثة أيام كان عليه الذهاب إلى مركز الشرطة، لكنه مجددًا عاد دون أن يمسَّه سوء. لم تكن لديّ فكرة عما حدث، ولم يقُل لي شيئًا قط، لكن لا بد أنه كان أمرًا جيدًا، لأنني لم أُعتقَل ولم يحدث شيء بخصوص المسألة برُمَّتها قط.

نشأتُ على كراهية العنف، لا سيما بما أنني شهدت أبي يضرب أمي بوحشية عندما كنت طفلًا، لكن موقفي تغير بعد المواجهة مع الطبيب، وبدا العنف كأنه الحل الوحيد، كنت أشعر بالعجز التام وأنا أقف متفرِّجًا أشاهد أناسًا طيبين يتعرضون للتطهير والنفي والدمار، نصحَتْني أمي بتهدئة مِزاجي، وإلَّا فسوف أختفي أنا أيضًا.

في السبعينيات، ظهر شعار جديد: «استراتيجية السرعة!»، وأصبحتْ عبارةٌ عبثية أخرى تُكرَّر حد الملل في اجتماعاتنا التفاكرية، كما استوجب علينا حفظ وصايا «كيم إيل سونغ» العشر ثم ترديدها إلى ما لا نهاية حتى تُنحَت في أدمغتنا أبد الدهر، وفي النهاية أحسست كأن عقلي نفسه احتُلَّ.

يمكنني تذكر تلك الوصايا إلى اليوم، بالطبع، كيف لا يمكنني؟ لَلقيت حتفي منذ مدة طويلة إذا لم أتذكرها، ها هي ذي:

1. يجب علينا أن نبذل قُصارى جهودنا في النضال في سبيل توحيد المجتمع بأكمله بالأيدولوجية الثورية للزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ».
2. يجب علينا أن نُعظِّم الزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ» بولائنا الكامل.

3. يجب علينا أن نجعل سلطة الزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ» سلطة مطْلَقة.
4. يجب علينا أن نجعل الأيدولوجية الثورية للزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ» إيماننا وأن نجعل تعليماته عقيدتنا.
5. يجب علينا أن نلتزم التزامًا صارمًا مبدأ الطاعة غير المشروطة في تنفيذ تعليمات الزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ».
6. يجب علينا أن نُعزِّز أيدولوجية الحزب بأكملها وإرادته ووحدته الثورية المُتمثِّلة في الزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ».
7. يجب علينا أن نتعلم من الزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ» ونتبنّى التوجُّه الشيوعي، وأساليب العمل الثورية، وأسلوب العمل الموجَّه للناس.
8. يجب علينا أن نُقدِّر الحياة السياسية التي منحها لنا الزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ»، وأن نردَّ بولاء على ثقته العظيمة ومراعاته بوعي سياسي عالٍ ومهارة.
9. يجب علينا أن نضع لوائح تنظيمية قوية، بحيث يتحرك كل الحزب والأمة والجيش وحدةً واحدة تحت القيادة الأوحد للزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ».
10. يجب علينا أن ننقل الإنجاز العظيم للثورة التي قادها الزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ» من جيل إلى جيل، ليرثها ويستكملها حتى النهاية.

وفي وقت لاحق متأخر، تحققتُ من الوصايا العشر الموجودة في الديانات الإبراهيمية، أتعرفون كم منها تشتمل على إشارة إلى الله؟

خمسٌ تقريبًا؛ لذا يبدو أنَّ الله يُمْكنه أن يتعلم بعض الأشياء من الزعيم العظيم الرفيق «كيم إيل سونغ» -عليه السلام-.

عمليًا، كانت «استراتيجية السرعة» الجديدة تعني أنَّ علينا إنشاء المَزارِع حيثما وُجِدت التربة، وتحويل الجبال إلى حقول مُدرَّجة، ومن أجل إنجاز هذا، كنا بحاجة إلى مزيد من العمال.

أُرسِلتُ في ربيع 1970 للعمل في مزرعة تعاونية بالقرب من «تشونغبيونغ ري»، قُدتُ الجرار مع مقطورة تحمل ثلاثة عمال آخرين، ونحن نرْتجُّ في طريقنا ببطء إلى وجهتنا.

وعندما وصلنا إلى المزرعة، صعدنا على متن شاحنة عسكرية، وبعد ثلاثين دقيقة أو نحوها بلغْنا واديًا عميقًا، حيث كان الجنود وعمال المزارع قد بدؤوا العمل الشاق على جانب الجبل، سجَّلنا حضورنا ومُنِح كلٌ منا بنطال عمل، وكان أول بنطال جديد أتلقاه منذ مجيئي إلى كوريا الشمالية، فخلعت بنطالي المهترئ وارتديت الجديد، ممتلئًا بالزَّهو، حتى أن مَن يراني يظن أنني فزت باليانصيب.

وعند الخامسة من صباح اليوم التالي، أيقَظنا صوت بوق من نومنا في كوخنا الطويل، الذي صُمم كثُكْنة عسكرية، وبعد تفقُّد طابور الحضور، شكَّلنا صفًا وانحدرنا إلى النهر الذي يجري عبر قلب الوادي، كسرنا سطح النهر المتجمد بالصخور وغمسنا أيدينا وغسلنا وجوهنا، لسعت المياه الجليدية وجهي وخدَّرت يديَّ في الحال، وبعد ذلك.. ركضنا إلى مركز الجيش، حيث وقعت أعجوبة الأعاجيب، إذ قُدِّم لنا أرز أبيض في صالة الطعام، لم أكُن قد تذوقت الأرز الأبيض منذ دهور، وفي الحقيقة كاد منظر الأرز الأبيض أن يجعل الدموع تترقرق في أعين العديد منا، لم أرغب في مغادرة صالة الطعام أبدًا، لكن كان علينا الذهاب إلى العمل.

كانت مهمتنا هي نقل الصخور وأكوام التراب التي أخرجها الجيش من جانب الجبل في أثناء عملهم على بناء أنفاق في نواحي المنطقة، وكانت الأنفاق تُبنَى لتضم البارود ومصانع الذخيرة؛ لأن هذه المباني دمَّرها القصف الجويّ الأمريكي إبَّان الحرب الكورية، فكان من المنطقي أن تُبنى بدائلها تحت الأرض، لكن خطوط الكهرباء التي هي تحت الأرض أيضًا، لم تكن تعمل كما ينبغي، كان التيار ضعيفًا؛ لذا لم تتمكن بعض المصانع من التشغيل، وغنيٌّ عن القول أنَّ إزالة الأنقاض التي خلَّفها بناء الأنفاق كان عملًا يَقصِم الظهر.

تلقيت بعد بضعة أسابيع برقيةً من «كان كي سون» زوج «إييكو»، تقول: «الزفاف، 25 من يناير.. عُد إلى المنزل بحلول الـ24»، لم تكن لديّ أدنى فكرة عن زواج مَن كان المقصود، ثم توجَّستُ مِن أنَّ نازلةً قد وقعت في المنزل، شيء لا يمكن التطرق له مباشرة، ولم تكن الإشارة إلى الزفاف سوى شفرة، نزلتْ بأسرتنا كثير من المآسي لدرجة أنني كنت دائمًا ما أتوقع الأسوأ.

عدتُ إلى موقع العمل في جبال الرمال والأنقاض وأخبرتُ الشخص المسؤول بشأن البرقيّة، فصاح بين أصوات انفجار ديناميت ومثاقب تحفر الأرض الصلبة: «يمكنك الذهاب!»، فهُرِعت وقفزت على الجرّار، وقُدت عائدًا إلى «دونغ تشونغ ري» بأقصى سرعة يمكن للجرّار بلوغها، ورحت أتأمل جميع أسوأ مخاوفي وأنا أقود، لم أشعر بالارتياح للمغادرة، فرغم مشقة العمل والظروف القاسية، لكن على الأقل كان هناك طعام مضمون، وإلى جانب بنطالي الجديد، مُنحتُ أيضًا حذاءً عسكريًّا جديدًا، وهو أول نَعْل يناسب قدمَيَّ منذ وصولي إلى كوريا الشمالية.

وجدتُ استعدادات الزفاف تجري على قدم وساق عندما عدت إلى المنزل، كان هناك كعك أرز ولحم وسمك وساكي وبضع هدايا أخرى، لم

أكن أعرف ما يجري، فلبثت واقفًا في مكاني فحسب، محاولًا استيعاب الأمر، ثم اقتربتْ مني والدة «كان» قائلة: «خبر عظيم! إنه يوم زفافك».

كان يمكن لأيّ شخص حينها أن يطيح بي كريشة، القول بأنني «فوجئت» لا يقترب من وصف إحساسي بأيّ درجة، كنت مشدوهًا ومشلولًا من الصدمة.

المرأة التي كنت على وشك الزواج بها، على ما يبدو، كان اسمها «لي هي سوكو» ووالدها نائب رئيس محطة توليد كهرباء في مدينة «هامهونغ»، كان بصرها ضعيفًا للغاية، و... حسنًا، يؤسفني قول هذا، لكن لا يمكن وصفها بالجمال.

- لأنني «عائد» وفقير جدًّا.. أتعتقدون أنني لا أستطيع اختيار زوجتي؟ ألهذا اخترتَ لي زوجة؟

كان أبي جالسًا جوار والدة «كان»، وسرعان ما عرفتُ أنه هو الذي طلب منها أن تبحث لي عن زوجة، لكن حتى هو بدا أنه يعتقد أنَّ هذا الترتيب قاسٍ جدًّا.

ظهرتْ الحقيقة تدريجيًّا، كانت زوجة أبي «هِي سوكو» هي التي في عجلة من أمرها لإتمام الزواج، فقد كان هذا الزواج فرصة عظيمة للمرأة للتخلص من ابنة زوجها. ولاحقًا عرفت أنَّ المرأة لم تكن تُحب «هي سوكو»، وعادةً ما تقسو عليها وتعذبها، لم تكن والدة «كان» تعرف شيئًا بهذا الخصوص؛ لذا لا يمكنني إلقاء اللائمة عليها، كنتُ في حَيرة من أمري. وفي النهاية.. شعرت بصراحة أنه أمر عسير أن نلغي الزواج، وأنا ببساطة لم تكُن لديّ طاقة للمقاومة، وكانت خياراتي محدودة؛ لذا سايرت الأمر.. كنت في الثالثة والعشرين.

بعد بضعة أيام، اقترب أبي مني وأنا أهيِّئ الإفطار.

- أُدركُ الآن أنه كان خطأً فادحًا مني أن أطلب من والدة «كان» أن تجد امرأةً لك، أنت ابني الوحيد، وأريدكَ أن تكون سعيدًا، من الأفضل لك أن تُطلِّق وتجد المرأة المناسبة.

قلتُ: «ليس لديها مكان تذهب إليه، قُضي الأمر الآن، دعها تبقى معي.. سأعتني بها».

- كما تشاء، اعتنِ بها إذن، لكن لا يمكنني أن أقبلها بوصفها زوجة ابني، وإذا رغبتَ في العيش معها، فعليك إيجاد مكان آخر لتعيش فيه.

يا لِسخرية القدر.

لا يمكنني أن أقول إنني أحببت «هي سوكو»، فقد كنت بالكاد أعرفها، وسرعان ما اكتشفتُ أنَّ زوجة أبيها كانت تُبقيها محبوسة في غرفة؛ لذا لم تتعلّم فعل أيّ شيء.. لم تكن تعرف الطبخ، وكانت تمضي ساعات طويلة في أحلام اليقظة، لكنني لم أستطع تخيُّل العيش وحدي، لا سيما

في هذا العالم القاسي، وكانت في أمسّ الحاجة إلى مساعدتي؛ لذا قررنا أن نحاول إنجاح الزواج والانتقال للعيش معًا.

اقتربتْ أمي مني عندما كنت أحزم أمتعتي.

قالت: «قدَرُك دائمًا صعب»، وارتسم تعبير حزين على وجهها، لم أدرِ ما أقول، كنت أكره فراقها، لكن كان عليَّ الوفاء بالتزاماتي نحو زوجتي.

وجدتُ زوجين عجوزين في «دونغ تشونغ ري» لديهما غرفة إضافية، قالا إنَّ بإمكاننا استخدامها، وكانت توجد شروط، بالطبع: كان علينا أن نعطيهما جزءًا من حصص طعامنا، ونساعدهما في جمع الحطب، وننهض ببعض أعمال المنزل، وما إلى ذلك، ولم ينقضِ وقت طويل قبل أن يزيد الزوجان العجوزان مطالبهما، والأسوأ من كل شيء، كانا يريدان، من بين أهم ما يريدانه، أيّ شيء ذي قيمة من اليابان، ولم

يفهما لماذا، بوصفي «عائدًا»، لا أملك شيئًا، بالطبع لم يكن لدينا شيء لنعطيهما إياه.

كان عليَّ التكيُّف مع العديد من الأشياء في تلك السنة الأولى، فعلاوة على عملي الأساسي في المزرعة، كان عليَّ الاعتناء بأصحاب منزلنا. وفوق ذلك، أصبَحت زوجتي حُبلى، فصرتُ دائم القلق بشأن الكيفية التي سوف أُعيل بها طفلًا، في حين أننا أنفسنا بالكاد نُبقي على حياتنا، لكن لم تكن لديّ إجابات لهذا السؤال، وظللت أذهب إلى العمل، يومًا في إثر يوم، آملًا وقوع معجزةٍ ما.

بعد عام من زواجنا، عدتُ إلى المنزل من العمل ذات يوم، وأحسست فجأة بدوار، اضّجعت على الأرضية وبدأت أنزف من أنفي وأذنَيَّ، ولم يتوقف النزيف، فأصيبتْ زوجتي بالذعر، ثم بدأتُ أفقد وعيي، فطلبت منها إحضار المساعدة.

استيقظت في المستشفى بعد يومين، ورأيت وجهَيْ والدَيَّ القلقَين يرنوان إليَّ عندما فتحتُ عينيَّ، كانوا قد سدُّوا أنفي وأذنيَّ بشاش، جُلت بناظريَّ في المكان بحثًا عن «هي سوكو»، لكنها لم تكن موجودة.

قال أبي: «صُدمتْ زوجتك بشدة عندما رأتك تفقد وعيك لدرجة أنها، على ما يبدو... أنها.. آآ.. هربتْ».

بدأتُ أبكي.

قالت أمي: «كن قويًا».

لكن لم يكن لديّ وقت لمزيد من التفكير في الأمر، إذ تشتَّتَ انتباهي بوخزة ألم مباغتة، اتضح أنَّ النزيف نتيجة لتضرُّر وعاء دمويّ بين عينَيّ، وكان الطبيب قد أعطاني حقنة لإيقاف النزيف.. لكنها لم تنجح،

وفي نهاية المطاف أدخلوا لفافة شاش قطنية من أنفي إلى عينيَّ، فتوقف النزيف.

وحالما غادرت المستشفى، جاءت زوجتي لرؤيتي في منزل والديَّ، كان بطنها كبيرًا جدًّا، وبدت كأنها تجد صعوبة في المشي.

«أرجوك طلقني، لا أريد أن أسبِّب لك المزيد من المتاعب، لكن طفلنا...»، لم تكمل الجملة، وكنتُ أتساءل كيف تخطط لتربية الطفل بنفسها؟

تدخل أبي قائلًا: «لا تقلقي! سوف نربِّي الطفل».

سيكون حفيده الأول.

وُلد ابني البكر في 25 من مارس 1972، وأسميناه «هو تشول»، ولَدَتْه «هي سوكو» في منزلنا، وغادرت بعد ميلاده بوقت قصير. أودّ أن أقول إنَّ رؤيتها وهي تذهب قد أحزنتني، لكننا كنا بالكاد نعرف بعضنا، وربما الوضع أفضل هكذا، بجانب أنني كانت لديَّ شواغل أكثر إلحاحًا، كان لديَّ ابن لأعتني به، وبالطبع لم تكن توجد مناشف ناعمة أو حليب مجفف، لا شيء تقريبًا.. حقًّا، حتى وأنا منشغل بتلبية احتياجات ابني اليومية، لم يسعْنِي سوى التفكير بمستقبل هذا الطفل الصغير البريء الذي لن يجد الكثير، وسوف تكون حياته مليئة بالمعاناة والحسرة، ينبغي أن أكون مبتهجًا لأنني صرت أبًا، لكنني لم أرَ ما أبتهج بشأنه، وآلمني أنَّ حياته ستكون مليئة بالشقاء، لكن والديَّ وشقيقتي الأصغر كانوا مسرورين، وكنت سعيدًا بانتقالي للعيش معهم مجددًا.

انقضى شهران منذ ميلاد ابني، وكانت أمي تهيِّئ الإفطار في المطبخ، كانت طويلة قليلًا فيما مضى، لكنَّ طولها تقلَّص بمرور السنوات،

وكان بنطال عملها مليء بالثقوب التي تُظهِر جِلدها، كانت في السابعة والأربعين من عمرها فحسب، لكنها بدت عجوزًا طاعنة في السن.

وبدا أنها تفقد توازنها فجأة، فالتفتتْ وسارت متعثرة نحوي وأنا أحمل ابني.

قالت لي وهي تقعد بجانبي: «أحتاج إلى قليل من الراحة»، ونظرتْ إلى ابني وإليَّ بابتسامة باهتة على شفتيها، ولاحظتُ أنها تتنفس بصعوبة، فبدأت أشعر بالذعر.

قالت لي بصوت خشن واهن: «عندما تعود إلى اليابان، أرجو أن تأخذ رمادي معك، واذهب به إلى منزل جدَّيك، وضعه في مقبرة الأسرة».

– ما الذي تتحدثين عنه؟ كُفِّي عن الحديث هكذا، إنه نذير شؤم، لديك حفيد جديد.

لكن وجهها لم يزْدَد إلَّا ذبولًا، وعلمتُ عندئذ أنَّ الخطب جلل، أصبحتْ أنفاسها قصيرة ومجهدة، وكان وجهها يزداد شحوبًا بمرور كل ثانية.

قالت وهي تضَّجع: «سأغفو قليلًا».

بدأتُ أفرك ظهرها بما أنني أعلم أنها تحب ذلك، وسألتها وأنا لستُ متأكدًا مما عليَّ فعله: «هل تتألمين؟ أتشعرين بالمرض؟».

لكنها لم تجِب، فهززتُها، لكنها لم تُبدِ أيَّ ردة فعل.

صرختُ: «أمي! أمي!».

لكن ما من إجابة.

ثم بدأ الطفل بالصراخ.

هُرِع أبي وشقيقتي إلى الغرفة، بعدما أيقظَهم الصراخ من نومهم.

انحدر خيط من الدموع من زاويتَيْ عينَيْ أمي.

فوضع أبي يده على فمها.

ثم نظر إليَّ بتعبير جامد على وجهه.

كنت أسمع ما يقوله، لكنني لم أستوعب معنى كلماته.

«لقد ماتت».

الشخص الوحيد الذي جاء إلى المنزل بعدما انتشر خبر وفاة أمي في القرية هي السيدة «تشون»، زوجة الرجل الذي ساعدنا في بناء منزلنا قبل سنوات طويلة بعد الحريق، اندفعَتْ مسرعة وهزَّتْ جثمان أمي والدموع تنهمر على وجهها.

وراحت تنتحب: «لقد أصبحتِ جدة للتو! لماذا تموتين؟».

كان ابني الذي أنهكه البكاء ينام بين ذراعيّ.

جاءت «إيبكو» و«هيفومي» في تلك الليلة، أخذَت «إيبكو» الطفل مني، فقد كانت ترى أنني خَدِر ومُشتَّت الانتباه، وقالت لي: «أنت الابن البكر، عليك أن تكون قويًّا».

قالت «هيفومي» الأمر نفسه.

وأنا أنظر إلى جسد أمي الهزيل، استوقفني بنطالها الرَّث الذي غشيته الثقوب، فشعرتُ بالأسف حيالها، ماتت وهي ترتدي بنطال عمل باليًا ومهترئًا، لم أحتمل الأمر.

خرجتُ إلى ظلام الليل، وكانت أمسية غائمة، والقمر والنجوم محجوبان تمامًا، هِمْتُ على وجهي في أرجاء القرية قرابة ساعة، ثم مررت جوار منزلٍ حيث رأيت بنطالًا معلقًا بالخارج لِيجِفّ، فأخذت البنطال وأقحمته تحت قميصي، وأنا أهمس لنفسي أنني لن أفعل شيئًا كهذا مجددًا أبدًا، وأتوسَّل الغفران لأفعالي.

ركضتُ إلى المنزل، وغسلت جثمان أمي، وألبستها البنطال، واحزروا ماذا.. اتضح أنَّ ذلك البنطال كان باليًا أيضًا.

وضعناها في تابوتها عصر اليوم التالي، وحاولتُ تثبيت الغطاء، لكن المسامير كانت رديئة ولا تدخل مستقيمة، وهذا عبَّر عن كلّ شيء بالنسبة إليَّ، أما أمي.. فلم تستمتع برفاهية واحدة منذ انتقالها إلى كوريا الشمالية. عجزتُ عن التوقف عن التفكير بالأمر، هل عاشت يومًا سعيدًا واحدًا في حياتها بأكملها؟ أم لم تكن حياتها كلها أفضل حالًا من بنطال عملها المهترئ؟ بنطال بالٍ... حياة بائسة، حتى وأنا أحمل تابوتها، رحتُ أفكر مليًا بما إذا كانت قد مُنِحتْ يومًا واحدًا من السعادة الخالصة، لكنني لم أستطع تذكُّر أيّ يوم، ربما يمكنها أن تسعَد أخيرًا في الموت.

دفنَّاها على جانب بالجبل بالقرب من مزرعة فواكه، ونصبتُ قطعة خشب بسيطة لتحديد الموقع، مكتوب عليها: «هنا ترقد مييكو إيشيكاوا»، عجز أبي عن الكلام، وكان يتنهَّد من الحزن فحسب.

عندما عدنا إلى المنزل، وجدنا أهل القرية الذين ساعدونا في حمل التابوت إلى جانب الجبل، يتشاطرون بحماس الطعام والشراب الذي وفَّرته «إيبيكو».. فأشعرني الأمر بالغثيان. عندما كانت أمي حية، لم يكونوا يلتفتون إليها مجرد التفاتة، وعندئذٍ.. ها هم أولاء يأكلون ويشربون على شرف موتها، لم أستطع احتمال نفاق أفعالهم، لماذا لا يذهبون ويرقصون على قبرها؟

عدتُ إلى مكان راحة أمي، وأشعلت سيجارة وغرستها في قبرها بدلًا من البخور، وغنَّيت أغنية أطفال كانت أمي تغنيها لي اسمها «اليعسوبة الحمراء»، كانت تغنيها وهي ترنو إلى السماء، قائلة إنَّ السماء وحدها هي التي تربطها بوطنها الأم، كانت دائمًا ما تبكي وهي تغنيها، كنتُ

قادرًا بالكاد على إخراج الكلمات خلال نشيجي، وأردتُ أن أغوص في القبر معها، شاعرًا بوطأة الحزن واليأس.

استمرت الحياة، لم تكن هي نفسها، لكنني وأبي وشقيقتي الأصغر «ماساكو» وابني بقينا معًا، أصبحتْ «ماساكو» عاملة مزرعة، وكان أبي الذي ناهز الستين من عمره لا يزال مسؤولًا عن الغلّاية في مصنع لمعالجة الفواكه، في حين واصلتُ عملي في المزرعة.

عادةً ما كنا نستيقظ عند الخامسة، فنتناول على الإفطار كُرُنْبًا صينيًا نزرعه في حديقتنا، يُغلَى في الماء ويُثَخَّن بنشاء الذرة، يبدو شنيعًا، صحيح؟ كان شنيعًا فعلًا، لكنه يُشعِر بطوننا بالامتلاء إذا تمكنا من ازدراد وعاء منه.

كان أبي يغادر المنزل أولًا، ثم أحمل ابني لأحاول إيجاد امرأة يمكن أن ترضعه، وأسير من منزل إلى منزل، طالبًا المساعدة، لم أكن قادرًا على دفع أيِّ شيء؛ لذا كنت آمل العثور على امرأة طيبة القلب، فكان الناس أحيانًا يصرخون بي، وكنت أكتوي بالخزي، لكن ماذا عساي أن أفعل غير هذا؟ أدَعُه يتضور جوعًا؟ لذا لم أستسلم قط، وبعد ذلك، آخذه إلى الحضانة النهارية بالمزرعة وأبدأ العمل.

منذ حريق المنزل لم نمتلك حتى أريكة واحدة، وكنا ننام على الأرضية فحسب، وكان يصعب النوم في البرد، خاصة بالنسبة إلى ابني، كنتُ وأبي نخلع قمصاننا ونضّجع قريبًا منه لندفئه بحرارة جسدينا، ونأخذه إلى أدفأ مكان بالقرب من موقد التدفئة، وعندما تخبو نار موقد التدفئة، نحتضنه مجددًا ونأخذه إلى موقد الطبخ ونضّجع جواره.

غالبًا ما كان يبكي من الجوع في الليل، فكنت أُعِدُّ له سخينة أرز خفيفة مِن نشاء الذرة ومسحوق الأرز وأعطيه بضع ملاعق؛ محاولًا تخفيف جوعه الدائم، لكن هذا لا ينجح أحيانًا، فأحمله في نواحي المنزل

على ظهري محاولًا تهدئته، وأحيانًا يداهمني النوم وأنا واقف، ثم عندما تضعف ركبتاي وأجفل، يوقظه الاهتزاز فيبكي مزيدًا من البكاء، وفي النهاية كنتُ أتكِئ على الجدار وأنام هكذا، كان من الممكن أن يموت بسهولة، بالجوع أو بالإرهاق أو بالبرد، عشتُ في حالة دائمة من الخوف واليأس مع وجود القليل جدًّا مما يمكنني أن أفعله له.

كانت الحياة صعبة، بل أصعب من ذي قبل، لكن ابني أبعدَ عن ذهني موت أمي، وعداه لم يكن لديّ شيء لأعيش من أجله، وإذا فكرتُ كثيرًا في هذا الأمر، فقد يمَّمت وجهي صوب الهاوية؛ لذا جاهدت لأتمكن من العبور من يوم إلى الذي يليه.

الفصل الرابع

بدا العالم مكانًا لا يَعرف الرحمة في ذلك الوقت، كنت أبًا عازبًا بعمر السادسة والعشرين، مطلّقٌ بعد زواج عبثيٍّ دام سنة، وتوفيت أمي في سِنٍّ صغيرة بعد بؤس حياة بأكملها، جاهدتُ مع أبي لإبعاد ابني من براثن الموت، ولم أرَ حولي سوى التفاهة السخيفة، ولم أعد قادرًا حقًّا على رؤية الجدوى من البقاء على قيد الحياة.

إذن، ماذا فعلتُ عندما بلغت هذا المستوى الجديد من الحضيض؟ البشر ليسوا سوى كائنات غير عقلانية؛ لذا فعلتُ ما فَعَلَته أعدادٌ لا تحصى من الناس وما سيفعلونه بعد موتي بوقت طويل.. صلَّيت، لم يكن يهمني حتى أنني لا أؤمن بالله، صلَّيت كي لا تحلَّ بي مزيد من المآسي، وصلَّيت من أجل صحة ابني، وصليت من أجل تغيير قدَري، صليت كل يوم، وشمِلني الله برعايته، لمدة خمس سنوات، خمس سنوات لم يحدث لي شيء إطلاقًا، ثم بلغتُ الحادية والثلاثين.

وسَئِمَ الله مني.

كنا في فصل الخريف، بعد الحصاد بقليل، وكان يوم توزيع الغذاء يقترب، وهو اليوم الوحيد في العام الذي يسترخي فيه الناس قليلًا، عُدتُ إلى المنزل من العمل ووجدت شقيقتي «ماساكو» تضم ابني وتبكي بكاءً مُرًّا، أخذْتُه بين ذراعيَّ وسألتها عما به، لكنه كان بخير، وهو أيضًا كان

يتساءل عن سبب انزعاج «ماساكو»، سألها: «لماذا تبكين يا عمتي؟»، ما من إجابة، واصلَتْ نشيجها فحسب، ثم توقفت فجأة عن البكاء ونظرت إليَّ نظرة جادَّة، وقالت: «ماساجي، أرجوك لا تغضب مني، أنا حامل». صُعِقتُ، بما أنني لم تكن لديّ أدنى فكرة أنها تواعد أحدهم أصلًا.

سألتُها: «مَن هو؟ هل تعتزمان الزواج؟».

وعندئذٍ انكشف المستور، كان اسمه «هان أوم تشورو»، وهو عامل مزرعة من القرية، وقد كان لطيفًا وشغوفًا بها عندما كانت شقيقتي تلبِّي طلباته، لكن عندما أخبرَتْه بأنها حامل غيَّرَ تعامله، وعندما سألتْ عما إذا كان ينوي الزواج بها، تدخّلت أسرته، ثم كانت القصة المعتادة، لم يكن يستطيع الزواج بها، بالطبع، فقد كانت يابانية لقيطة، وطردوها من المنزل.

أحسست بالغضب يتصاعد بداخلي وهي تروي لي القصة، لطالما نصحتني أمي بأن أضبط أعصابي وأن أتحلَّى بالصبر، كانت ترى دومًا أنَّ العنف لا يحلُّ أيّ مشكلة، لكنني لم أستطع الاحتمال، «ماساكو» شقيقتي، وقد أُهينت.

ذهبتُ، مُتأبِّطًا فأسًا، إلى منزل «هان» الذي يقع على بعد مسيرة عشر دقائق من منزلنا، ووجدتُه بالداخل.

- لقد خدعتَ شقيقتي أيها البهيميّ! أوَتعرف أيها الحثالة؟ لن تنجو بفعلتك!

حاولتْ أسرته إيقافي، لكنني أمسكت به من مؤخرة عنقه وطرحته أرضًا، فبدا خائفًا أشدّ الخوف وأجهش بالبكاء، ثم صاح: «سامحني! سأتحمَّل كامل المسؤولية!»، لكنني كنت عاجزًا عن سماع صوت العقل،

وأوسعته ضربًا حتى أظلمَتْ الدنيا أمامه، كنتُ أعلم أنه لا يجدر بي هذا، لكن لم يكن بمقدوري السيطرة على نفسي.

لم أستطع التنفيس عن غضبي حتى وأنا أنهال عليه بقبضتَيَّ، أظنُّ أنَّ أمي كانت محقة، تمكنتْ أسرة «هان» من انتزاعي من فوقه، وكنت مرهقًا من الشجار لدرجة أنني ترنَّحت في طريق عودتي إلى المنزل.

وعلى نحو لا يُصدَّق، وجد زوج «هيفومي» شخصًا يرغب في الزواج بـ «ماساكو»، كان محاسبًا يعمل بمدرسة في بلدة اسمها «مينسان»، في أعماق الجبال، توفيت زوجته ولديه طفلان، وهو «عائد»، بطبيعة الحال، استشعرتُ نُذُرَ متاعب منذ البداية؛ لأنها لم ترَه من قبل قط، وبما أنني مررت بالتجربة نفسها، كنت متشكّكًا بشأن ما إذا كان هذا هو الحل المناسب لها، لكن «ماساكاو» كانت سعيدة بالمُضي قُدُمًا في الزواج، وأظنها كانت مستعدة لفعل أيّ شيء من أجل فرصة لعيش حياة مستقرة.

قلتُ لها يوم مغادرتها: «إذا أساء معاملتك، فأخبريني فحسب، سأتولى أمره».

قالت: «لا، شكرًا.. لا مزيد من العنف، عِدني بأنك ستظل هادئًا».

شعرتُ أنا وأبي بالوَحدة من دونها، وكذلك ابني، كان من الغريب أن يخلو المنزل من أيّ امرأة، وبدأ أبي يسألني عما إذا كنتُ مهتمًّا بالزواج مجددًا، لم أكن متحمسًا، لكن عندما فكرتُ بابني وبمستقبلي، علمتُ في قرارة نفسي أنني أريد إيجاد امرأة أشاركها حياتي، ربما تنجح المحاولة الثانية.

قابلتُ عام 1976 امرأة اسمها «كيم تي سول»، كلانا جاء إلى كوريا الشمالية من اليابان في الستينيات، وكلانا مُطلّق، كانت متزوجة سابقًا بأحد الكوريين الشماليين الأصليين، لكن حماتها كانت تُهينها على الدوام بقولها: «أنتِ عائدة، لماذا ليس لديك أيّ شيء ذي قيمة؟»؛ لذا لم يستمرّ زواجها أكثر من شهرين، ولأننا مررنا بتجارِب مؤلمة متشابهة، اعتقدنا أننا يمكننا تشارك مشاعرنا وإمضاء حياة هادئة معًا.

كانت مراسم الزفاف في غاية البساطة، تشاركنا ما لدينا من طعام، وشربتُ مع «تي سول» كوبًا من الساكي، لنُعلن بداية تعهُّد بعضنا بعضًا، وبعد مراسم الزفاف، قال أبي لي إنَّ «تي سول» سوف تضطر إلى المغادرة بعض الوقت لتعتني بجدتها طريحة الفراش في «هامجو»؛ لذا لن نتمكن من بَدء حياتنا الزوجية تحت سقف واحد.

اصطحبتْ الجدةُ «تي سول» وشقيقتها وشقيقها إلى كوريا الشمالية بعد مقتل والدهم في حادث باليابان، واختفت والدتهم بعد موته؛ لذا لم يبقَ سوى جدتهم لتربيبهم، لم يكن هناك أحد لمساعدة جدتهم عندئذٍ، فوافقنا على العيش منفصلين بعض الوقت، تفهَّمتُ صعوبة موقف «تي سول»، فكنا نرى بعضنا متى ما أُتيحت لنا الفرصة، باستقلال القطار لمدة خمس وأربعين دقيقة لزيارتها ما أمكن.

حلَّت السنة الجديدة (عام 1975) وحلّ الربيع، وذات يوم رأيتُ امرأة تقف خارج المنزل وأنا عائد من العمل، كانت ترتدي بنطال عمل مهترِئًا ومعها طفلان، بدت زَرِيّة الهيئة، فظننتُ من بعيد أنها ربما تكون متشردة، ولاحظت أنها حامل عندما اقتربتُ منها، ثم التفتتْ إليَّ، كانت «ماساكو»، سألتها: «ما الذي تفعلينه هنا؟ تبدين بحالة مريعة، ماذا حدث؟».

نظرتْ إليَّ وانخرطت في البكاء، فاصطحبتها إلى الداخل، ومن خلال نشيجها، أوضحتْ لي كيف أنَّ حماتها كانت تُهينها، ومجددًا، كانت القصة نفسها.

إذ كانت حماتها تقول لها: «أنتِ عائدة، لماذا ليس لديك أيّ شيء؟ أقاربنا في اليابان يُرسلون إلينا المال والأشياء، لماذا لا يرسل أقاربك شيئًا؟».

وسرعان ما انضم زوجها الجديد إلى أمه، وفي نهاية المطاف طردوها من المنزل ومعها طفلاه، لاحظوا.. طفلاه هو.

لم يكن لديها مال أو أي خِيار، فبدأت سرقة الطعام، ثم بدأت المشي -وهي حامل، مع طفلين في التاسعة والحادية عشرة في أعقابها- كل المسافة عائدة إلى قريتنا، وقد استغرقوا ثلاثة أسابيع. لا عجب أنها كانت في حالة يُرثى لها، أحسستُ باليأس والحزن حيالها، وبالعجز أيضًا عن جعل حياتها أفضل، صليتُ لله وابتهلتُ أن يساعدها.

أنجبتْ «ماساكو» صبيًا بعد شهر، وأسمَتْه «غانغ هو»، كانت ضعيفة وواهية بحيث عجزت عن إرضاعه، فكنا نعطيه ماء الأرز، لكنه لم يُجْدِ نفعًا، وسرعان ما تحوَّل بُرازه للَّون الأسود، فذهبنا به إلى العيادة، ووجدنا الطبيب رجلًا لطيفًا، لا يُشبه في شيء ذلك الذي لكمتُه، لكن لم يكن ثمّة شيء يمكنه فعله، قال: «أنا آسف جدًا، لكن ما عليكما سوى الانتظار لعله يتحسن من تلقاء نفسه».

حل الخريف، وبدأ الطقس يبرد، وصارت صرخات الطفل واهنة بحلول ذلك الوقت، ثم مات ذات ليلة، بعمر يُناهز ثلاثة أشهر فحسب، ولم تترُك شقيقتي في مِحْجَريها دمعة إلَّا استذرفتها، كانت تبكي حتى تُنهك تمامًا، ثم تنام، وعندما تفيق، تعاود العويل مجددًا.

قَمَطْتُ جثمان الرضيع وخرجت به في ظلام الليل، فأعقب خروجي رعدٌ ومطر غزير، كأنما الطبيعة تتجاوب معي، سِرتُ متجاوزًا قبر أمي، وتجاوزت مزرعة الفواكه، وتسلقت الجبل، حاملًا جثة الرضيع المثيرة للشفقة بين ذراعيَّ، انهمر المطر غزيرًا على جانب الجبل، جارفًا معه التربة والرمال.

ظللت أتعثر وأنزلق على الأرض المُوحِلة، وأخيرًا توقفت ووضعت الجثمان الصغير على الأرض، وبدأت الحفر بيديَّ العاريتين، حاولت ألا أفكر بأيّ شيء وأنا أحفر في الظلام، وكان جثمان الرضيع إلى جانبي يلوح لي كلما أضاء البرق، كم كان منظرًا مأساويًا مُروِّعًا.

نهضتُ وصِحتُ في الفراغ: «لماذا علينا تحمُّل هذه المعاناة؟ ما الذي اقترفناه لنستحق هذا؟»، وانثالت دموعٌ ساخنة على وجهي المُبْتَل.

دفنتُ الرضيع وعدتُ أدراجي هابطًا من الجبل، وأنا أجأر بالشكوى كالمعتوه.

بعد موت ابن أختي، ظللتُ أسأل نفسي السؤال عينه مرارًا وتَكرارًا: «لماذا كان يجب أن تموت أمي ويموت رضيع بريء؟ ما المغزى من حياة ليس فيها شيء سوى الألم؟» فمنذ قدومي إلى كوريا الشمالية، لم أختبر سوى القسوة والجوع واليأس، لم أعُد أُطيق رؤية الناس.

لذلك قررت أن أتوقف عن العمل في المزرعة التعاونية، وأن أصبح حارق فحم في أعماق الجبال، فبوصفي حارق فحم، سوف أتمكن من العمل وحدي تمامًا والعيش مثل ناسك، وبطبيعة الحال فكرت بابني وأبي وشقيقاتي، لكنني كنت في حالة نفسية مُزْرية، وخشيت أنَّ وجودي بينهم ربما يكون فكرة سيئة.

لم يكن لديّ الحق في اختيار عمل جديد بهذه البساطة، بالطبع كنت

بحاجة إلى تصريح، فإذا أراد المرء الانتقال إلى عمل آخر، فيجب عليه أن يُصدَر له من الحزب تصريح تغيير عمل، وتصريح نقل حصة الغذاء، وتصريح عسكري لتغيير العمل؛ لذا إذا توقف المرء عن العمل، يتضوّر جوعًا ببساطة. ثم مجددًا، كما في أي دولة شمولية، بعض الناس يخرجون عن النظام المجتمعي القائم، لكن إنْ فعل المرء هذا، فما أمامه سوى خيارين: إما أن يُصبح متسوِّلًا متشرِّدًا، أو قاطع طريق.

لكن كان ثَمّة منفذ في خِضَم كل هذه البيروقراطية، إذا قُرِّر أنَّ أحدهم لا يستحق المراقبة، يمكن أن يُتجاهَل تجاهلًا تامًّا، إذ يعتقد الحزب أنه لا يستحق العناء، وهذا ما انتهى بي المطاف إليه عندما تركتُ عملي المقرر عليَّ، لم يبدُ أنَّ الحزب يهتم بحياتي أو موتي، إذ لم أعد موجودًا بالنسبة إليهم.

يُعدُّ حرق الفحم، بمعايير معظم الناس، أحد أسوأ الأعمال على الإطلاق، عملٌ يمارسه أوضع الوضيعين، إذا اختار المرء أن يترك العمل سائقًا لجرار لِيصبح حارق فحم، فسيعدُّه الناس مجنونًا، لكن هذا كان يصبُّ في صالحي، فحالما سلَّمتُ طلبي لأن أصبح حارق فحم، قُبِل على الفور، سابقة! «حارق فحم! لا أحد يريد مزاولة هذا العمل!».

رضخ أبي وشقيقتي لقراري، بدا أنهما يدركان عجزهما عن ثنيي عن قراري مهما قالا لي، واستشعرا أنني بالكاد أتمالك نفسي؛ لذلك لم يحتَجَّا عندما طلبتُ منهما الاعتناء بابني الذي كان في السادسة عندئذٍ، كان يأتي من المدرسة كلّ يوم ويخبرني بكل الأشياء التي تعلّمها، ما قاله هذا وما فعله ذاك، وما إلى ذلك، مليءٌ بحس الأطفال بالتعجب. كانت عذوبته تُدمي قلبي، كما شعرتُ بالأسف لترْك زوجتي التي كانت لا

تزال تعتني بجدتها، لكن ما شدّد عزمي أنني لم أعُد بحاجة إلى التواصل مع أيّ أحد، سيكون هذا أفضل لي ولهم، أو هذا ما ظننتُه وقتذاك.

وفي صباح يوم مغادرتي، وقف أبي وشقيقتي معًا مرتبكين ليودّعاني والكآبة بادية عليهما، وعندما هممت بالمغادرة، قال ابني ببراءة: «ساعتني بجدّي وعمتي، أرجوك اكسب كثيرًا من المال».

أحسستُ بقلبي ينفطر وأنا أعانقه، ثم بدأتُ أسير مبتعدًا عنهم، ولم أنظر إلى الخلف، لعلمي بأنني إذا نظرتُ، فسأتشظّى.

سِرتُ من الصباح الباكر حتى الغروب، وضلَلْتُ طريقي بضع مرات، وفي النهاية وصلت إلى مركز العمل.

يتكون مركز العمل من ثلاثة أفران، وخيام للعمال يقيمون فيها، وثور للنقل، لم يكن هناك سوى سبعة أو ثمانية عمال، الأمر الذي كان يناسبني تمامًا، وجوههم جميعهم محفورة بتجاعيد غائرة، وكانت تجاعيدهم وندوبهم تحكي قصص مشاقّ حيواتهم.

بدأتُ العمل في اليوم التالي، وكما وُجِّهتُ، قطعتُ شجرة زانٍ وشذّبت فروعها، وقطعتها إلى قطع بطول عشرين بوصة، ثم أخذتها إلى الفرن، ملأت الفرن بالفروع المقطوعة، وأوقدت النار في المنتصف، وبعدما تأكدتُ من اشتعال النار، غطّيت مدخل الفرن بالتراب، وبعدها سرعان ما بدأ الدخان يتصاعد من المِدخنة. قيل لي إذا كان الدخان أصفر، فهذا يعني أنّ النار قوية، ويجب أن تكون مشتعلة ثلاثة أيام داخل الفرن، وعندما يتوقف الدخان عن التصاعد من المدخنة، عليَّ الانتظار ثلاثة أيام أخرى قبل استخراج الفحم، إذن تستغرق العملية بأكملها عمومًا قرابة أسبوع.

من المفترض أن يضطلع شخصان بهذا العمل، لكن في الواقع يقوم به شخص واحد، وكان هذا يناسبني تمامًا، عندما أصبحتْ دفعتي الأولى من الفحم مُهيأة، أزلتُ التراب من المدخل وزحفت إلى داخل الفرن، كانت المرة الأولى بالنسبة إليَّ؛ لذا أردت التحقق، دون وجود أحد بالجوار، مما إذا كانت ناجحة، وضعتُ مِنشفة مبتلَّة على فمي، لكنها سقطت داخل الفرن، فدخل الكثير من مسحوق الفحم إلى أنفي وفمي، وكان الفرن ساخنًا، وبدأت أنضح بالعرق، صُدِمت من سرعة استنزاف طاقتي، لكنني ملأتُ سلَّتي بالفحم وزحفتُ خارجًا.

بدا «كيم»، قائد المجموعة، قلقًا عندما خرجت، فحذرني قائلًا: «كن حذرًا! ثمة غاز سامّ بالداخل».

لم أكن أعرف هذا، لكن لم يكن من المعتاد أن يُعبِّر أحدهم عن رأيه جهارًا على هذا النحو، جميع مَن في مركز العمل أصحاب خلفيات مضطربة، ولا أحد يرغب في إجراء حوار، حتى بشأن أبسط الأشياء، كان الصمت هو القاعدة.

كانت وجَباتي تتكون من أرز الذرة الذي أجلبه كلّ يوم من المخيَّم الذي أعيش فيه، إضافة إلى بعض الأعشاب الجبلية التي أجمعها وأغليها، وكان الكحول على ما يبدو ضروريًّا لهذا العمل، ويعلم الله وحده إن كان هذا صحيحًا أم لا، لأنني لم أجد إطلاقًا أيّ دليل طبيّ يدعم هذه النظرية، لكن قيل لي إنني إذا لم أشرب الكحول، فسوف أعاني مرضًا رِئويًّا، لم أكن أشرب الكثير من قبل، لكنني بالطبع تعرفت على مذاقه بسرعة. إذا لم تشتمل حصص طعامنا على الكحول، تنفتح جميع أبواب الجحيم، وكان بعض العمال يهتفون: «لا كحول، لا عمل!»؛ لذا كان مخزون الكحول يظل ثابتًا على نحو لافت.

ظهر ناظرُ الغابة ذات يوم، بعدما انقضت قرابة ثلاثة أشهر من بدء العمل، قُطِعت بعض الأشجار دون تصريح، وكان خائفًا قليلًا؛ لذا طلب مني مرافقته في الدورية التي يقوم بها تلك الليلة، فانطلقنا بعد الغروب مباشرة، وبالطبع، صادَفْنا أناسًا يقطعون شجرة.

«لا تتحركوا! ابقوا في أماكنكم!»، صاح الناظر وهو يركض نحوهم بمصباحه اليدوي ذي الضوء الواهن، كان هناك قرابة ثمانية شبَّان مجتمعين حول الشجرة، توقعتُ أن يهربوا، لكنهم لم يفعلوا، بل حدث العكس في الواقع، التفتوا إلى الناظر وشرَعوا في ضربه، فقفزتُ للمساعدة، وفي النهاية، صرعتُ ثمانيتهم.

وبعد ذلك صِرتُ حديث القرية المجاورة، وصاروا يلقبونني بـ «المصارع»، ليس تمامًا «النمر» مثل أبي، لكنني لم أمانع.

ظهر شرطي بعد بضعة أيام، وطلب بصمات أصابعي، لم أصدِّق! أقرُّ بأنني تماديت قليلًا، لكنني كنت أساعد الناظر، ولم أعتدِ عليهم، أمسكت لساني حتى لا أورِّط نفسي في مزيد من المتاعب، كان بإمكاني تخمين ما قد حدث.. قدَّم اللصوص رشوة للناظر ليسمح لهم بقطع بضع أشجار هنا وهناك، وأوقع الناظر بي في فخ، أصبحتُ حارق فحم لأتجنب الأفَّاقين واللصوص الذين يتظاهرون بأنهم شرفاء في كوريا الشمالية، لكن ما من مفر.

تلقيت برقية من زوجتي عندما بدأتُ أعتاد العمل.. برقية موجزة: **«وُلِد صبيٌّ، 15 من إبريل، عُد سريعًا».**

جاشت عواطفي، وصار ذهني ضبابيًّا، مات رضيع «ماساكو»، وفقدتُ صوابي قليلًا وابتعدتُ لأعيش كناسك، وكانت حياتي الجديدة تناسبني تمامًا، لكن عندئذٍ ظهر طفل جديد في الصورة، فكان جزءٌ مني مبتهجًا بالخبر، لكن جزءًا آخر.. كان أقلّ ابتهاجًا.

سُرّ رئيسي في العمل أيّما سرور عندما قلت له الخبر، حتى إن مَن يراه يعتقد أنّ الطفل طفله، وأعطاني كيسًا كبيرًا من الأرز الغروي، وحبوب سمسم، وفاصوليا أزوكي، وكمية من الأرز العاديّ، جميعها من مخزون طعام الطوارئ.

قال: «يجب أن تذهب، أطيب أمنياتي لزوجتك!».

دُهشت، إذ لم أرَه يبتسم مجرد ابتسامة من قبل قط، ولم يكن يتحدث كثيرًا وكان مُتحفّظًا عمومًا، لكنه في ذلك اليوم كان في غاية اللطف. بدأت السير إلى المنزل، متفاجئًا ومشوشًا، لكنني سعيد بفكرة حمل هذه الهدايا الثمينة إلى زوجتي.

وصلتُ إلى منزل زوجتي في اليوم الثامن عشر من الشهر، كانت زوجتي نائمة وابني المولود حديثًا ينام إلى جوارها، وعندما استيقظتْ كانت سعيدة برؤيتي لدرجة أنها أجهشت بالبكاء.

قالت: «لم أعتقد أنك ستأتي».

كنتُ مبتعدًا أكثر من ستة أشهر، وظنّت أنني هجرتُها للأبد.

وُلد الطفل في يوم ميلاد «كيم إيل سونغ»، الأمر الذي لم يكن فألًا حسنًا بالنسبة إليّ، ليس لأنه كان سيّئ الحظ بمولده في يوم ميلاد ذلك الرجل التافه فحسب، لكن أيضًا لأنه تاريخ احتراق منزلنا الأول عام 1964. من ناحية أخرى، كان الموعد السنوي لتوزيع حصص الطعام؛ لذا ربما لا يكون الأمر شرًّا كله.

أخبرتني زوجتي بقصة ميلاد الطفل، تلقّت هي وشقيقها قليلًا من الأرز الغروي على شرف عيد ميلاد زعيمنا، وكانوا قد طَهَوه بالبخار ودَقّوه من أجل إعداد كعك الأرز، وهو تَرَف نادر، وعندئذٍ جاءها المخاض.

قطعتْ القصة وتوقفت مُحرَجةً هنيهة، وقالت: «آسفة سمَّيتُ الطفل ميونغ هوا، أردت مناقشة الاسم معك، لكنني ظننت أنك لن تعود».

قلتُ متفاجئًا: «لكن في البرقية.. قلتِ إنه صبي».

نظرتْ زوجتي إليّ معتذرة: «كلُّ ما في الأمر أنني ظننت.. إذا قلتُ لك إنها بنت.. لن تعود لرؤيتها».

- لا تكوني سخيفة! صَبِي.. بنت.. كلاهما رائع.

كنتُ في غاية السرور، ودَقَقْتُ بعض الأرز الغروي المطهو بالبخار، وأضفت قليلًا من فاصوليا أزوكي الحلوة، وأعددت تحلية مميزة، ودَعَونا بعض الجيران للاحتفال بالميلاد.

رؤية طفلتِي وهي تنام بسَكِينة جعلتني عازمًا على الكدِّ في العمل أكثر مما سبق، لكن الواقع ألقى عليَّ بثقله في وقت متأخر من تلك الليلة، لديَّ زوجة.. والآن طفلان، ومهما كَدَدَت في عملي، فسأظل فقيرًا دومًا، لن يُسمح لي أبدًا بتحسين حياتي، مهما بذلتُ من جهد، وسيواجِه أطفالي حياةً تطفح بالمعاناة بصرف النظر عما أفعله.

استيقظتُ في الصباح التالي وقد هويتُ مِن ذُرى حماستي الساذجة، ومجددًا وجدتُ نفسي في خِضم إحساس التفاهة، ولاحظتْ زوجتي التغيير الذي اعتراني، لكنها لم تقل شيئًا.

قررتُ زيارة أبي وشقيقتي وابنِي.

ابتهج «هو تشول» برؤيتي، وطفق يتبعني أينما ذهبت، ولمْ يرغب في أن يتركني أغيب عن أنظاره دقيقة واحدة، هكذا هم الأطفال، يُذيبون القلب بابتسامة. رأى أبي الطفلة «ميونغ هوا»، ولم تسَعْه الفرحة بها، وكانت «ماساكو» موجودة، ولا تزال تبدو مفجوعة، تعمل في مصنع عصير فواكه في «دونغ تشونغ ري»، لكن لم يبدُ أنَّ العمل حسَّن حالتها

العقلية كثيرًا، كانت عودتي رائعة في بادئ الأمر، لكن سرعان ما عاودني إحساس اليأس، لم يسعفني سوى التفكير بأنه إذا حلّت فاجعة أخرى بعائلتي، فلن أتمكن من الاحتمال.

قررتُ الخروج من المنزل والتّمشّي في نواحي القرية، فصادفت بعض المعارف القدامى، الذين لطالما كانوا يحتقرونني، لكن الغريب أنهم شعروا برغبة في تجاذب أطراف الحديث، وأخبروني عن امرأة جديدة ظهرت في القرية، كانت -على ما يبدو- «عائدة» ثرية، نُفِيت أخيرًا من «هامهونغ»، عاشت حياة مترَفة للغاية في «هامهونغ»، وتجاوزت بعض خطوط الشرطة السرية الحمراء، ومن بين جميع الأماكن نُفيتْ إلى قريتنا، كان الطبيعي أن يُزَجّ بها في معسكر اعتقال؛ ولذلك ظن الناس أنها لا بد أن تكون قد قدَّمت رشوة لأحدهم.

استمعتُ دون كثير اهتمام واستأنفتُ السير، وبعد بضع دقائق، بلغتُ نهر القرية الصغير، فها هي ذي، تلك المرأة الغامضة، كانت في غاية النظافة والأناقة، مشَيت نحوها وعرَّفت بنفسي، ففي النهاية، كلانا عائدٌ، ألقَتْ نحوي نظرة خاطفة، ثم تجاهلَتني مُتعمِّدة، كان من الواضح أنني غير موجود بالنسبة إليها، وسارت بجانبي ساهية، شبح آخر في أرض الأموات.

وعندئذٍ قررتُ العودة إلى الفرن، إلى عالم الصمت والعمل الشاقّ، العودة إلى قطع الأشجار والفروع، وحمْلها على كاهلي وإقحامها في الفرن، ثم الشراب من أجل تبديد آلام ظهري وقلبي، كل ما في الأمر أنني أردت أن أفعل شيئًا صادقًا ونقيًّا، شيئًا لا أُوبَّخ عليه. لكن بطريقةٍ ما، حتى عندما عدت إلى حياة التنسُّك، لم أستطِع صرف تفكيري عن تلك «العائدة» التي تجاهلتني، كان من الغباء إطالة التفكير في ذلك الموقف، فمِن بين جميع الإهانات التي رَزَحْتُ تحت وطأتها طوال حياتي، لم تكن

إهانتها هي الأسوأ، لكنني عجزت عن صرف تفكيري عنها، فهي قد أمعَنَت في تجاهلي إمعانًا، وتصرفتْ كأنني غير موجود إطلاقًا، حتى وأنا أقف أمامها مباشرة، بدت تلك اللحظة كأنها تلخيص لوجودي بأكمله؛ كنتُ لا شيء.. دون اللاشيء، ومهما كان ما أفعله، لا يعدو كونه إهدارًا للوقت، وإهدارًا للجهد.

ذات صباح وأنا أقطع شجرة، خطر لي فجأة، سُحقًا لهذا! ضع حدًّا للأمر فحسب! لن يكون ألم الموت شيئًا مقارنة بهذا الجحيم على الأرض.

أخذتُ حبلًا -حيثُ لا يوجد نقص في الحبال في عمل حرق الفحم- وعلَّقته على فرع شجرة، وعقدت أنشوطة، وكان تحت الشجرة حجر بالارتفاع المناسب للقفز منه، فتأكدت منه وصعدت عليه، ثم نظرتُ إلى النهر الذي ينساب أمامي مندفعًا، غير مبالٍ بالمستقبل، ولسببٍ ما، انهمرت الدموع من عينيَّ.

جذبتُ الأنشوطة فوق رأسي، وأخذت نفسًا عميقًا.. قفزت.

تمايل الفرع فوقي بعنف، وتأرجح جسدي، ورحت أتأرجح باضطراب، لكن الأمر كان كما لو أنني انسلخت عن جسدي وأخذت أنظر إلى تشنُّجاتي من الأعلى، كنت لا أزال أحسّ، ولا أزال أرى، ولا أزال أتنفس، لكن بالكاد.

الحقيقة هي أنني أفسدتُ انتحاري، حتى انتحاري لم أنجزه كما ينبغي. عَلِقَتِ الأنشوطة حول ذقني، ولم تلتفّ حول عنقي؛ لذا لم تُطْبِق على شرياني السُباتي. كنت قادرًا على التنفس تنفسًا خفيفًا، لكنه مؤلم ومجهد، وكان جسدي، أو شيءٌ ما في دماغي، لا أدري، يجاهد يائسًا من أجل النجاة، انسابت دموع الألم والإحباط على خديّ، وسال اللعاب من فمي.

ثم سمعت صيحة من خلفي، كان «شين»، أحد زملائي من حارقي الفحم.

سمعته يركض، وفجأة أقحم رأسه في مُنْفَرَجي، ورفعني على كتفيه وأخرج الأنشوطة من رأسي، ثم تهالك، وسقط كلانا على الأرض.

كنت لا أزال أختنق وأتلوَّى، وأحسست بموجة من الإحباط والكرْب لعجزي عن قتل نفسي، ورحتُ أخمش الأرض لاعنًا نفسي. كنت أبكي، وكان «شين» يبكي، وصاح بي من بين دموعه: «لماذا تفعل شيئًا فظيعًا كهذا؟!».

وُلِدتُ مجددًا.

لا بد أنَّ «شين» أخبر رئيسي، لأنه قال لي تلك الليلة: «ما الذي كنت تفكر به بحق السماء؟ إذا متَّ، فما الذي سيحدث لعائلتك؟ إن كان أطفالك لا يعنون لك شيئًا إطلاقًا، لا يجدر بكَ التخلِّي عن الأمل هكذا!».

أجهشتُ بالبكاء، ولم أستطع التوقف.. ظللت أنشج فحسب.

قلتُ: «أظنني قُدِّر لي مواصلة البكاء».

فضحك.. لكن بلطف.

ثم عاقَرْنا الشراب حتى وقت متأخر من تلك الليلة.

انقضت قرابة سنة، ثم تلقيتُ ذات يوم برقيّة من زوجتي، تخبرني بأنها صار أخيرًا بإمكانها مغادرة منزل جدتها، فقررتُ أنه حان وقت العودة، وطلبت من رئيسي الإذن، فكان في غاية التعاطف، أحسستُ كأنني عائد من رحلة تطهيرية من نوعٍ ما.

ودَّعَني جميع الرجال يوم مغادرتي، كانوا جميعهم صموتين لكنهم طيبون جدًّا، اجتاحتْنِي عاصفة من العواطف المتباينة، كان أولئك الرجال أكثرَ مَن قابلتهم نزاهةً منذ مدة طويلة، كنا نعيش في صمت

متبادل متَّفق عليه، في عالَمٍ بدا بطريقةٍ ما منقطعًا عن واقع الحياة اليومية، لكن لديَّ عائلة عليَّ الاعتناء بها، أحسستُ ببَذْرة أمل صغيرة تضرب بجذورها في دواخلي، كنتُ مستعدًّا للرحيل.

عدتُ إلى منزل أبي في «دونغ تشونغ ري»، وجاءت زوجتي وطفلتي الرضيعة للعيش معنا، صرنا ثمانية في المنزل: شقيقتي «ماساكو»، وابنَيْ زوجها، وابنِي، وزوجتي، وابنتي، وأبي، وأنا.. ثمانية! وكان أبي هو الوحيد الذي يعمل، حيث لم تُقرَّر وظيفتي الجديدة بعد، كان مِن المستحيل أن نتدبر أمورنا.

كنا في أوائل الثمانينيات، وتردَّى الوضع الغذائي من سيِّئ إلى أسوأ، وكان الشِّعار الذي يُردَّد في كل مكان هو «الشيوعية تَعني الأرز!»، عمال المزارع والطلاب يعملون معًا من أجل تمهيد حقول الأرز المُدرَّجة على جوانب الجبال، لكن عندما حل موسم الأمطار، جُرفت معظم الحقول نظرًا للتخطيط السيِّئ، وحتى الحقول التي نجت لم تكن في حالة جيدة بما يكفي لزراعة أيِّ شيء كما ينبغي. آه، وكنا لا يزال علينا أن نغرس الشُّتول قريبًا جدًّا من بعضها؛ لذا في النهاية تتزاحم الشتلات ولا تنتج محصولًا جيدًا، ورغم أننا كنا نعلم بهذا، إلا أنه كان علينا جميعًا اتباع نظام جوتشي المثير للسخرية، وإذا لم تُحقِّق مزرعةٌ هدفَ الحصاد الموضوع لها، يتلاعب مدير المزرعة بالحسابات حتى يبدو أنَّ الهدف حُقِّق فعلًا، لكن رغمًا عن التقارير والحسابات المزعومة، فإن الإنتاج لم يكذب، إذ كانت حصص الغذاء التي تُوزَّع كلَّ خريف يتقلَّص حجمها على الدوام.

سألتُ سيدة عجوزًا تعيش قرب النهر مع ابنٍ لها معاق عقليًّا، عما إذا كان بإمكان أُسْرَتي أن تعيش في إحدى الغرف بمنزلها، فوافقَتْ. وفي مطلع السنة الجديدة، غادرنا أنا وزوجتي وطفلاي الاثنان منزل أبي،

حيث لا أزال عاطلًا عن العمل، ولم أستطِع العثور على عمل مهما حاولتُ جاهدًا؛ لذا كنا نقتات على أعشاب الجبل والأسماك من النهر.

أردتُ بشدة بناء منزل لأُسرتي، فاستعرت بعض الأدوات وعربة ثور من المزرعة، كان الثلج يتساقط غزيرًا، لكنني لم أُعد قادرًا على الاحتمال، وانطلقتُ إلى الجبل، وفي الغابة كانت الثلوج تبلغ خصري في بعض الأماكن، ومجرد السير فيها كان عناءً لا يطاق. وعندما وجدت شجرة صنوبر بِقُطْر ثماني بُوصات.. قطعتُها، وربطتها إلى عربة الثور، وجررتها هابطًا الجبل، وفعلت الأمر نفسه مرارًا وتكرارًا، كان عملًا منهكًا.

لم يكن لديّ ما آكله سوى بعض أرز الذرة المجمَّد الذي حصلت عليه من أبي، وكنت متى ما شعرت بالعطش أُقحِم حَفنة من الثلج في فمي، كنت أتعرَّق تعرقًا غزيرًا كلما صعدت الجبل لأقطع شجرة، ثم أرتجف طوال طريقي للأسفل، وبحلول الوقت الذي صار فيه لديّ ما يكفي من الأشجار، بات بنطال عملي المهترئ مجمّدًا بالعرق والثلج، وعندما أمشي يُصدر خشخشة وينثر بِلَّورات ثلج صغيرة على الأرض.

قشَّرت لحاء الأشجار بِمنْجل وكوَّمت جميع الجذوع على مقربة من المكان الذي أعتزم بناء المنزل فيه، وقطعتُ الأشجار إلى أجزاء بالطول المناسب، ثم جمعت بعض الصخور التي قرب النهر، وجرَرْتها بالعربة من أجل الأساسات، وبعد وضع صخور الأساسات، نَصَبت الأعمدة، واستخدمت الطين والصلصال لصنع لصوقٍ من نوعٍ ما. إذا كنتُ أحد أصحاب الشأن في الحزب، لَتمكنتُ من الحصول على بعض الأسمنت، وهذا بالطبع لم يكن خِيارًا متاحًا بالنسبة إليَّ.

مزجتُ اللصوق بيديَّ العاريتين ووضعته على الجذوع، كانت راحتا يديَّ تنزفان؛ لذا أُضيفَ دمي أيضًا إلى المزيج، وأشعلت نارًا لأدَفِّئ يديَّ

حتى أتمكن من مواصلة العمل، لكن جلدي كان يتقشر عن راحة يديّ، وتلسعني الحرارة، كان الأمر بِرُمّته مرهقًا، لكنني تابعت العمل فحسب، يومًا تلو يوم، وأسبوعًا في إثر أسبوع.

شارف بناء المنزل على الانتهاء بعد خمسة أشهر، بنيتُ سقفًا مقوّسًا وغطيته بحصيرة قشٍ صنعَتْها زوجتي، كان أقرب إلى كوخ أكثر من كونه منزلًا لائقًا، لكنه على الأقل سيوفر لنا مأوى من المطر. وبعدما تأملت البناء قليلًا، التفتُّ إلى زوجتي قائلًا: «اتضح أنَّ شعار «السرعة فوق كلّ شيء» لم يكن سيّئًا في هذه الحالة».

«السرعة فوق كلّ شيء!» أجابت ضاحكة، كان أحد الشعارات التي تلوكُها الألسن في كل مكان آنذاك.

عندما انتقلنا إلى المنزل، كان «هو تشول» في السابعة من عمره، و«ميونغ هوا» في الثانية، لم يكن لدينا سوى صندوق تفاح ومقلاة أعطانا إياها أبي، وبما أنني لم أعد عامل مزرعة، لم أكن مخوَّلًا بالحصول على حصة طعام؛ لذا في كلّ يوم كنت أذهب إلى مزرعة القرية وأسرق فجل «دايكون»، وكان الطبق الذي نُعِدُّه منه بسيطًا، نُقَطِّع الفجل بما فيه الأوراق، ونمزجه ببضع حبيبات من الأرز الذي نتمكن من جمعه، ونضيف كمية من الماء لعمل سخينة أرز، بيد أنها لم تكن سخينة أرز حقًّا، لأنه لا تتبقى حبة أرز واحدة عندما نغرف الشيء المريع، لكن رغم أننا كنا نعيش فقرًا مدقعًا، كانت أول مرة يلتئم فيها شملي بأسرتي الخاصة، وبطريقةٍ ما، اعتقدتُ أنَّ بإمكاننا النجاة، إذن سخينة «الأرز» كانت طعامنا كل يوم. لم أشعر بالذنب حيال سرقة الأرز، ما الخِيار الذي كان متاحًا أمامي؟ زوجتي بحاجة إلى الأكل لتُرضِع طفلتنا، وابني يجب أن يأكل، وكذلك أنا، كانت ببساطة مسألة إبقاء على حياتنا.

بدأتُ أتخذ موقفًا لا مباليًا إزاء كل شيء، قلت لزوجتي: «حتى إذا تمكنتُ من إيجاد عمل، فلن نتمكن من إطعام أنفسنا كما ينبغي»، قررتُ أننا ينبغي أن نعيش مستقلّين، وألّا نعتمد على الحكومة، وبحلول الربيع التالي، كنا نعيش على الهندباء البرية والسرخس وحبق الراعي، كنا نغليها مع عجينة مصنوعة من جوز البلوط، وجوز البلوط هذا سام، لكن ماذا عسانا أن نفعل، وكان مذاق هذا الطبق الملفّق مُرًّا، تتخدّر منه ألسنتنا بعد أكله، لكنّ له مذاقًا على الأقل، وهو أفضل من عدمه.

وفي الصيف كنتُ أسرق الكثير من الخوخ، واستمتعنا بتناوله سعداء، وكذلك كنت أسرق التفاح والبطاطس، لم أكن وحدي؛ فكثير من الناس كانوا يسرقون، أظن أنَّ الشرطة استسلمت.

كان بعض الطعام الذي نأكله فاسدًا، كما كنا نتناول بعض الأعشاب السامة، وغالبًا ما كنا نعاني آلام بطن مُمِضَّة، لكن لم يكن ثَمّة شيء يمكننا فعله حيالها.

استمرَّت هذه الحياة قرابة عام، إلى أن قالت زوجتي ذات يوم إنها قلِقَة على جدتها، وبعد ذلك صارت تعودها بانتظام، وغالبًا ما تعود بكيس من الأرز، وتقول لي إنَّ جدتها أعطته لها، لكنني كنت أعلم أنَّ جدتها ليست مُوسِرة، كما لاحظت أنَّ زوجتي تبدو واهنة كلما عادت إلى منزلنا.

وفي النهاية، لم يسعْنِي سوى سؤالها عن كيفية حصولها على الأرز.

لم تقل شيئًا في بادئ الأمر، لكنني ألححتُ عليها حتى اعترفتْ بالحقيقة. فعلى ما يبدو، عندما تقول إنها ذاهبة إلى منزل جدتها، تذهب في الواقع إلى مركز نقل دم في «هامهونغ»، كانت تبيع دمَها لشراء الأرز.

لم أملك سوى التحديق إلى السماء.

دعوني أخبركم بما كنا ندرسه في المدرسة بكوريا الشمالية: «لا يستطيع الناس في كوريا الجنوبية العيش إلا بالسرقة، وبيع دمائهم».

يا للسخرية!

في يونيو من 1982، كانت زوجتي في الشهر الأخير من حمْلِها الثاني، ولم تأكل سوى القليل طيلة شهور، لا شيء سوى الأعشاب المعتادة والنباتات البرية، كنتُ أراها تتلوَّى من تقلصات المعدة مرات عديدة، لكنها بطريقةٍ ما بلغت هذه المرحلة، وكانت على وشك الولادة.

كنا مُعدَمين؛ لذا لم يكن بمستطاعي اصطحابها إلى عيادة، وكنتُ يائسًا لِأجد لها بعض الطعام المُغذِّي -أعشاب بحرٍ للحساء ولحم خنزير وأرز للاحتفال بالميلاد- لكن هذه الأشياء كانت بعيدة المنال، وتمكنتُ بطريقةٍ ما من الحصول على بعض البيض وكيس أرز وبعض أوراق فجل «دايكون». أردتُ الاعتناء بزوجتي أفضل عناية، لكن هذا كان أفضل ما يمكنني فعله.

جاءها المخاض صبيحة الرابع من يونيو، وقلتُ لها إننا ينبغي لنا أن نذهب إلى المستشفى، لكنها أصرَّت على الولادة في المنزل.

لاحظتُ أنَّ جبهتها رطِبَة بالعرق، فكنتُ بحاجة إلى منشفة ناعمة، لكن لم يكن لديَّ سوى غيار ملابس داخلية واحد، ولدى زوجتي اثنان فحسب، ولم أجد سوى خِرْقة بالية.

بدأتْ تتأوَّه بصوت أعلى وأنا أغلي الماء، فركتُ لها ظهرها، لكن دون فائدة تُذكر، وتأكَّلني القلق بمرور الساعات.

سألتها: «هل أستدعي قابلة؟».

- أظن أنَّ الطفل سيأتي قريبًا؛ لذا ابقَ معي فحسب.

ظلّت تكرر كلامها هذا ولم تستجِب لأيٍّ من اقتراحاتي، وأنا لم أرغب في تركها، أرسلتُ الطفلين ليذهبا إلى منزل أبي، فقد سار إليه «هو نشول» بنفسه عدة مرات، وظننتُ أنه من الأفضل أن يكونا هناك.

كانت الغرفة لاهبة الحر، مع وجود الماء الذي يغلي، وكنتُ أتصبَّب عرقًا، لا أستطيع تخيُّل كيف كان الوضع بالنسبة إلى زوجتي، كانت تشدُّ وتتلوَّى، لكن الطفل لم يخرج، ودون أن أشعر.. غربت الشمس.

تشبثتْ بي وبدأتْ تشدُّ، وكانت كلما شدّت؛ تفقد كثيرًا من الدماء، وكلانا كان مُلطّخًا بها، كانت ترتعد من الألم المستمر، وتخور قواها بمرور كل لحظة، صببتُ بيضة نيْئة في فمها؛ لأمنحها بعض الطاقة، لكنها لم تُجْدِ كثيرًا، وبحلول الساعة العاشرة من تلك الليلة، كانت لا تزال تنزف وشبه غائبة عن الوعي.

هتفتُ: «هيا يا ملاكي! عليك الاستيقاظ، نحن بحاجة إليك، نحن بحاجة إلى هذا الطفل، لا تتخلَّي عنا الآن!».

تشبثتْ بي، وكانت تفقد وعيها تارةً وتستعيده تارةً أخرى، وأنشبتْ أظفارها في راحة يدي، مزيدٌ من الدماء، انقضت ساعة أخرى، وابيضَّ وجهها وشَحَب، اختفى العرق من جبهتها، وبدَتْ كجثة، وصارت أنفاسها قصيرة وواهنة، ومن ثَم فتحتْ عينيها فجأة ونظرت إليَّ، لن أنسى تلك النظرة ما حييت.

ارتسمتْ على وجهها تعابير غريبة، هي مزيج من الصدمة والبهجة.

نظرتُ للأسفل، فرأيت رأس الطفل يخرج.

شهقَتْ «كيم» من الألم المُبَرِّح.

صِحتُ: «إنك تبلين بلاءً حسنًا! الطفل يخرج! دفعة أخرى فحسب! يمكنك فعلها!».

لكن وجه الطفل كان يتحوَّل للأزرق، لم تكن لديَّ فكرة عما أفعله، لكنني وضعتُ أصابعي حول عنق الطفل وحاولت تسهيل خروج الجسد الصغير.

صرخَتْ زوجتي صراخًا عاليًا، وبَدَت كأنها غير قادرة على التحمل لحظة أخرى، فاكتويتُ بالشعور بالذنب والخزي، لم أقدر على توفير حياة لائقة لها، لكنني ما كنت لِأتركها تموت هي وطفلها.

وأنا أجثو على ركبتيَّ هناك، لا أدري ما أفعله، ومحاولًا إبقاء زوجتي وطفلي على قيد الحياة، ظللتُ أسمع أصوات أولئك الأوغاد من الجمعية عندما كنا في اليابان، جنة على الأرض.. سوف تكونون سعداء هناك.. متحررين من الفقر أخيرًا.. مستقلِّين. وقلت لنفسي: لماذا نموت قهرًا في هذا المكان الذي هو قطعة من الجحيم؟ انس ذلك! لن ندع أولئك الأوغاد ينتصرون.

همستُ في أذن زوجتي: «إذا مُتِّ الآن، فسيضيع كلّ شيء هباءً، ابقي معي، ولنهزمهم جميعًا!».

بذلتْ زوجتي مجهودًا أخيرًا، وأطلقتْ صرخةً تُجمِّد الدماء في العروق، كأنها قادمة من أعماق الكون، ومن ثَمّ فوجئتُ بانزلاق الطفل للخارج بحركة رشيقة واحدة.

استلقت «كيم» على ظهرها، مُستنزَفةً تمامًا.

قطعتُ الحبل السريّ، وقمطتُ الطفل بخِرقة قديمة وجدتها، وانتظرته ليبدأ الصراخ، لكنه لم يصرخ.

صِحتُ: «اصرخ أرجوك! أرجوك!» فصرخ! أظن أنَّ صوتي العالي أفزعه.

وحالمّا سمعتْ زوجتي صراخ الطفل، غابتْ عن الوعي، فوضعتُ الطفل بجانبها وهُرِعت خارجًا من المنزل، كان أقرب جار لنا يعيش على بعد قرابة خمسمئة ياردة، فأسرعت إليه وطرقت الباب طرقًا عنيفًا، صُدمت المرأة التي تعيش في المنزل عندما رأتني مغطًى بالدماء، لكن ما إن أوضحتُ لها الوضع، هُرِعتْ للمساعدة، وعندما دخلتْ منزلنا، راعها المنظر وأجهشت بالبكاء.

قالت: «لم أرَ منظرًا حزينًا كهذا طوال حياتي!».

الدماء في كل مكان، والأرضية مغمورة بها، ولم نكن نسمع سوى صراخ الطفل.

طلبتُ من المرأة مراقبة زوجتي وطفلي ريثما أعدو إلى العيادة، خبطتُ الباب وأيقظت الطبيب، كان الرجل الذي أوسعتُه ضربًا قبل سنوات عديدة، لكنني ابتلعت كبريائي، وجثوتُ على أطرافي الأربعة وخفضت رأسي على الأرض.

توسلت قائلًا: «الوضع جدّ خطِر، زوجتي وطفلنا في خطر يهدد حياتهما، أرجو أن تأتي معي».

لم يقُل أيّ شيء، واستدار على عقبيه وعاد إلى داخل العيادة، فغاص قلبي، ربما كنتُ أعرف أنه سوف يصدُّني مجددًا.

لكن عندئذٍ سمعته يقول: «لنذهب».

خرج من العيادة وركضنا في الظلام إلى منزلي.

التفتَ إليّ مُرتاعًا عندما وصلنا، وقال: «عليكَ أن تدخلها المستشفى.. الآن».

حملتُها على ظهري إلى المستشفى، في حين بَقيَتِ الجارة مع الطفل. إذا حاول أيّ أحد أن يدير لي ظهره، أعتقد أنني كنت لأقتله، لكن

المشرفين رأوا خطورة الوضع، أو النظرة التي على عينيَّ، فسمحوا لي بالدخول، وأضْجَعْتُ زوجتي على سرير، بدأ ضوء الفجر يُبدِّد الظلام، وكان جناح المستشفى يواجه الشرق، وسرعان ما تدفقت أشعة الشمس عبر النوافذ، كنتُ قد شاهدت ضوء الفجر في الصباح السابق، لكن بدا لي أنَّ مليون سنة قد انقضت منذئذٍ.

أسميتُ الطفل «هو سون»، منحَتْه زوجتي هبة الحياة؛ لذا استشعرت أنَّ مهمتي هي الاعتناء بصحته، لكن زوجتي كانت تعاني سوءَ التغذية، ولم تكُن قادرة على إرضاع «هو سون»، وهي لا تزال تتعافى في المستشفى؛ لذا كان عليَّ أن أسأل في نواحي القرية عما إذا كان بإمكان إحداهن إرضاعه، تمامًا كما كنت أفعل عندما كان ابني الأول رضيعًا.

كنتُ أسأل يوميًّا في نواحي القرية، لكن الناس كانوا لا مبالين، وبطريقةٍ ما، لم أستطِع أن ألومهم، كان الوضع الغذائي بالغ السوء، أسوأ بكثير مما كان عليه عندما وُلد «هو تشول»، لم يبقَ في الناس مثقال ذرة من عطف، وكانوا هم أنفسهم يجاهدون في سبيل البقاء على قيد الحياة.

ورغم ذلك، واصلتُ التَّوسل نيابة عنه، لكنني لم أجِد أُذُنا مُصغية، حتى إنَّ بعضهم شتمني، لكن أسوأ لحظة كانت عندما قال لي أحدهم: «أتمازحني؟ أتعتقد أنني أكترث إذا عاش ابنك أو مات؟».

خرجتْ «كيم» من المستشفى بعد شهر، لكنها كانت لا تزال في حالة سيئة جدًّا، لم يكن بمقدورها إرضاع «هو سون» كما ينبغي؛ لذا كان يبكي طوال الوقت، وكان الكوخ المتهالك الذي بنيتُه في «هامهونغ» باردًا ويتعذَّر العيش فيه؛ لذا سألت أبي عما إذا كان بإمكان أُسْرَتي أن تقيم معه في «دونغ تشونغ ري»، ثم ابتلعتُ كبريائي وقدَّمت طلبًا للحزب المركزي، فمنذ أن دمَّر الحريق منزلنا الأول عام 1964، لم أقطن منزلًا مملوكًا للدولة، رغم أنه يُفتَرض أن تُوفِّر الحكومة منزلًا أو شقة

لجميع العمال، كان يوجد كثير من الناس يبحثون عن منازل، والمنازل المتوفرة قليلة جدًا بحيث إنَّ فرصهم في إيجاد منزل تكاد تكون معدومة، ما لم تكن لديهم صلات وثيقة بالحزب.

ورغمًا عن هذا.. حاولتُ، أوضحتُ في طلبي الذي قدَّمته أنني متزوج لكنني غير قادر على العيش مع زوجتي وأسرتي؛ لأنني أعمل بمكان بعيد عن منزلنا، وأنني بحاجة ماسة إلى مكان نعيش فيه، وكتبت الكثير من الهَذْر الذي على هذه الشاكلة، لم أعتقد أنَّ الأمر سيُحدِث فرقًا، لكن بعد ستة أشهر، جاء رجل من قسم الإسكان ليُقيِّم وضعي، وظننت في بادئ الأمر أنَّ لديّ فرصة، لكن كالعادة، سرعان ما ذهبتْ آمالي أدراج الرياح.

التفتَ الرجل إليَّ بعدما نظر في الأرجاء، وقال بصَلَف: «لقد قدمتَ الوثائق الصحيحة للحصول على مسكن، لكن لماذا لم تُسلِّمها إلى مكتب المقاطعات القروية؟ لماذا أرسلتَها إلى الحزب المركزي؟ لقد أهنتنا وأهدرتَ وقتي، ألا تعرف قدْرك؟ تأدَّب!».

تأدَّب؟ لم أصدق أذنيَّ، هل كان يحسبني طفلًا؟ لكن كان عليّ توخي الحذر، لم يكن بوسعي المخاطرة بإهانة الحزب، فاعتذرتُ بخنوع، وأحسست بتلك الموجة المألوفة من اليأس.

كنتُ عاجزًا عن توفير مأوًى لائق لأسرتي، ولن أتمكن من الاحتفاظ بعملي، ولن أتمكن أبدًا من عيش حياة كريمة. لكن بعد ذلك بوقت قصير، سمعتُ بالحاجة إلى سائق جرّار في مصنع الآلات الغابيَّة في «هامهونغ»، فقلت لهم إنني لديّ رخصة سائق، وبطريقةٍ ما، حصلت على العمل. تم ذلك بوجه غير رسمي، بما أنني -من الناحية الرسمية- غير موجود، لكنني لم أكترث.

«هامهونغ» مدينة صناعية يسودها تلوث مريع، المصنع الذي ذهبتُ للعمل فيه يشتمل على شقق للعمال، لكن ليس هناك شقة واحدة شاغرة، وحتى لو وُجدت شقة شاغرة ما كان هذا ليُحدث فرقًا، بما أن عملي خارج السجلات، فكيف لهم أن يتعاملوا مع أسْرتي في معاملاتهم الورقية؟

وبعدما بقينا مع أبي مدة في «دونغ تشونغ ري»، ذهبتْ زوجتي والأطفال الصغار ليعيشوا مع والديها في «هامجو»، وبقي «هو تشول» مع أبي، كرهتُ افتراقنا جميعًا، لكن لم تكن لدينا خِيارات أخرى، وبدا لي أنني مهما فعلت، دائمًا ما أخذُل أسْرتي.

قررت الاستيلاء -دون إذن- على غرفة بالمصنع في «هامهونغ»، وكنتُ عندما يحلّ وقت العشاء، أتحقق من عدم وجود أيّ أحد بالجوار، وآخذ بعض الوقود من الجرّار، وأستخدمه لطهي الأرز على موقدٍ زيتي. مبدأ جوتشي قيد العمل مجددًا.. الاستقلال، الاعتماد على الذات، الاكتفاء الذاتي، أبقوني على قيد الحياة، لكنها حياة بائسة، وأحيانًا كنت أنشِج كطفل من فرط الإحساس بالوحدة في الليل.

انقطعتْ الكهرباء في يوم خميس، وكان هذا حدثًا متكرّرًا، فأصبح الخميس يوم عطلة غير رسمية، وفي يوم الخميس هذا تحديدًا، كنت مستلقيًا على فراشي عندما بدأ أحدهم يطرق الباب طرقًا عنيفًا.

- هل أنت موجود؟

قفزتُ وفتحت الباب، فوجدته أحد زملائي الذين يعلمون بمخبئي، واتضح أنّ الشرطة كانت على اتصال بالمصنع، لأمرٍ له علاقة بـ «هو تشول».

ركضتُ إلى مركز الشرطة في «هامهونغ»، فوجدته يقتعد كرسيًا مطأطئًا رأسه، وحالما رآني، هُرِع إليَّ وعانقني.

كان في طريقه إلى المدرسة، لكن لسببٍ ما، رغِب بشدة في رؤيتي، فقفز على متن قطار دون شراء تذكرة، وعندما ترجَّل في «هامهونغ»، لم يعرف أين يجدني، فانتهى به المطاف هائمًا على وجهه دون هدف، ذكَّرني بنفسي في طفولتي عندما كنت أبحث عن أمي في «طوكيو»، اعتدى اللصوص عليه وجرَّدوه من حذائه وملابسه وتركوه طريحًا على الأرض شبه عارٍ.

لم يستطِع التوقف عن البكاء.

قلت: «لا تبكِ! أنت رجل! عليك أن تكون قويًّا!»، لكنني بداخلي كنت أتألَّم له.

أعطيته معطفي واصطحبته إلى منزل أبي في «دونغ تشونغ ري».

تعرَّفتُ على رجل يدير مصنع مصابيح كهربائية في «هامهونغ»، عرض عليّ أن أعمل معه سائقًا، خارج السجلات بالطبع، وقال إنني إذا قبِلتُ عرضه، يمكنه أن يتدبَّر لي مكانًا أعيش فيه، فانتقلت إلى المصنع في ذلك اليوم نفسه، وأقمت مع رجُلَين عازبين يعملان في المصنع، لم يكن المنزل الخاصّ بي، لكن بدا أنَّ الأحوال تتحسن، ووعدني المدير بأنه سوف يتدبّر لي منزلًا بحلول الشتاء التالي.

قال إنني «عامل استثنائي»، لا أعتقد أنني كنت استثنائيًّا إطلاقًا، بل مجرد عامل عاديّ، لكن هذا كان كافيًا. الأمر هو أنَّ الناس في كوريا الشمالية يمضون أوقاتًا طويلة في اجتماعات التفاكر، وحساب عدد ساعات عملهم، لدرجة أنهم لا يجدون الوقت للقيام بالعمل الفعلي، والنتيجة؟ الموادّ الخام لا تصل إلى المصانع، والكهرباء متذبذبة،

والمزارع تجتاحها الأعشاب، لكن ما دام الناس يحصلون على حصص طعامهم، فلا يكترثون، وبما أنَّ عملي كان خارج السجلات، لم يتعيَّن عليَّ حضور أيِّ اجتماعات تفاكر، ولم أكن مرغمًا على إهدار ساعات لا تُحصى بسبب البيروقراطية العقيمة؛ لذا كان بإمكاني أداء عملي على أتمّ وجه، أو على نحو طبيعي، عاملًا عاديًا متوسطَ الكفاءة.. حسبما أرى، لكنني كنت استثنائيًا في نظر المدير.

انقضى عام ونصف منذ انفصال أسرتي، لكنني كنت مسرورًا لاعتقادي بأنني قريبًا سأحصل على منزل في «هامهونغ»، حيث يمكن لي ولزوجتي ولأطفالنا أن نعيش معًا مجددًا، وبذلتُ كلّ ما بوسعي في العمل.

وبعد عدة أشهر، حان موعد توزيع حصص الكُرُنْب الصينيّ، إذ يتلقّى أيّ مكانِ عملٍ في الشتاء مخزونًا من الكُرُنب الصيني من أجل «معركة مخزون الشتاء»، ونظرًا لمدى صعوبة النجاة في الشتاء بكوريا الشمالية، كانت كلمة «معركة» هي التعبير المناسب.

إذا كان المرء مُهمًّا عند الحزب، فسيحصل على أكثر مما يحصل عليه الآخرون، لكن إذا كان عامل مصنع، فكمية الكُرُنب التي يحصل عليها تتوقف على حجم أُسْرته، وكان عملي هو أن أضع على الكُرُنب أسماء الذين سيذهب إليهم، أنهيتُ العمل بأسرع ما يمكن وذهبتُ إلى المكتب.

قلتُ للمدير: «قلتَ لي إنك ستتدبَّر لي منزلًا بحلول الشتاء، وها قد حلّ الشتاء».

قال: «قلتُ لك إنني سأفكر بالأمر فحسب، لم أقطع أيّ وعود».

سأفكر بالأمر؟ هذا ليس ما جعلني أعتقده في السابق.

بدا في غاية الحرج وعدم الارتياح، وراح يُدقق في أوراقه.

ظننتُ أنه من الأفضل ألا أبدأ شجارًا، واستدرتُ على عَقِبَيَّ لأسير مبتعدًا، لكن عندئذٍ لاحظتُ يديَّ الملطختين بالطين، اللتين اتسختا بتعبئة الكُرُنب الصيني، فالتفتُّ إليه شاعرًا بالحنَق فجأة، وسألته: «هل تستمتع بالتلاعب بالناس؟».

وأمسكتُ به من ياقته ورفعتُه فوق مكتبه، فحاول بعض العمال إيقافي، لكنني لم أستطِع السيطرة على غضبي، وسقط كلانا برأسه في الكُرُنب.

وفي اليوم التالي جاء المدير إليّ وقال بفظاظة: «استخدم الغرفة التي بجوار قسم التطوير».

كانت أفضل قليلًا من كوخ، وليس بها مطبخ، ودائمًا ما تَطِنُّ بهدير الآلات، ورغم هذا كنتُ سعيدًا بأن يكون لديَّ مسكن في «هامهونغ» يمكنني جَلْب أُسْرتي إليه؛ لذا بدأت تركيب مدفأة كورية تحت الأرضية، وصنعت موقد مطبخ كيفما اتفق.

وبعد بضعة أيام، صار المكان شبه صالح للسكن، فطلبتُ من زوجتي وأطفالي الثلاثة الانتقال. كان المكان صغيرًا يملؤه الضجيج، لكننا سنكون معًا على الأقل، وبحلول ذلك الوقت، تجاوز «هو تشول» سن المدرسة وكان يمضي أيامه بحثًا عن عمل، وكانت «ميونغ هوا» في المدرسة الثانوية الوسطى، و«هو سون» في الإعدادية.

كان المصنع يعيد تدوير القناني الزجاجية ويحولها إلى مصابيح ضوئية، لكن كانت بعض القناني ملوَّنة ولا يمكن إعادة تدويرها؛ لذا كنتُ آخذها معي إلى المنزل وأستخدمها ديكورًا للمكان، كنت أعدُّها كنزنا.

قرّر مصنعنا ومصنع آخر الاشتراك لتشييد مبنى سكنيّ من خمسة طوابق، وكنتُ أعلم بوجود مديرٍ ما للمشروع، لكنه ليس مهندسًا محترفًا، كنا قد سمعنا القصص.. تُشيَّدُ الشُقق، ويَحلّ الشتاء، وتتداعى المباني بحلول الربيع بسبب الأسمنت الرديء والدعامات الفولاذية الضعيفة ودرجات الحرارة التي تنخفض إلى ما دون الصفر بكثير، وعندما سمعتُ بمشروع البناء هذا ومديره المحتال، كان من الطبيعي أن تساورني الشكوك، لكنني مع ذلك كنت أحسد الذين سيعيشون في الشقق، لم أكن أعرف مَن سيُختار، لكنني كنت أعلم أنني لن أكون منهم.

بيْد أنَّ معجزةً وقعت، تمكّن أحد معارفي، بطريقةٍ ما، من حجز شقة لائقة لنا، فسُعِدنا أيّما سعادة بحسن حظنا.

ثم حالفَنا الحظ مرة أخرى، بَحَثَ عَنّي أحد المديرين في المصنع الآخر، وقال لي: «أعتقد أننا يمكننا مساعدة بعضنا، ثَمة عمل أريد إنجازه، ولا يمكنني أن أدفع لك مقابله، لكن إذا كنتَ على استعداد لقبوله، يمكنني مساعدتك في تجهيز شقتك».

أوْفى المدير بوعده، وركّب موقدًا كوريًّا تحت الأرضية، وجاء بباب لائق، وأحضر بعض قطع الأثاث.

كانت شقتنا في الطابق الرابع، ولدينا حمام ومطبخ لائق، وهذا تَرَفٌ لا يُصدَّق، كانت أول مرة أعيش في منزل عاديّ منذ احتراق منزل أُسْرتنا، وكانت أول مرة يحظى أطفالي بمنزلهم الخاصّ بهم.

وبحلول الثمانينيات، تغيرت الأحوال فعلًا للأفضل بالنسبة إلى العائدين، صار العائدون يتلقَون المال بانتظام من أقاربهم في اليابان، حتى إنَّ قلَّة مختارة منهم تمكنوا من زيارة أقاربهم، قِلة مختارة.. تذكروا. كانوا يُسمَّون «وفود الوطن الأم»، ولم أتمكن قط من معرفة أيّ وطنٍ أمٍّ يُشار إليه، أو كيفية اختيار هؤلاء الناس، ولم يُسمَح لعائلة

بأكملها بأن تزور اليابان. بالطبع، مَن قد يعود إلى كوريا الشمالية إن كان جميع أحبابه معه؟ كان الذين يتمكنون من الذهاب للزيارة يعودون ومعهم عملات صعبة ومنتجات الحياة اليومية، التي كانت قمة التَّرف في كوريا الشمالية؛ بؤرة الجحيم، الغارقة في الفقر، ومع ازدياد ثراء العائدين، تغيَّر موقف الحزب تجاههم. كان العائدون، في سابق الأيام، إذا تفوهوا بكلام خاطئ مهما بلغت تفاهته، يُطهَّرون أو يُزجّ بهم في معسكرات الاعتقال، والآن صاروا يُعدّون عناصر قيِّمة؛ لذا بدأ الحزب معاملتهم معاملة أفضل، واتَّضح أنها خطوة ماكرة، إذ كانوا يُستغَلُّون كرهائن.

شهدت السوق السوداء أيضًا انتعاشًا، وبدا أنه كلما ازداد وضع بلدٍ ما سوءًا؛ ازدهرت فيها السوق السوداء. إذا كان المرء محظوظًا بتلقي المال من اليابان، فيمكنه الحصول على الأرز أو اللحم، سيُكلِّف عشرة أضعاف السعر الرسمي، لكن هذا لا يهُم في حال امتلاك العملات الأجنبية. بالأمس كان يقبع المرء في الحضيض منبوذًا في المجتمع، واليوم يستضيف أعضاء الحزب على العشاء، بالأمس لم يكن سوى «مُعادٍ» آخر، واليوم يُرحَّب به ضمن صفوة القوم.

لكننا لم نكن في وضع يمكِّننا من الاستمتاع بمثل هذا الحظ السعيد، قطع أقاربنا في اليابان علاقتهم بنا، وكان زملاؤنا العائدون يسخرون منا ويحتقروننا، وينأَون بأنفسهم عنا، لم أحتمل نفاقهم، كنت أمارس أيّ عمل يمكنني إيجاده لكسب عيشي، في حين أنهم يعيشون عالة على أقاربهم ويهنؤون بمكانتهم الجديدة غير المُستحَقة.

كان أطفالي كبارًا بما يكفي لِيَعوا التباين بين ما نملكه وما يملكه الآخرون، سألني أحدهم ذات يوم: «أبي، لماذا ليس لدينا أشياء جميلة؟ جميع العائدين الآخرين لديهم ثلاجات وتلفازات، ويتلقَّون جميع الأشياء

الجميلة من أقاربهم في اليابان، أظنك قلتَ إنَّ جدّنا فعل أشياء عظيمة في اليابان». وما فطر قلبي أكثر من أيّ شيء، كان عدم السماح لهم بممارسة «التايكوندو» مثل زملائهم؛ لأنهم لا يستطيعون شراء الأزياء المناسبة لهم؛ لذا كانوا يقعدون بعيدًا، في أقصى الصالة، ويشاهدون الأطفال الآخرين وهم يتدربون، لم يكن أطفالي حتى هم الذين أخبروني بهذا، سمعتُه من آباء زملائهم. كان «هو سول» و«ميونغ هوا» أدرَى من أن يطلبوا مني شراء أزياء لهم؛ لذا حاولوا أن يوفِّروا عليَّ ألم الإذلال بعدم ذكر الموضوع.

وجدت عملًا جديدًا في خريف 1984، هذه المرة في مركز توزيع غذاء، تُجمع فيه منتجات من مصانع عديدة، ثم تُؤخذ إلى نقاط التوصيل في كل مقاطعة، وكانت الأسعار التي تحددها الحكومة، هي نفسها في جميع نواحي البلاد، وتتوقف الكمية التي تُوصَّل على عدد السكان المحليين.

ألحقني أحد زملائي في المركز بالعمل في توزيع عجينة فول الصويا وصلصة الصويا، وكان أيّ عمل متصل بالطعام تذكرةً لحياة أفضل، فهو لا يمكِّنك من الحصول على الطعام لِأُسْرتك فحسب، بل يتيح لك أيضًا بناء علاقات مع أصحاب الشأن في الحزب، وإذا استغل المرء وضعه الاستغلال الصحيح وأرسل ما يكفي من الأشياء الثمينة إليهم، يمكنه الحصول على التلفازات أو الثلاجات أو أيّ منافع أخرى بالمقابل، أظن أن هذا ما يُسَمونه فسادًا في الغرب، لكن هذه هي طبيعة الأمور في كوريا الشمالية. فجأة صار بإمكاني الحصول على عجينة فول الصويا وصلصة الصويا، وكان يستحيل أن أُفوِّت مثل هذه الفرصة.

عندما كنت أُوصِل عجينة فول الصويا وصلصة الصويا إلى القرى المجاورة، لم يسعْني سوى ملاحظة مدى هزال وإنهاك المزارعين

المحليين، كانوا يبدون جميعهم ضامرين وجائعين، من المفترض أن تكون حصص طعامهم رطلًا ونصف الرطل في اليوم، لكنهم لا يحصلون إلا على نصف هذه الكمية تقريبًا، لم يساعدهم استدعاؤهم للدوام بعيدًا عن مزارعهم من أجل التدريب العسكري أو أيّ مشروعات أخرى، ولأنهم غير قادرين على الاعتناء بأرضهم، يَطَال الخراب كل شيء. كنتُ أرى مَزارع لا تُحصى قد اجتاحتها الأعشاب؛ ببساطة لأن المزارعين ليس لديهم وقت للاعتناء بها.

وفي هذا الوقت، حدث شقاق بين «هو تشول» وزوجتي، الأبناء المراهقون وزوجات آبائهم لا ينسجمون، ويبدو الأمر كأنه أحد قوانين الطبيعة، بلغ «هو تشول» مرحلة المراهقة وبات متقلّبًا، كما أصبحتْ زوجتي أكثر جفاءً وبُعدًا عن أطفالها، وبدت كأنها تنطوي على نفسها، عاد «هو تشول» إلى قريتي «دونغ تشونغ ري»؛ لِيعيش مع أبي لمدة، وطلبتُ من رئيسي في العمل أن يجِد له عملًا في منطقة «هامجو»، سواء كان عمل تخزين طعام أم أيّ عمل يُبعده عن كدح عمال المزارع الذي لا طائل منه، والذي سيكون خِياره الوحيد إذا بقي في «دونغ تشونغ ري». وبضربة حظ نادرة، تمكن رئيسي من إيجاد عمل لـ «هو تشول».

في عيد ميلاد «هو تشول» السابع عشر، في 25 من مارس 1989، كذبتُ على زوجتي قائلًا لها: إنني ذاهب إلى العمل، لكن عندما غادرتُ المنزل، أخذتُ معي بعض الخبز وذهبت لزيارة ابني، لم أكن قد رأيته منذ شهرين، وبدا أكثر نضجًا من ذي قبل. ذهبنا إلى النهر وتناولنا الغداء معًا، تقاسمنا أرز الذرة والخبز الذي جلبتُه، لم تكن وليمة عيد ميلاد بالمعنى المعروف، لكن طعمها كان جيدًا.

استمتعنا بتجاذب أطراف الحديث، لكن عندما بدأنا نتحدث عن الماضي وكل ما مررنا به، لم يسعْني سوى البكاء، فحاول مواساتي،

لكن انتهى به المطاف وهو يبكي أيضًا. لطالما كان طفلًا يتعاطف مع الآخرين، أحد القليلين في العالم الذين أحسستُ أنهم يفهمونني حقًا، حاولت أن أقدم له بعض النصح.

«اكبر وتزوج وتعلم أن تقف على قدميك وحدك، لأنني ليس لديّ أدنى فكرة عما سيحدث لي، وإذا مرضتَ أو احتجتَ إلى مساعدتي، فأخبرني فحسب، اتفقنا؟ سأفعل دومًا كل ما بوسعي فعله لك».

شددنا على أيدي بعضنا وافترقنا.

ولم تمضِ سوى أيام قليلة حتى استدعاني رجل شرطة، وزعم أنَّ ابني سرق شاةً، وأراد مني أن أدفع ثمنها، فذهبت إلى منزل ابني لأعرف ما حدث.

وعندما وجدته، رأيت الكدمات تغطي وجهه.

قال: «لم أفعل شيئًا خطأً، لقد أُلصِقتْ بي التهمة».

وأوضح لي أنَّه يوجد قرابة أربعين عامل في مكان عمله، وهو أصغرهم، وسرق بعض العمال الفاسدين بعض البطاطس والذرة الحلوة من سقيفة تخزين القرية، والأسوأ من هذا، قتلوا بعض الحيوانات الأليفة وأكلوها، ثم ألقوا باللائمة على ابني.

«قالوا لي: «أنت عائد وصغير السن؛ لذا سيعاملونك برأفة، فعليك تحمل مسؤولية كل شيء، اتفقنا؟» ولم أشعر بأن لديّ خِيارًا»، تهدج صوته.

ثم قال «هو تشول» لي إنهم أوسعوه ضربًا.

نظرتُ إلى ابني، وكنت أعرف أنه لم يقترف أيّ خطأ، رؤية كدماته مزقت نِياط قلبي.

قلت: «اسمع! عليك أن تكون قويًا وشجاعًا! عليك أن تتعلم كيف تخوض معاركك بنفسك إذا أردت النجاة».

غادرتُ شاعرًا بالقلق، وما إن وصلت إلى المنزل، بدأتِ الشرطة مضايقتي مجددًا، وزعموا أنني إذا لم أدفع التعويض، فسيُرسَل ابني إلى معسكر اعتقال، فشعرت بتقلُّص في معدتي، لا يمكنني قطعًا أن أدع هذا يحدث.

خطرت لي فكرة محاولة إلحاقه بالجيش بِعدِّه الملاذ الأخير، على الأقل سيبتعد عن فوضى ورطته الحالية؛ لذا ذهبت إلى مركز التجنيد المحلي وقلت إنَّ ابني متلهِّف للالتحاق بالجيش، حتى إنني قدمت لهم بعض عجينة فول الصُّويا وصلصة الصُّويا لتسهيل الصفقة.

رغم أنهم رفضوا في بادئ الأمر، لم أستسلم بسهولة، وكنت أعود إليهم يوميًا بعد العمل، كنت أعلم أنَّ فرص نجاحي ضئيلة، لكن ماذا لديَّ لأخسره؟ إذا لم يتمكن ابني من الالتحاق بالجيش، فسيُعتقَل.. ويختفي، كنت يائسًا.

وفي النهاية طردوني من مركز التجنيد شرّ طردة، إذن ذهبتْ آمالي، مرة أخرى، أدراج الرياح.

ذهبتُ في اليوم التالي لرؤية «هو تشول»، وكنتُ قد قررت اصطحابه معي إلى «هامهونغ»، وأخبرته عن محاولتي تسجيله في مركز التجنيد، لكن بلا جدوى، ستكون أفضل فرصة له هي الهرب بعيدًا لمدة والاختباء حتى ينسوا أمره.

كان بعض الشُّبَّان الذين يرتدون أزياءً عسكرية يقفون أمام المحطة، ونحن ننتظر صعودنا على متن القطار، كانوا مجنَّدِين جُددًا، يبتسمون ويمسكون أيدي آبائهم، ويبدون في غاية الاعتداد بأنفسهم، وبعضهم

كان يلتقط الصور التذكارية، فتخيَّلت الوصف المكتوب على الصورة: *يوم التحاق ابننا بالجيش*، ذكرى سعيدة.

بدأ ابني يبكي، لكنها لم تكن دموع فرح، ورؤيته يبكي أدمعت عينيَّ أيضًا.. «أرجوك لا تبكِ أنت أيضًا يا أبي! لقد فعلتَ الكثير جدًا من أجلي منذ مولدي، أعرف هذا، وأخبرَني أهل القرية أيضًا، لقد نجحتَ في اجتياز العديد من الأوقات العصيبة، وأعرف أنك بذلتَ كل ما بوسعك».

وعندها انهرتُ تمامًا، احتضنته ورحتُ أنشج نشيجًا عاليًا رغم أنَّ المحطة كانت تعُجُّ بالناس.

بدأ المجنَّدون الجُدد يسيرون بفخر على الرصيف، وخطرت لي فكرة فجأة؛ قلتُ لابني أن يركب القطار نفسه، ظننت أنه ربما يتمكن من الانضمام إليهم خُلسة وينتهي به المطاف بالتدريب معهم، كما ارتطمتُ باحتمال أنني لن أراه مجددًا أبدًا، أردتُ أن ألتقط معه صورة، لكن هذا كان مستحيلًا بالطبع.

أعطيتُه عشرة وونات، كانت كلّ ما لديّ.

قلتُ: «اعتنِ بنفسك، أعتقد أنَّ الشرطة ستنسى أمرك بعد مدة؛ لذا ابذل ما بوسعك حتى ذلك الحين».

- لا تقلق يا أبي، سوف أتواصل معك متى ما أمكنني، وقطعًا سأعود لأبحث عنك.

صعد على متن القطار، وأُغلقت الأبواب، وأُطلق صفير كئيب، ثم بدأ القطار يتحرك.

نظرت إلى ابني، لكنني لم أستطِع رؤيته بوضوح؛ إذ شوَّشت الدموع الساخنة رؤيتي.

ظللتُ أُلوِّح إلى أن غاب القطار عن الأنظار.

قلِقت من أنني ربما أفقد صوابي بعد مغادرة ابني؛ لذا سألت أبي وشقيقتي عمّا إذا كان بإمكاني القدوم والعيش معهم في «دونغ تشونغ ري». نظريًّا.. ليس من حق المواطنين التنقّل بحرية، لكن منذ خروجنا من النظام، صرنا قادرين على التنقل دون تدخل الشرطة، لم يكونوا يسعَون خلف أمثالنا إلا فيما ندر، وعادةً لا يُكلِّفون أنفسهم هذا العناء.

انتقلنا لنعيش مع أبي وشقيقتي «ماساكو»، وكنا نُلقَّب بـ «العائدين المُعدَمين». افتقد «هو سون» و«ميونغ هوا» شقيقهما الأكبر بشدة، كنت أعرف أنهما كانا قلِقَين عليه، رغم أنهما حاولا عدم إظهار قلقهما، لطالما كان «هو تشول» يعتني بهما كأب ثانٍ، منذ أن كانا رضيعين، ومن الواضح أنهما شعرا بوطأة غيابه، الأمر الذي فاقم ألم افتقادي له.

ذات يوم، عندما كان أبي وحده بالمنزل، طرق شابٌ الباب، فتعرّف أبي عليه على الفور، كان أحد مشاغبي الحي الذين يتسكعون في الشوارع.

قال لأبي: «بِعْ هذا لأحد العائدين الأثرياء! إذا بعته، يمكنك الاحتفاظ بجزء من الربح».

وماذا كان هذا الشيء العجيب الذي لوَّح به أمام وجه أبي؟ قضيب نقمة، لا أمزح، كان على ما يبدو شيئًا ذا قيمة عظيمة في الطبّ الصيني، كان يصعب الحصول على أيِّ نوع من العلاج في كوريا الشمالية؛ لذا فإن شيئًا كذلك قد يُدِرُّ مبلغًا كبيرًا. أقحم الصعلوكُ القضيبَ في يد أبي وركض مبتعدًا قبل أن يجيبه.

أحسَّ أبي بنُذُر مَتَاعب. كنا معروفين بفقرنا، ولا بد أنَّ الأوباش يعرفون هذا أيضًا، إذن ما الذي كانوا يأملون الحصول عليه منا؟ لماذا لم يبِعْه الصعلوك بنفسه؟ لماذا يفقد حصة من الربح؟ لكن في النهاية، فكّر أبي «إن كان بإمكاني جَنْيُ بعض المال منه...».

واتضح أنَّ هذا كان خطأً قاتلًا.

شرع في البحث عن مُشْتَرٍ، وقبل أن يدرك ما يحدث، خطف صعلوكٌ آخر منه القضيب، ورغم أنَّ أبي كان في الرابعة والسبعين من عمره، كان لا يزال لديه عقل شاب، فما الذي فعله؟ حاول مطاردة المعتدِي عليه، لكن ساقيه لم تعودا كسابق عهدهما.

صاح: «لص! لص! أوقفوا اللص!».

لم يعبأ به أيّ أحد، مثل هذه الأشياء تحدث طوال الوقت في كوريا الشمالية، فقدَ أبي أثَر الرجل وعاد أدراجه إلى المنزل.

وفي تلك الليلة، عاد الصعلوك الأول إلى منزلنا.

قال: «وجدتُ شخصًا يريد شراء قضيب الفقمة، أريد استعادته».

قلتُ له: «أتظنني وُلدتُ بالأمس؟ أتظنني لا أعرف الاحتيال؟».

- إذا تجرأتَ على اتهامي زورًا، فسأوسعك ضربًا حتى تُظلم الدنيا أمامك، أيها الحثالة.

قلتُ: «أتعرفُ أين يمكنك أن تُقحم قضيب الفقمة الخاصّ بك؟»، وصفعت الباب في وجهه.

غادر.. لكنه ظل يعود يومًا بعد يوم، وإذا لم أكن موجودًا، يضرب أبي وشقيقتي، ثم استدعت الشرطة أبي، وعندما عاد بعد منتصف الليل، كان وجهه مغطى بالكدمات، وداخل فمه مجروح، وشفتاه محتقنتان بالدماء.

أوسعه شرطيٌّ شابٌ ضربًا، ظل يسأله عن قضيب الفقمة، «أين هو أيها اللقيط؟ هذه هي كوريا الشمالية، عليك ألا تعبث مع القانون، هذا ما يحدث لك إذا عبثتَ مع القانون».

وهكذا استُؤنِف الضرب. في الماضي كان أبي معروفًا بقدرته على الدفاع عن نفسه، لكننا أصبحنا في زمان ومكان مختلفَين، ما من شيء كان يمكنه قوله أو فعله، كنتُ عاجزًا أيضًا، وفي غاية الغضب من استغلال ذلك الصعلوك له بهذه الطريقة، لكنني كنت أعرف أنَّ الشرطة لن تستمع إلينا أبدًا، لم تكن هناك طريقة لتفادي الفساد.

لم يَبْرَأ أبي تمام البُرء أبدًا من الضرب الوحشي الذي تعرض له، ومع اضمحلال قوَّته، ما فتئتُ أتخيَّله عندما كان سابقًا في اليابان، «النمر»، مفتول العضلات. وبحلول عام 1994، لم يعد قادرًا على الوقوف وحده، وكان يمضي معظم أيامه في الفراش، وسرعان ما لم يعد قادرًا على احتمال أكل أخفّ سخينة.

دعاني ذات يوم إلى جانب فراشه، وقال لي: «إنني أحتضر، لكن عليك أن تبقى على قيد الحياة، عليك أن تعود إلى اليابان، بطريقة أو بأخرى، يجب أن تعود، وعندما تعود، أخبر الجميع بأنني مُتُّ، أصدقائي القدامى سيساعدونك»، بكى أطفالي وراحوا ينادونه: «جدي! جدي!».

كنتُ يائسًا لأجد له بعض الدواء، لكن لم نكن نملك أيّ نقود، فتدهورت حالتُه سريعًا، وسرعان ما بات يجِد صعوبة في التنفس، وبعدها بوقت قصير توقف عن الكلام.

ذات مساء، استدعاني بإيماءة، وعندما دنَوْتُ منه، حاول أن يتكلم، لكنني لم أفهمه، وفي النهاية استوعبت أنه يريد المِعْزَقة الصغيرة التي كانت أمي تستخدمها لاستخراج جذور الخضراوات والأعشاب الجبلية، لم تكن لديّ فكرة عما يريده بها، لكن لا يستطيع المرء رفض طلب رجل يحتضر.

وحالما أعطيتها له، حاول إقحامها في حلقه.

فأبعدتُها عنه وصِحتُ: «ما الذي تفعله بحق الجحيم؟».

أشار إلى حلقه، الذي كان مسدودًا بالبلغم، ويُسبِّب له صعوبة في التنفس.

صارت أنفاسه قصيرة، وراح ابني وابنتي يفركان له ذراعيه وساقيه في محاولة لتحسين دورته الدموية.

وبعد مدة، شَخَصَ ببصره إليَّ فاتحًا عينيه على اتساعهما، لن أنسى تلك التحديقة أبدًا، وفتح فمه ليتكلم، لكن خارت قواه، ولم نسمع سوى صوت تنفسه الثقيل المجهد، ومن ثم أغمض عينيه.

راح يشخر عشرين دقيقة أو نحوها، وسمحْتُ لنفسي بالاعتقاد أنه ربما ينجو.

لكن عندئذٍ توقف شخيره، وحلّ الصمت على الغرفة.. الرجل الذي كان يُعرف بـ «النمر» مات.

دفنتُه على الجانب البعيد من الجبل في «دونغ تشونغ ري»، مواجهًا الجنوب نحو البحر؛ فهكذا يمكنه رؤية كوريا الجنوبية، موطنه الأم. كانت جنازته إجراءً روتينيًّا تَعُوزُه المشاعر في مكتب الإدارة بالمصنع الذي كان يعمل به. لم أكن أعلم مكان «إيبكو»؛ لذا لم أتمكن حتى من إخطارها بوفاة أبينا، أرسلت برقيّة لـ «هيفومي»، لكنها لم تصل في الموعد، كان لأبي أصدقاء كثيرون خلال حياته، وساعد العديد من الناس، لكنّ أحدًا منهم لم يكن موجودًا لتشييعه إلى مثواه الأخير.

ما زلت لا أعرف ما فعله أبي بحياته البائسة، ولن أعرف أبدًا، كان يعرِف أنَّ الجمعية خدعته، لكنه لم يتذمر بهذا الشأن كثيرًا، هل كان يشعر بوطنية زائفة في خضم كل ما حدث؟ لن أعرف أبدًا. أحببته، بالطبع، لكن توجد أشياء متعلقة به لن أفهمها ما حييت.

وفي وقتٍ ما -بعد الوفاة- قالت «ماساكو» لي ولزوجتي إنها وجدتْ عملًا، وانتقلت من المنزل مع ابنَي زوجها، لم أكن أعرف نوع العمل الذي يمكن أن تجده، نظرًا لندرة الوظائف، لكنها ربما غادرت ببساطة لعدم وجود ما يكفي من الطعام، فشعرتُ بالخَوَاء والوحدة بعد رحيلهم.

وبعد بضعة أسابيع، اقتحم ابنا زوجها منزلنا في منتصف الليل وهما يصرخان بهستيريا أنَّ أمهما تتعرض للضرب على يد مجموعة من الناس، فكان عليَّ فعل شيء.

قاداني عبر الشوارع المغطاة بالثلوج إلى المنزل الذي يقيمون فيه، ووجدتُ خمسة شبان يقعدون في غرفة حالكة الظلام، محيطين بشقيقتي.

كان أحدهم يحاول اعتراضي عند المدخل، وقال لي بصوت خافت جدًا: «هل أنت شقيقها؟ أقرضتُها عشرة آلاف وون، إذا عجزتَ عن تسديد المبلغ، فسأقتل الساقطة».

زعقتُ: «أيّ نوع من البشر أنت بحق الجحيم؟ أتضربها أمام طفليها؟ سوف تحصل على نقودك، سأنظر في الأمر، والآن اغرب عن وجهي قبل أن أدقَّ عنقك!».

تَردّد، وكنتُ أعرف أنه يُقيِّم قوتي، محاولًا تقرير ما إذا كان عليه ورفاقه أن يسعَوا خلفي أيضًا، لكنه ضمّ قبضتيه فحسب، واستدعى رجاله، وتلاشَوا.

كانت شقيقتي تنشج، وأجهش ابنَا زوجِها بالبكاء واحتضناها، حدقتُ مدققًا في أرجاء الغرفة، كان يصعُب رؤية الكثير في الظلام؛ إذ لا توجد كهرباء، لكن أمرًا واحدًا كان جليًّا، وهو عدم وجود قطعة أثاث واحدة فيها، كان من الواضح أنهم يقرفصون هناك، والعمل الذي تحدثَتْ عنه؟

من الواضح أنه كان كذبة، لا عمل يعني لا حصة طعام، وكلّ ما كان يمكنها فعله من أجل البقاء على قيد الحياة هو اقتراض المال.

لكنّ عشرة آلاف وون! لم تكن تعادل سوى ثمانين دولارًا أو نحوها، لكنه رقم فلكي بالنسبة إليَّ، حتى إذا كانت لديّ وظيفة لائقة، فسأستغرق عدة سنوات لأدَّخر هذا المبلغ، ما الذي فعلَتْه بكل هذه الأموال؟

حاولتُ اقتراض بعض المال لمساعدتها، لكن بلا جدوى، سألتُ أيّ شخص يمكنني التفكير به: عائدين، مديري المصنع، وحتى الذين كانوا يحتقرونني سابقًا، لكن الجميع كانوا يجاهدون في سبيل النجاة بأنفسهم.

قررت في النهاية زيارة «رو جيغو آن» الذي ارتدْتُ معه المدرسة الكورية نفسها في «يوكوهاما»، وكان أثْرَى «عائد» في «هامهونغ»، لم أعتقد حقًّا أنه قد يتذكّرني، لكنه كان ملاذي الأخير؛ لذا بحثت عنه.

وعندما وصلتُ إلى منزله، رحت أحدق فقط إلى مقبض الباب الذي كان صقيلًا لدرجة أنني رأيت انعكاسي على سطحه اللامع، ووجدتني أمسح يديَّ ببنطال عملي وأرتِّب هندامي، كأن هذا قد يُحدِث فرقًا! وعندما نظرت إلى حذائي، رأيت إصبعَيَّ الكبيرين يخرجان منه، وكان قميصي المهترئ تنقصه بعض الأزرار، أحسست فجأة بالخزي من نفسي، لكن لم يكن أمامي خِيار، أخذت نفَسًا عميقًا وطرقت الباب.

«مَن الطارق؟» ثم فُتِح الباب، وظهر وجه رجل، لديه وجه مستدير وخدّان متوردان، كان تجسيدًا للصحة الجيدة.

أقحمت نفسي بطريقةٍ ما في مدخل الباب حتى لا يصفع البابَ في وجهي.

«اسمي ماساجي إيشيكاوا، لا أفترض أنك تتذكرني، لكننا ارتدنا المدرسة نفسها، أعتقد أننا ربما تحدثنا مرة أو مرتين، وفي الواقع جئت لأطلب منك معروفًا».

بدا متشكِّكًا، وقال: «آسف، لا أتذكرك، لقد انقضى وقت طويل جدًا، على أيّ حال، يُستحسن أن تدخل».

كانت الزيارة بأكملها سريالية، لم أرَ قطُّ شيئًا يشبه منزله، تحركت عيناي من التلفاز إلى الهاتف وإلى الثريّا المتلألئة وإلى الأثاث الذي يليق بمَلكة، ثم إلى السجادة الباذخة، التي أحسست بها ناعمة تحت إصبعَيْ قدميَّ الكبيرين، وغرفة تلو غرفة تلو غرفة، بدا المكان كأنه يمتد إلى ما لا نهاية.. كنت أستوعب ما أراه بالكاد.

قعدتُ قبالته على الأريكة، وأحضرتْ زوجته كوبًا من الشاي ووضعته على منضدة منخفضة أمامي، أحنيتُ رأسي، كانت هناك حلوى تبدو باهظة على صينية فِضِّية صغيرة، لماذا أتذكر هذا بحق السماء؟ لا أدري، لكنني أتذكر أنني قلت له الحقيقة بشأن شقيقتي ومدى دقة الظروف التي أصبحنا فيها، وسألته إن كان بإمكانه إقراضي بعض المال، ووعدته بأن أردَّه له.

سعل مرة واحدة ثم صمتْ، فانتظرت محاولًا التفكير في كيفية ملء الصمت المؤلم.

وقال أخيرًا: «ارفع رأسك! لا تقعد منحنيًا هكذا!».

التفتَ إلى زوجته وطلب منها شيئًا بصوت خافت جدًا، ليست لديّ فكرة عما قاله، لكن زوجته بَدَت في غاية الامتعاض ولم تحاول إخفاء انزعاجها.

ثم وقعت معجزة.. ظهرت عشرة آلاف وون، تمامًا على المنضدة التي أمامي، لم أُصدِّق عينيَّ، بات بإمكاني تسديد دَيْن شقيقتي بأكمله! حبستُ دموعي وشكرت الرجل من أعماق قلبي بأفضل عبارات الشكر، لم أجد الكلمات، وشعرت بغصَّة في حلقي، كأنني أتنفس بالكاد، كنتُ مغمورًا بالشُكر والارتياح وأنا أغادر منزله الفخم.

لكن، كما هو الحال دائمًا، كنتُ متفائلًا أكثر من اللازم، بالطبع سددت دَيْن شقيقتي، لكن بعد بضعة أيام اختفت ببساطة، واتضح أنها اقترضت مالًا من أناسٍ آخرين أيضًا، ليست لديّ فكرة عن ما أنفقتْ عليه كلّ تلك الأموال، وسوف أظل أتساءل حتى يوم مماتي.

كنتُ أسمع شائعات من حين لآخر، رآهم أحدهم نائمين قرب المحطة، ثم رآهم آخر نائمين أمام منزل شخصٍ ما، ويقتاتون على الفتات الذي يمكنهم إيجاده في الشارع، وكنت أذهب لأبحث عنهم متى ما سمعت خبرًا عن مكان يُحتمَل وجودهم فيه، لكنني لم أعثر عليهم قط، ولم أرهم مجددًا.

الفصل الخامس

بدأ يوم 8 من يوليو 1994 كأيِّ يوم آخر، كانت السماء فوق «هامهونغ» مُدلهِمَّة بالضباب، وقد يُخيَّل للمرء أنَّ عاصفةً على وشك الهبوب، لكن الغيوم المائجة لم تكن في الواقع سوى سخام المصانع.

ذهبتُ إلى العمل كالمعتاد، وحوالي وقت الغداء، سمعنا صوت امرأة حادًا من سماعات المصنع، يعلن أنه ينبغي لنا الاستعداد لنشرة أخبار خاصة، لم أستطع تخيُّل ما الذي يمكن أن تكون هذه الأخبار.

كنت آخذ استراحة، واقفًا في ركنٍ وأدخن سيجارة، عندما بدأت موسيقى كئيبة تُدوِّي فجأة من السماعة التي فوق رأسي.

«ثمة أخبار مهمة جدًّا، ثمة أخبار مهمة جدًّا، اليوم رحل الزعيم العظيم الرفيق كيم إيل سونغ!».

رانَ صمت مفاجئ على المصنع، وتوقَّف أيّ شخص عما يفعله ووقف في مكانه مصعوقًا، لكن ليس لمدة طويلة، إذ سرعان ما انبعثت جلبة كبيرة في نواحي المكان، شرع أناسٌ في البكاء والنواح، في حين راح آخرون يضربون طاولات العمل والجدران.

انزلقتْ سيجارتي من بين أصابعي، وتدلَّى فكِّي، وصُدمت غاية الصدمة عندما وجدتُ نفسي أبكي أيضًا، ليست لديّ فكرة عن السبب، لكنّ الدموع الساخنة انهمرت على خدَّيّ.. هل كانت الصدمة؟ أم الخوف؟

أم الارتياح؟ أحسست بمزيج غريب من المشاعر التي لم أستطِع سَبْر غَوْرها إلى يومنا هذا.

كنتُ قد أمضيت أكثر من ثلاثين عامًا في هذه «الجنة على الأرض» التي خلقها «كيم إيل سونغ»، وعومِلت معاملة أفضل قليلًا من معاملة الحيوان، وأبقيت على حياتي بالكاد في أسفل قاع المجتمع، حتى إنني في مرحلةٍ ما حاولت إنهاء حياتي لأهرب من وجودي البائس هنا.. فلماذا كنت أبكي؟

هل كانت دعاية الدولة ناجحة جزئيًا؟ فمنذ انتقالي إلى كوريا الشمالية، لم أحسَّ بأنني حيّ حقًّا، ثَمّة جزء مني فُصِل وأُخْرِس، وبعد مدة، أحسست أنَّ ذلك الجزء اعتراه الذبول كما يضمر أحد أطراف الجسم من قِلّة الاستخدام، تأملتُ الإرهاب الذي سيطر على حياتي: المراقبة الدائمة، عدم الاستقلال، الخوف من التعبير عن رأيي، العجز والقنوط، استحالة تحسين حياتي، اقتحم حُكم «كيم إيل سونغ» القائم على الوعيد جميعَ مناحي حياتي، كأنه حَرْبة على بُعد بوصات من حلقي.

ظللت أقول: «فليحيا كيم إيل سونغ!» لأكثر من ثلاثين سنة -دون أن أعني ما أقوله بالطبع- لكن هأنذا أبكي. هل حقّق غسيل الدماغ الهدف المرجوّ منه؟ أم أنني كنتُ أتفاعل مع الهستيريا الجماعية فحسب؟ كان الذين من حولي مفجوعين تمامًا، وظلوا ينوحون: «كيف سنعيش بعد الآن؟».

تعلَّق أطفالي بي وبكَوا عندما عدتُ إلى المنزل، وانتحبتْ زوجتي أيضًا، لا أدري ما إذا كان أيٌّ من البكاء سببه الحزن، أو ما إذا كان كلُّه نابعًا من الخوف.. ما الذي سيحدث لنا الآن؟

وفي اليوم الذي تلا موته، اندفع الناس أفواجًا إلى تمثاله البرونزي ووضعوا أمامه الزهور، واستضافت دور السينما والمنشآت الثقافية

تجمعات لإحياء ذكراه، وقد كان الحضور إجباريًا. الشرطة السريّة في كل مكان؛ لتتأكد من حضور الجميع، لكن هذا لم يكن ضروريًا؛ كان الجميع متلهفين للحضور، ولمشاركة مشاعرهم مع الآخرين، وللإحساس بأنهم جزء من شيء أكبر معنًى وأعظم من حيواتهم التي يُرثى لها.

مات «كيم إيل سونغ» عشيَّة ما كان يُفتَرض أن يكون أول اجتماع قمة بين الشمال والجنوب، كانت قيادة الحزب تهذي من التفاؤل بشأن القمة، زاعمين أنَّ توحيد الشمال والجنوب قريبًا سيصبح واقعًا، وأنَّ مصاعبنا الحالية ستنتهي.

لكن مشكلة الدعاية أنها تُناقض نفسها باستمرار، قيل لنا إنَّ انهيار الزراعة وهلاك الاقتصاد يتحمل مسؤوليته بالكامل الأمريكيون الإمبرياليون الذين يُقَسِّمون شبه الجزيرة الكورية إلى دولتين، وإذا أمكن توحيد الشمال والجنوب، فسينجلي خطر الجوع.

لكن هذا ليس معقولًا، هبْ أنَّ مشكلاتنا سببها الأمريكيون الإمبرياليون وحدهم، فلماذا لا يجوع الكوريون الجنوبيون أيضًا؟ وفوق هذا، قبل بضعة أيام، ألم يقولوا لنا إنهم يتضورون جوعًا أيضًا؟ وفي الحالة هذه، كيف للتوحيد أن ينقذنا؟

ومع مرور الوقت، بدأ جميع عمال المصنع يطرحون السؤال نفسه: كيف يُفترض أن نعيش الآن وقد مات الزعيم العظيم؟ لا أعتقد أنَّ الدّافع وراء السؤال هو الحزن، بل الخوف الذي كان باديًا على وجوههم، كانوا مرعوبين، كما ينبغي لهم أن يكونوا، فقد كان خطر الجوع يحيق بنا جميعًا، ولننسَ المراسم الفخمة للاحتفال بتنصيب «كيم جونغ إيل» بعدِّه الزعيم الجديد.

وحالمَا تسلّم «كيم جونغ إيل» زمام السلطة، بدأ الناس يتبرَّمون منه، ولاموه على الوضع الغذائي المتدهور، كانوا ممتعضين منه سِرًّا،

ويقولون إنه لم يصبح زعيمًا للبلاد إلا بسبب أبيه.. وهذا صحيح، عندما كان «كيم إيل سونغ» على قيد الحياة، كانت آلة الدعاية تعمل بطاقتها القصوى، «كيم إيل سونغ» الزعيم العظيم -عليه السلام- حرر الناس من نِيْر الطغيان، بمفرده تقريبًا، فلماذا لا يثقون به ويحترمونه؟ أُعْلِنَ عام 1992: «هذا هو عام الزراعة، وعلى الأمة أن تحقق حلم الشعب الذي استمرّ قرنًا من الزمان بأكل الأرز الأبيض وحساء اللحم، وارتداء الملابس الحريرية، والعيش في منازل مسقوفة بالبلاط».

كانت المشكلة هي أنني سمعت كلّ هذا من قبل.. الخطاب نفسه، قبل مدة طويلة في 1961، بعد انتقالي إلى كوريا الشمالية بمدة قصيرة، الخطاب الأبله نفسه! والإفراط في مديح النفس عينه، لكن «كيم إيل سونغ» لم يوفِّ بأيٍّ من وعوده قط.. ولا واحد منها، وَعَدنا بـــ «الجنة على الأرض» وبدلًا منها أَوْدَعنا في نقيضها.

عندما أفكر بكلّ الناس الذين طهَّرهم، وكلّ الناس الذين جوَّعهم، وكلّ المعاناة التي تسبّب فيها، آمل أن يرتبط اسمه بالعار والخزي وسوء السمعة.

لم أعرف شيئًا سوى الجوع منذ أن وطِئتْ قدماي أرض كوريا الشمالية قبل أكثر من ثلاثين سنة، ولِعقود كان الجميع على بعد خطوة من الموت جوعًا، لكن الأوضاع اتخذت منحىً أسوأ بدءًا من عام 1991، فمنذ ذاك العام وحتى موت «كيم إيل سونغ» عام 1994، تسبَّب الطقس شديد البرودة بإلحاق أضرار فادحة بالإمداد الغذائي الهشّ.

بموجب نظام التوزيع الغذائي، كان العمال المنتظمون مخوَّلين بالحصول على رطل ونصف الرطل من الحبوب يوميًّا، ولسببٍ منحرفٍ ما، قُرِّر للمزارعين أقلّ من هذه الكمية، وقد كانت الكمية الفعلية، حتى

بالنسبة إلى العمال المنتظمين، هي رطل واحد، 70 في المئة منه مجرد نشا، وغنيٌّ عن القول أنّ أعضاء الحزب كانوا يتلقّون حصصًا أكبر بكثير. يُفترض أن تُوزَّع الحصص مرتين شهريًا، لكن بدءًا من 1991، صارت تتأخر على الدوام، وفي النهاية، كان علينا أن نُبقي على حيواتنا لمدة نصف شهر معتمدين على طعام ثلاثة أيام، وكان حتميًا أن يزداد الوضع سوءًا: اجتاح الناس مراكز توزيع الغذاء واندلع العنف خارجًا عن السيطرة.

بدأ الحزب يُصدر مزيدًا من الشعارات، ومزيدًا من الدعاية، ولم يسعني سوى التساؤل: من أين يأتون بالورق الذي يستخدمونه في الملصقات، وعما إذا كان بإمكاني أكله، وما الذي كانت تقوله لنا كل هذه الملصقات؟ كانت تقدم لنا نصائح بشأن بدائل حصص الغذاء المعروفة. «اجعلوا من جذور الأرز مسحوقًا وتناولوه! إنه غنيٌّ بالبروتين! تحتوي المَرْنطة على كثير من النشا! إذا أكلتم وبقيتم على قيد الحياة، يمكننا قطعًا أن ننتصر!»، معلومات لا فائدة منها، جميعها مكتوبة بعلامات التعجُّب الهستيرية المعتادة. وبحلول ذلك الوقت، كنا ننبش الأرض منذ دهور بحثًا عن أيّ شيء صالح للأكل: جوز البلوط، وحبق الراعي، ولحاء أشجار الصنوبر، كانت أشياء مريعة، يمكن استخدام اللحاء لإعداد شيء يشبه كعك الأرز.. كان شيئًا بغيضًا، كان الناس يأكلونه بدافع اليأس في نهاية الحقبة الاستعمارية، ومجددًا بُعيد الحرب الكورية، ومرة أخرى في الأوقات التي لا يملك الناس فيها خِيارًا، أوقات مثل التي وجدنا أنفسنا فيها.

إليكم طريقة إعدادها: أولًا اسلق لحاء الصنوبر لأطول مدة ممكنة للتخلص من جميع السموم، (كثير من الناس كانوا يتسرعون في هذه المرحلة وماتوا موتًا أليمًا)، ثم أضِف بعض النشا، واطهُ الخليط

الشيطاني بالبخار، ثم دعه يبرد، واصنع منه كعكات وتناوله. يبدو الوصف أسهل من الفعل؛ إذ يُصدِر زيت الصنوبر رائحة نتنة تجعل أكله يكاد أن يكون مستحيلًا، لكن إذا رغب المرء في العيش، فعليه ازدراده.

وعندئذٍ يبدأ المرح الحقيقي، نُصاب بآلام بطن مُمِضَّة تجعلنا نجثو على الأرض، وبإمساكٍ لا يُصدَّق، وعندما يُصبح الألم لا يطاق -ما من طريقة لطيفة لقول هذا- على المرء أن يُقحم إصبعه في فتحه شرجه ويستخرج برازه الصلب.. آسف، لم تكونوا بحاجة إلى معرفة هذا، لكن يجب أن تعرفوا، إنها الطريقة الوحيدة لتوضيح مدى يأسنا.

توقف كل شيء بعد موت «كيم إيل سونغ»: الزراعة والصناعة وكل شيء، ما من موادّ خام من أيّ نوع تُوصَّل إلى المصانع، ولا يعمل التيار الكهربائي سوى ساعتين.. إذا كنا محظوظين، توقف الإنتاج تدريجيًا، وكان العمال يتهالكون على الأرضية أمام عينيَّ، وقد نال منهم الضعف والتعب.

أحيانًا كنا نتلقى إشعارًا رسميًا من الحزب، يمنحنا الإذن بزراعة أيّ مساحة أرض خالية يمكن أن نجدها؛ لذا كنا نحمل مَعَاوِلنا ونجد شريطًا من الأرض بجانب شارع أو مقابل مبنًى سكني، ونحرث التربة ونزرع الفاصوليا أو الكُرُنْب الصيني، وكان آخرون يُمهِّدون الأرض على جوانب الجبال ويحاولون زراعة الذرة الحلوة والبطاطس، لكنّ كلّ هذا كان إهدارًا للجهد؛ فقد كان من المستحيل إيجاد البذور، وحتى إذا تمكنًا من إيجاد بعضٍ منها وزراعتها، تُسرَق قبل وقت الحصاد، كانت المحاصيل تُنتَزَع وحجمها لم يتجاوز حجم الإبهام.

تخلَّى الأطفال عن الذهاب إلى المدرسة، وكنتُ أراهم يجولون بغير هدى في الشوارع مع الكبار، وهم يبحثون يائسين عن الطعام. ازداد «هو سون» و«ميونغ هوا» نحولًا، وصار وجهاهما غائرَين بحيث تبدو

أعينهما غير متناسبة تمامًا مع بقية قَسَماتهما، كنت أرغب في البكاء كلما نظرت إلى جسديهما الصغيرين، لكنني كنت أفتقر حتى إلى القوة التي تُمكِّنني من البكاء.

ازداد الوضع قسوة بمرور الأيام، كان الجَوْعى يَهيمون على وجوههم عاجزين، في حين يتمدد آخرون على الشوارع، وسرعان ما ظهرت الجُثث ممددة في العراء، دون أن يأخذها أحد، ومتروكة لتتعفن: نساء، أطفال، عجائز.

افتُتِحت السوق السوداء في العلن، ونُصِبت الأكشاك أمام مراكز الشرطة مباشرة، ولم تستطِع السلطات أن تفعل شيئًا حيالها، لا رجال الشرطة، ولا حتى الشرطة السريّة مرهوبة الجانب، لَانفتحت جميع أبواب الجحيم إذا حاولوا التدخل.

ولم تكن السوق السوداء ذات فائدة للذين لا يملكون العملات الصعبة، فإذا حاول أحدهم شراء شيء بالعملة المحلية، يرتفع السعر مئة ضعف ما لم يكُن لديه ساعة أو أيّ أدوات منزلية ليقايضها.

لم يكن بوسع أحد مثلي –بلا عملة صعبة ولا بضاعة ليبادلها– إلَّا أن يشتري سخينة الأرز من متجرٍ تَفِرُّ منه الصراصير، إما هذا، أو السير في الشوارع بغير هدى بأمل أن يلتقط بعضَ الفتات الذي سقط سهوًا من وغدٍ آخر غير محظوظ.

كان الخيار الآخر الوحيد هو السرقة، أسرع الحلول وأسهلها، وقد انتشرت انتشارًا واسعًا.

ومن التغييرات الكبيرة الأخرى في هذا الوقت، أنه صار من السهل التحرك في نواحي البلاد، ففي الماضي لم يكن المرء يستطيع الصعود على متن قطار دون وثائق سفر رسمية، لكن أصبح بالإمكان الذهاب

إلى أيِّ مكان في حال امتلاك تذكرة، الأمر الذي غالبًا ما يتضمَّن تقديم رشوة لشخصٍ ما.

لم يكن بمقدوري استغلال هذه الظروف المتغيرة، بما أنني كنت مُفْلِسًا، وقد توقف إنتاج المصنع الذي كنت أعمل فيه؛ لذا لم تكُن لديّ سلع لأقايضها.

بدأتُ مع أُسْرتي جمع نبتة اسمها «أومودي»، كنا نبحث عنها حتى يهبط الظلام، وعندئذٍ نجد أيدينا تنزف، وحالما نجمع كيسًا لا بأس به، نعود إلى المنزل ونُقشِّرها ونهرس لبّها ونسلقها، كان مذاقها مريعًا، لكننا كنا نأكل أيّ شيء لننجو.

كنت أشعر بالخزي من نفسي أحيانًا، وقلقتُ على «هو تشول» الذي لم تكُن لديّ فكرة عن مكانه، لكنني كنت أفكر به طوال الوقت. اعتذرت لأطفالي وزوجتي على حياتنا التعيسة، لطالما كان أطفالي لطفاء، ومفعمين بالأمل دومًا، كانوا يعلمون أنني أحبُّ التدخين متى ما وجدتُ سيجارة؛ لذا كانوا يلتقطون أعقاب السجائر ويعطونها لي، كنا على شفير الموت جوعًا، لكنّ روابط الحب الأسري ظلّت سليمة، الأمر الذي لم ينطبق على بعض الناس. سمعتُ قصصًا كثيرة عن عائلات تتناحر بسبب الطعام، حتى إنني سمعت شائعة عن رجل قتل زوجته وأكلها، وأنا متأكد أنها صحيحة، ومتأكد بالقدر نفسه أنَّه لم يكن وحده.

وبحلول صيف عام 1995، كنا في غاية الرّعب من أننا ربما نموت من الجوع، ثم وقعت الكارثة في أغسطس.. اجتاح فيضان مُدمِّر مقاطعة «بيونغان»، وهي منطقة مهمة لإنتاج الحبوب، وكان هذا يعني نهاية حصصنا من الحبوب، وعندما حلّ الخريف، بدأنا نجمع جوز البلوط بدافع اليأس، فبانعدام الحبوب، كان جوز البلوط هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُبلِّغنا الشتاء التالي؛ لذا جمعنا منه أكبر كمية ممكنة،

كنا نسلقه ونأكله مرة في اليوم، وبالنسبة إلينا -بعون الله- كان لذيذ المذاق، وبالفعل.. بلَّغَنا الشتاء.

بحلول ربيع عام 1996، أصبحتِ الأرض التي استصلحناها جوار شقتنا عديمة النفع، لم توجد شتول صغيرة لغرسها، وما من بذور، وما من مخصبات أيضًا، أُغلق المصنع، وبحلول هذا الوقت، مات كثيرون لدرجة أنني كنت أرى حشودًا من الأيتام يتجوَّلون دون هدى.

بلغ الوضع من السوء أننا بدأنا أكل أيّ أعشاب قديمة نعثر عليها، كنا نسلق تلك الأشياء المريعة دهورًا لنتخلص من قسوتها، لكن بلا جدوى، تحتفظ بطعمها الزَّنخ رغم كل شيء، وتُسبِّب لنا أعراضًا مروِّعة، تتورَّم أجسادنا ووجوهنا، ويتحول بَوْلنا للأحمر وحتى للأزرق، وجميعنا كنا نعاني الإسهال المزمن، ولا نتمكن حتى من المشي بهذه الحالة.

لم يكن أيّ أحد يفكر أو يتحدث بشأن أيّ شيء سوى الطعام، وعندما نتمكن من الحركة، نمضي كل وقتنا في بحث دؤوب عن أيّ شيء قابل للأكل ولو قليلًا، لم نكن سوى مجموعة أشباح نَهِمة، تتأرجح بين الحياة والموت.

لا أعرف عدد الذين تضوروا جوعًا حتى الموت، وكنا نسمع القصص طوال الوقت.

«ماذا عن تلك المرأة التي مات زوجها؟ ماتت أيضًا، ماتت وحيدة».

«لم أرَ فلانًا العجوز مؤخرًا، هل رأيتَه؟ أظنه لم ينجُ».

«وجدتُ امرأة مستلقية في الشارع، فتحققت منها، لكنها كانت باردة».

وسمعتُ قصصًا عن أكل لحوم البشر، وكان يُشاع أنه إذا كُشف أمر الذين يمارسون هذا الفعل، يُعدمون في مكان عام، لم أشهد إعدامًا

علنيًا بنفسي، لكنه لن يفاجئني إن رأيته. كل يوم كان أشبه بالعيش في كابوس. ربما يبدو كلامي فظيعًا، لكنني صرت منيعًا ضد الرعب الذي يسبِّبه مرأى جميع الناس الممددين في الشوارع، وأحيانًا لا أميِّز إن كانوا يحتضرون أم كانوا ميِّتين بالفعل، والأنكى أنني لم تكن لديَّ الطاقة لأكترث.

بدأ الناس يسألون أسئلة غريبة في الأماكن العامة، مثلًا: متى سيكون بمقدورهم أكل الأرز الأبيض وحساء اللحم؟ ما كان أيّ أحد ليطرح سؤالًا كهذا في الماضي، حتى سرًّا.

تذمر بعض الناس بشأن «كيم إيل سونغ» وما فعله بنا، لكن لا أحد تحدث عن تغيير النظام، إذ كانوا يخشَون الشرطة والشرطة السرية أيّما خشية. هل حاول أيّ أحد الإطاحة بالقيادة؟ لا، كانوا يَصْدَعون بما يؤمرون به حتى النهاية. ورغم كل شيء، فقد غُسِلت أدمغتهم منذ أن كانوا أطفال مدارس، كنا نُدرَّس أنَّ الولايات المتحدة ترتكب المجازر الدموية بحق إخواننا وأخواتنا في الجنوب، وأنَّ من واجبنا تحرير شعب كوريا الجنوبية، وأنَّ بلادهم يحتلُّها العدو: الولايات المتحدة.

لستُ متأكدًا من كيفية بقائي وأُسْرتي على قيد الحياة، كانت لدينا جميعًا العيون الغائرة نفسها والخدود المجوَّفة نفسها، وأجسادنا جلد وعظم، تَنْتَأ عظامنا لدرجة مؤلمة عندما نجلس أو نضَّجع، ونتألم حتى عندما ننام، ونستيقظ باستمرار.

عندما كنت أنظر إلى أُسْرتي، يخطر لي، يا إلهي! هل يجب أن نموت هكذا؟

صرتُ راغبًا عن جمع الأعشاب، كنا نموت على أيّ حال.. ما المغزى؟ أصبحتُ لا مباليًا إزاء الموت، لو أمكنني تحمُّل الألم والاستلقاء قليلًا، لانجرفتُ بعيدًا وما عُدت قط.

لكن كما هو الحال دائمًا، كلما أغمضت عينيَّ، أسمع صوت والدَيَّ، وكلماتهما الأخيرة، التي كنتُ مهووسًا بها.

قال أبي: بطريقةٍ ما.. بطريقةٍ ما.. عُد إلى اليابان! ارْوِ قصتنا!

خذ رمادي إلى اليابان وضعه في مقبرة والديَّ، تردد صوت أمي من خلال نشيجها.

ذات يوم في سبتمبر، والقمر يلُوح ويختفي بين الغيوم، والمنزل في «هامجو» غارق في الظلام لانقطاع الكهرباء، كنا جالسين بصمت، قابعين قرب الجدار، نُحدِّق إلى الظلام، كان ضوء القمر يسقط على زوجتي وأطفالي، وبدَت أجسادهم كأشجار في تلك الليلة الباردة.. أشجار ميتة.

عندما يتضوَّر المرء جوعًا حتى يبلغ شفير الموت، يفقد كل الدهون من شفتيه وأنفه، وحالما تختفي الشفتان، تصبح الأسنان بادية طوال الوقت، مثل كلب يُزمجر مُكشِّرًا عن أنيابه، ويتقلص الأنف إلى منخرين فحسب، أتمنى لو أنني لم أعرف هذه الأشياء، لكنني أعرفها.

وتحدثتُ أخيرًا.

«صرنا هياكل عظميّة، وإذا لم نفعل شيئًا حيال الأمر، فسنصبح في عداد الموتى قريبًا، عليَّ أن أعبر الحدود، وأريد أن تأتوا معي، لكن لا أعتقد أنكم تملكون القوة...» واتَتْني الفكرة هكذا ببساطة، ولم أفكر بها من قبل قط، لكن خطر لي فجأة أنه بما أنني سوف أموت على أيّ حال، فمن الأفضل أن أموت محاولًا العودة إلى اليابان، وإذا نجحتُ بمعجزةٍ ما، يمكنني إرسال المال إلى عائلتي.. يمكنني إنقاذهم.

أطرقتْ «ميونغ هوا» هنيهة، وقالت: «عليك أن تقرر يا أبي»، ثم أجهشت بالبكاء.

وقالت زوجتي: «سنكون بخير، وما دمنا على قيد الحياة، فسنجد بعضنا مجددًا».

نهضتُ في الحال وجمعت متاعي القليل، وكنت أعرف أنني إذا لم أغادر على الفور، فربما أغيِّر رأيي، فذهبت إلى الباب الأمامي، وقلت لهم: «إذا تمكنت من العودة إلى اليابان، بطريقةٍ أو بأخرى، فسأحضركم أيضًا، مهما تطلَّب الأمر».

حبستُ دموعي وانطلقت إلى محطة «هامجو»، كنت أعرف بوجود قطار ليليّ متجه إلى «هيسان» الواقعة بالقرب من الحدود، أحسست فجأة بالتحرر على نحو غريب، فقد تخطيت العتبة الخفيّة، ولن تعود حياتي كما كانت مجددًا أبدًا. تركتُ خلفي للتوّ كلّ شيء أعرفه وكلّ شخص أحبه، وما من مجال للعودة، إما الهرب، وإما الموت في سبيله.

لم يكن من السهل ركوب قطار إلى «بيونغيانغ» أو الحدود، إذ يجب الحصول على وثائق سفر خاصة، التي صار الحصول عليها أصعب من الماضي، فقد كان هناك أناس كثيرون جدًّا مثلي يحاولون الهرب إلى الصين.

وجدتُ أناسًا كثيرين يَروحون ويَجيئون عندما وصلتُ إلى المحطة، ويجري التحقق من بطاقات الهوية والتذاكر عند حاجز التذاكر.. ليس أمرًا جيدًا، ابتعدت عن المحطة قرابة مئتي ياردة وعبَرْت خط السكة الحديدية.

رأيتُ هناك سورًا عاليًا، كان من أجل منع الناس من عبور الرصيف، لكنني تمكنت من الانحشار وراء السور بقدر ما أمكنني من هدوء، ولا بد أنني علِقت بسلك شائك؛ لأن بنطال عملي تمزق، وكانت ركبتاي تنزفان، نظرت خلسة من وراء السور لأتفقد الوضع في الرصيف.

كثيرون ينتظرون القطار، وبعضهم ينامون على الأرض، وبعضهم يأكلون، يوجد رجال شرطة قليلون، وكثير من الجنود بالطبع، فقد كان الجيش أيضًا يستخدم المحطة.

لبثتُ مختبئًا ورحت أراقب لمدة بدت لي عدة ساعات، وفي النهاية، اصطفَّ الجنود، وتوقف قطار في المحطة، وحتى في الظلام، كنت أرى أنه قديم وصدئ، وكُلّ الزجاج قد سُرق من إطارات نوافذه.

كنت أحاول تحديد اللحظة المناسبة للقفز على القطار، هل ينبغي أن أصعد الآن؟ لا.. المخاطرة كبيرة، من الأفضل أن أنتظر حتى آخر لحظة ممكنة، لكن كيف لي أن أعرفها؟

كنت أرتجف بعصبية، ومَرّ الوقت بسرعة لدرجة أنني، قبل أن أدرك ما يحدث، رأيت القطار يتحرك، وأدركتُ أنه إما أن أغتنم الفرصة وإما أضيِّعها للأبد، انحنيت وركضت إلى القطار بأقصى سرعة يَسمح بها جسدي الواهن، كنت أعدو بكل ما لديّ من قوة، فاقدًا صوابي من الخوف وموقنًا بأن أحد الجنود سيطلق النار على ظهري.

مددتُ ذراعَيّ وأمسكت بالسُّلَّم الذي في نهاية المقطورة، لامستْ يداي القضيب المعدني، فطوَّقْتُه بأصابعي ورفعت نفسي بحركة قوية لدرجة أنني تشقلبت رأسًا على عقب داخل المقطورة.

وجدت نفسي مُمدَّدًا على المَمْشى الذي بين المقاعد، ووجهي للأعلى، منقطع الأنفاس، ومُستنزَفًا من مجهودي بحيث عجزت عن الحركة. كان المكان غارقًا في ظلام دامس، وما من ضوء على السقف الذي فوقي، وفي النهاية، استَويتُ جالسًا ونظرت فيما حولي، جميع المقاعد مشغولة، وبعض الناس يسيرون في الممشى، لكن بدا أنَّ لا أحد لاحظ وجودي. كثيرون كانوا يسافرون متسللين في تلك الأيام؛ لذا لا أظن أنَّ

ركوبي كان خطئًا جللًا، وأينما نظرتُ كانت رؤوس الناس تنخفض وترتفع من النعاس.

ثم خطر لي فجأة أنني نجحت، تمكنت فعلًا من الصعود على متن القطار، فاجتاحني إحساس الارتياح، ثم شعرت فجأة بالجوع، لم أتناول سوى قَصْعة حساء في ذلك الصباح؛ أيْ قبل ساعات عديدة، جلست مُسنِدًا ظهري إلى الباب الذي عند نهاية المقطورة وغفوت، ثم استشعرت بغتة ضوءًا قادمًا من المقطورة المجاورة، كان أحد المفتشين يتحقق من وثائق سفر الركاب بمصباح يدوي، فاستيقظتْ جميع حواسي دفعة واحدة.

ظللت جالسًا في الظلام ناظرًا أمامي في رعب، وتسارعتْ نبضات قلبي مجددًا، كنت أعرف أنها ستكون نهايتي -ونهاية أسرتي- إذا أُلقي القبض عليَّ، صار إبطاي باردين ودبِقَين بالعرق، إذا لم أفكر بشيء ما سريعًا، فسينتهي المطاف بكل أفراد أسرتي في معسكر اعتقال للأبد. أما أنا.. فسوف أُدان بالخيانة العظمى وأُعدَم.

ألقيتُ نظرة سريعة على ما حولي، والأدرينالين يُضَخُّ في عروقي، لكن لم يكن هناك مكان للاختباء، بدا كل شيء مُسربَلًا بالصمت، ولم أسمع سوى وجيف قلبي وصوت الريح.

لم يكن لديّ وقت للتردد.

قلتُ للركاب النائمين على المقعد الذي بجواري: «أستميحكم عذرًا.. آسف».

وبطريقةٍ ما، تمكنت من المرور بصعوبة بينهم وبلوغ النافذة.. النافذة التي بلا زجاج.

آه يا ملاكي يا لصّ الزجاج! لَكَم أريد معانقتك وتقبيلك الآن!

وضعتُ قدمَيَّ على إطار النافذة وتسلقت، ثم وقفت على إطار النافذة خارج القطار، فلسعَت الرياحُ الجروحَ التي حول ركبتَيَّ، وكاد جسدي الهزيل أن يطير، كنت أعرف أنَّ ساقيَّ لا تزالان مرئيتين من داخل القطار، وعليَّ إيجاد طريقة للتسلق إلى فوق السقف.

وعندما نظرت إلى السقف، أبصرت شيئًا مثل قضبان فتحة تهوية، كان من الصعب تبيُّن ماهيتها تحديدًا، لكن بَرَق في ذهني أنه شيء يمكنني الإمساك به، وكانت العقبة الوحيدة أنه أبعد من متناول ذراعي، وسيكون عليّ أن أخاطر، كلّ ما عليَّ فعله هو القفز والتشبث به ورفع نفسي للأعلى.

كل ما عليَّ فعله؟! يبلغ طولي خمسة أقدام وثلاث بوصات!

كنا نقترب سريعًا من جسر، وتبيَّنتْ بعض الأشجار الداكنة أمامنا.

أغمضت عينيّ وأخذت نفسًا عميقًا بطيئًا، وعندما بلغ القطار الجسر، حدث ارتجاج مفاجئ.

الآن!

قفزت بكل ما أملك من قوة، وفجأة وجدتُني سابحًا في الهواء، وتجمَّد المشهد من حولي، انعقفتْ أصابعي حول القضبان، وأمسكت بها وأرجحت الجزء الأسفل من جسدي للأعلى ورفعت نفسي على مرفقَيَّ، نجحت.. صرت على السقف، كنت أرتعش من مجهود القفزة ورعبها، وانقضى وقت طويل قبل أن أتوقف عن الارتعاش.

لا أعرف مقدار الوقت الذي انقضى وأنا على السقف، فقد كنت في غاية التوتر، لدرجة أنني لم ألاحظ متى بدأت السماء تمطر، وعندما استعدت حواسي أخيرًا، وجدت قميصي مبتلًا تمامًا، وأدركت أنَّ السقف سرعان ما سيصبح زلقًا، وعندئذٍ سأواجه خطر السقوط.

انبطحت على بطني ورحت أسعى كالحية بحذر لأبلغ مؤخرة القطار، وأحسست بموجة أخرى من الارتياح عندما لامستْ قدماي السلم، فنزلته واختبأت على المِقْرَنة التي تربط بين المقطورات، إذا تمكنت من إحاطة السلم بذراعيّ وأطبقت بيديّ معًا، فسأكون بمأمن إلى حدّ كافٍ.

السُلَّم! لماذا لم أستخدم السلم اللعين عندما اضطررت للهرب إلى خارج القطار في البداية؟ كنت أجلس مُوليًا ظهري للباب، وكلّ ما كان عليّ...

انس الأمر، لقد نجوت، وهذا كل ما يهم.

وصل القطار إلى محطة مظلمة ومُقفِرة في وقتٍ ما قرابة منتصف الليل، وتعرفت على اسمها من اللافتة الباهتة. كانت المحطة التي قبل «هيسان»، فرأيت أنّ إكمال الرحلة حتى «هيسان» ينطوي على مخاطرة كبيرة، ربما أُسأل عن وثائق سفري في المحطة، وعندها ستكون نهايتي؛ لذا كان الوقت قد حان لفراق المِقْرَنة والسُلَّم، فقفزت من القطار واختفيت في ظلام الليل، كنت أعرف أنّ نهر «يالو» ليس بعيدًا.

يفصل نهر «يالو» بين الصين وكوريا الشمالية، وكثيرٌ من الناس يعبُرونه، وأكثر منهم يحاولون عبوره، ومن الغريب جدًّا، قبل قرابة ثلاثين عامًا، كان الصينيون يحاولون الهرب إلى كوريا الشمالية إبّان «القفزة العظيمة للأمام» والثورة الثقافية في الصين، والآن انعكس اتجاه الهجرة.

تشتهر بلدة «هيسان» بحقول الفحم ومناجم النحاس، وعلى بعد قرابة اثني عشر ميلًا شمال شرق «هيسان»، توجد منطقة اسمها «بوتشونبو»، شهيرة بمعركة وقعت فيها عام 1937. كان الكوريون يحاولون إخراج المحتلّين اليابانيين من بلادهم، وألحق فَيْلق المغاوير، الذي يُزعَم أنه كان بقيادة «كيم إيل سونغ»، هزيمة نكْراء بالجيش الياباني؛ ولهذا أصبحت

تُعرف بـ «أرض الثورة المقدسة»، وفي المدينة نَصْب تذكاري ضخم عن الثورة وتمثال لـ «كيم إيل سونغ».

دوام الحال من المحال! فبحلول عام 1996، اكتسبت أرض الثورة المقدسة سمعة سيئة، بوصفها مكانًا يختبئ فيه الناس عندما يحاولون الهرب إلى الصين؛ ولذلك كانت الدوريّات تطوف بها على مدار الساعة من فيالق قوات حرس الحدود.

كنتُ قد سمعت بعض القصص الفظيعة عما حدث للذين أُلقيَ القبض عليهم وهم يحاولون الهرب، أيُّ شخص سمع بها، قصص مروِّعة، مَن يدري ما إذا كانت صحيحة، أم أشاعَتْها الدولة لتبقينا في أماكننا. إحدى أسوأ القصص التي سمعتها، كانت «قضية حلقة الأنف»، هربتْ أسرة مكونة من أربعة أفراد، لكن الشرطة الكورية الشمالية ألقت القبض عليهم في الصين، أدخلت الشرطة سلكًا معدنيًا في أنوفهم من أجل ربطهم جميعًا معًا، صُدِم ضبّاط الجمارك الصينيون من تلك القسوة، وأوضحوا أنَّ مثل هذه الأشياء غير مسموح بها في الصين، فتضايق رجال الشرطة من حكم الضباط الصينيين عليهم، ولِيتباهَوا ببربريتهم أمام ضباط الجمارك الصينيين، أطلقوا النار على الأسرة بأكملها حالما وطِئت المجموعة أرض كوريا الشمالية.

بعدما قفزتُ من القطار، مشَيت مدة طويلة لدرجة أنَّ ساقيَّ تصلَّبتا وصارتا كالخشب، لكنني وصلت إلى «هيسان» أخيرًا. لم أكن قد تناولت طعامًا منذ يومين؛ لذا يمَّمت وجهي شطر السوق، فوجدته ضخمًا، وفيه عدد كبير من المنتجات بحيث شعرتُ بالدوار: أرز، دقيق، بيوض سمك القد... كل ما يخطر على البال. كان من الواضح أنَّ بعض الناس يبحثون عن شيء ليشتروه، في حين بدا آخرون كالمشردين، لا يملكون سوى النظر والحقدُ ينهشهم.

لم أكن أملك مالًا، بالطبع، فحاولتُ العثور على شيء على الأرض، وفي النهاية، لمحتُ بعض أكواز الذرة الملقاة، التي كانت خالية من الحبوب، لكنني أنشبت أسناني فيها وأكلت ما يمكنني أكله.

وعندما التفتُّ، رأيت طفلًا صغيرًا خلفي، وحده تمامًا، أظنه كان يتيمًا، ومثلي كان يبحث في الأرض عن شيء قابل للأكل، وعندما وجد شيئًا، التقطه وأكله، كأنه حمامة. تساءلتُ عما حلّ بوالديه، لكن لم أستطع التفكير كثيرًا بالأمر؛ لأنه أعاد إلى ذهني صور أطفالي، ولم تكن لديّ الطاقة للنحيب.

أردت استعادة قوتي، بالقدر الذي كانت عليه؛ لذا ذهبت إلى متنزّه في مركز المدينة، ووجدت أَجَمَة وزحفت تحتها، وسرعان ما غرقت في النوم على الأرض الصلبة، وفي الصباح، نهضتُ وتسكعتُ أمام محطة القطار قليلًا، وحالفني الحظ حين وجدتُ لبّ تفاحة، فَرُحت أمضغها وقصدت النهر، وعندما بلغت ضفته، كان النهار قد انتصف تقريبًا.

فُوجِئت أول ما رأيت النهر، إذ كان النهر ضيِّقًا جدًا، ولا يمكن أن يتجاوز عرضه مئتي ياردة تقريبًا، لو كنا في فصل الشتاء لكان السطح متجمدًا، ولأمكنني عبوره في بضع ثوانٍ، وهو وقت أكثر من كافٍ ليُطلَق عليَّ النار في ظهري، دعونا لا ننسى، لكنني حاولت ألَّا أفكر بهذا.

لمحتُ بعض الرجال يقفون في الأنحاء ويتحدثون ويدخنون السجائر على الضفة الأخرى؛ في الصين، وعلى الجانب الكوري الشمالي، ثَمّة كابينات مراقبة كلّ خمسين ياردة تقريبًا، وحراس يتأبّطون بنادقهم في دوريّات حراسة على مدار الساعة، وبعضهم معهم كلاب من فصيلة الراعي الألماني شرسة المظهر، ورأيت امرأة تغسل الملابس في النهر وبضعة أطفال يركضون لاهِين على جانبَي النهر، والحراس لا يأبهون بهم.

بدأ صبيٌّ عبور النهر أمامي، ولم يفعل الحراس شيئًا، فانتظرتهم ليقوموا بإجراءٍ ما، لكنهم لم يُحرِّكوا ساكنًا. كان الصبيّ يحمل شيئًا فوق رأسه حتى لا يبتلّ، لكن المياه لم تبلغ سوى خصره، وبلغ الضفة الأخرى خلال لحظات، وأعطى الشيء لرجل كان ينتظره، فأخذه الرجل واختفى على الفور، لكن الصبيّ اقتعد ضفة النهر وراح يُدخِّن سيجارة، وقد أنجز عمله.

بدا أنَّ عبور النهر مسألة سهلة.

قررتُ التحرك، فإذا وقفتُ عند النهر مدة أطول، فلا بدّ أنْ تُثار شكوك الحراس، وحالما بدأتُ أسير مبتعدًا، زعق أحد الحراس فأجفلتُ، ظنًا مني أنه يقصدني؛ لذا توقفتُ واستدرتُ ببطء شديد.

رأيت المرأة التي كانت تغسل الملابس تعود مسرعة، وهي التي زعق بها الحارس، بدا أنَّ لا مشكلة في عبور الأطفال النهر، لكن البالغين لا يمكنهم أن يخوضوا في النهر لأكثر من ياردة أو نحوها.

عدتُ إلى ضفة النهر في تلك الليلة واختبأت تحت أجَمَةٍ لأراقب ما يحدث بعد هبوط الظلام، كان الحراس يَجوسون في المكان بالمصابيح اليدوية، والأسوأ من هذا، كان القمر بازغًا، وأمكنني رؤية انعكاسه على النهر، وكان من السطوع بحيث جعل محاولة عبور النهر انتحارًا؛ لذا عدْتُ أدراجي إلى منطقة محطة القطار.

كان هناك مقعد طويل في المحطة يقعد عليه الناس في أثناء انتظار القطار، وكنت عندما أرى الناس يتناولون وجباتهم الخفيفة، أقف أو أجلس على مقربة منهم وأنتظرهم حتى يُلقوا بقايا طعامهم، وبعدما أكلتُ أيًا ما وجدته، زحفتُ تحت أجَمَة أخرى وخبّأت نفسي. كنت أعرف أنني لن أتمكن أبدًا من عبور النهر في أثناء النهار دون أن يراني أحد،

ولم يكُن الليل مظلمًا تمامًا بسبب ضوء القمر، والحراس الذين يتجوَّلون بمصابيحهم اليدوية.

لم أعرف خطوتي التالية، الشيء الوحيد الذي أمكنني التفكير به كان محاولة العبور في أثناء تغيير مناوبة الحراسة، لكن كيف لي أن أعرف روتين الحراس دون أن يُفتضح أمري؟ قلَّبتُ هذا السؤال في ذهني طويلًا جدًّا وأنا أضّجع مستيقظًا على الأرض الباردة.

استغرقتُ يومين إضافيين من المراقبة لمعرفة الوقت الأمثل لعبور النهر، وعندئذٍ كان جسدي قد اشتد ضعفه، وبالطبع كانت أعصابي على وشك الانهيار، كنت ألتفتُ ورائي باستمرار متى ما مشيت إلى أيّ مكان، وأظن أنَّ كلّ شخص أمُرُّ به هو شرطي.

وفي النهاية، قرَّعتُ نفسي بشدة: اسمع! ليس لديك وقت لهذا، أسرتك تتضور جوعًا! وتخور قواك بمرور كلّ يوم، عليك عبور ذلك النهر! وإلّا سوف تموت أسرتك كلها، وأنت أيضًا.

وفي الليلة الثالثة، عدتُ إلى ضفة النهر بُعَيد الغروب، واختبأت تحت الأجَمَات، مُتحيِّنًا فرصتي، وكان الحراس يَجوسون في أرجاء المكان.

قلت لنفسي، لا يمكن أن يُطلق عليّ النار! لا يمكن أن أموت هنا!

لكنني لم أستطع التركيز كما ينبغي، فتمدّدت على الأرض وأغمضتُ عينيَّ، وعندما حاولت النهوض، وجدتُني فاقدًا القوة على رفع نفسي، واعتقدت أنه قُضي الأمر، وأنني أحتضر، نجحت في بلوغ هذا الحد، وكنت قريبًا جدًّا، لكنني انتظرت مدة أطول من اللازم، وفجأة انبثقتْ في ذهني وجوه أمي وأبي وجميع أطفالي، قالت أمي: عليك أن تنهض وتذهب! يجب أن تجد القوة. وعندئذٍ بدأ رذاذ المطر يَهْمي، أحسست بالقطرات على وجهي، ففتحت عينيّ، لكن دموعي وضعتْ غشاوة على

بصري، ورفعت وجهي إلى السماء، فوجدتُها مكفهِرَّة وحالكة السواد، ثم اشتدّ هطول المطر، وعلى نحو غريب، عادت قواي وصَفَا ذهني، فقلت لنفسي: يجب أن أذهب، يجب أن أذهب الآن، وإلَّا سوف أموت هنا. ثم لم يعد المطر مجرد زخات خفيفة، وصار يهطل هطولًا غزيرًا، وبعد عشر أو عشرين دقيقة، نهضتُ ونظرت إلى النهر، تغيَّرت معالمه تغيُّرًا تامًا، وصار تيّارًا عارمًا خلال تلك اللحظة الوجيزة.

خضتُ في الوحل نحو النهر.

وقلت لنفسي وأنا أحاول استجماع أطراف شجاعتي: ما الفرق؟ يُطلق عليَّ النار.. أنتحر.. أبقى هنا وأهلك من الجوع.. سأموت في كل الأحوال.

بدأتُ أسير بمحاذاة ضفة النهر، ولم أعد أكترث بشأن الحراس خلفي، وإن كان يوجد شيء أكترث له حقًّا، فهو أملي أن أموت فعلًا.

تهشَّم شيء تحت قدمي، غصن أو جِذْر نبات ربما، فنظرتُ خلفي غريزيًا موقنًا بأنني على وشك أن أُرْدَى قتيلًا، ولدهشتي الشديدة، لم يكن هناك حارس واحد، هل كانوا يغيِّرون المناوبة؟

أجل! إما الآن أو ستضيع الفرصة للأبد. ألقيت بنفسي في النهر وبدأت أسبح، لكن عندها ارتطم رأسي بشيء؛ صخرة ربما، ليس لديّ أدنى فكرة، اندفعت المياه إلى فمي، وكنت واعِيًا وعْيًا ضبابيًا بأنني أنجرف مع التيار، ثم فقدت وعيي.

ليس لديّ فكرة عن مقدار ما انقضى من وقت، لكن عندما استعدتُ وعيي، وجدت نفسي ممددًا على ضفة النهر.

خطر لي، سحقًا! لم أعبر إلى الضفة الأخرى.

كنت أرتجف باضطراب، وقد خارت قواي تمامًا، تمكنتُ بصعوبة من رفع رأسي، وعندما رفعته، رأيت ضوءًا على مبعدة، بدا أنه قادم من منزل.

تساءلتُ: مِن الغريب إضاءة المصابيح! مَن عساه أن يفعل شيئًا كهذا؟ كانت إضاءة المصابيح ليلًا في كوريا الشمالية بمكانة الخيانة العظمى.

عجزت عن النهوض، لكن اكتشفت أنني يمكنني الحركة بما يشبه الزحف، فزحفت باتجاه المنزل المضاء.

ثم سمعت نباحًا بعيدًا.

لا بد أنني غفوت دون أن أشعر، لكن عندما استيقظت، وجدتني محمولًا على ظهر رجل لا أعرفه، وكنت عاجزًا عن الكلام، حاولت، لكنّ شفتَيَّ لم تتحركا، وبدا أنَّ حِبالي الصوتية مشلولة، لم أقدر على إخراج أيّ صوت، ثم حاولت تحريك أصابعي، لا شيء، لكن مهلًا.. يمكنني تحريك بؤبؤيْ عينيَّ، أين كنتُ؟ حاولتُ أن أنظر فيما حولي.

أجَمَات.. كلب.. ما الذي يفعله بالقَفْز على هذا النحو والركض حول قدميْ هذا الرجل الغريب؟ ويهزّ ذيله، وينبح أيضًا.

بدأ الرجل يتكلم معه، ما الذي كان يقوله؟ لم يكن بمقدوري التمييز.

حاولتُ مرة أخرى أن أقول شيئًا، لكنني كنت لا أزال عاجزًا عن إخراج أيّ صوت، ثم حاولت مجددًا.. لا شيء.

ظلّ الرجل يتحدث مع كلبه بصوت لطيف.

وفجأة خطر لي أنَّ الناس لا يُربُّون الكلاب بوصفها حيوانات أليفة، إنما يأكلونها، وهذا الكلب أليف. هذه ليست كوريا الشمالية، إنها الصين، لقد نجحت! لم أصدق، لم تكن سوى معجزة.

ورغمًا عن حماستي، غلبَني الوهن.

فنمت.

وُلِدتُ مجددًا.

وجدتُ الرجل يراقبني معتنيًا بي عندما استيقظت، وأردت أن أوضح له مَن أنا، وأن أشكره على مساعدته، لكنني كنت لا أزال عاجزًا عن الكلام، وحاولت الجلوس، لكنه أوقفني.

قال: «لا بأس، إنك بحاجة إلى الراحة، حاول أن تنام».

وفي وقتٍ لاحق، أطعمني سخينة أرز، رفع الوعاء ووضع المِلْعقة في شفتي.

لَبَكَيتُ من فرط حنانه إن كانت لديّ القوة.

أشعرتني السخينة بالدوار، لم أكن قد تناولت طعامًا منذ مدة طويلة، لدرجة أن جسدي لم يحتمله، وأحسست كأنني تجرعت دلوًا من الكحول دفعة واحدة.

وأُغشي عليَّ.

ظللت أفقد وعيي وأستعيده طوال يومين، لا أتذكر شيئًا عنهما، لكن في اليوم الثالث، استيقظتُ شاعرًا بأنني مليء بالطاقة، كان أمرًا غريبًا؛ أعني أنني لم أقفز من الفراش أو أفعل شيئًا كهذا، لكنني فجأة وجدتُ في نفسي القدرة على الوقوف، والقدرة على المشي، نظرتُ فيما حولي مستوعبًا محيطي تدريجيًا، رأيت تلفازًا وثلاجة وغسالة وأريكة ودراجة نارية ودراجة هوائية أيضًا، رفاهيات لا تخطر على قلب بشر.

جاء إليَّ الرجل الذي أنقذني، كان كوريًّا كبير السن يُدعى «كيم»، وهو ألطف شخص عرَفته يومًا.

أوضحتُ له ظروفي بكل تعقيداتها.

قلت له: «لستُ كوريًا، أنا ياباني، وأحاول العودة إلى اليابان، عليَّ إنقاذ أُسْرَتي، أيمكنك مساعدتي؟».

أخذ مجَّة من سيجارته، وقال: «لا يمكنك الوصول حتى إلى كوريا الجنوبية في هذه الأيام، لكن اليابان!».

حدَّثني عن أناس آخرين هربوا من كوريا الشمالية، ليسوا يابانيين، بالطبع، بل كوريين شماليين أصليين، وصُعِقت عندما أخبرني عما حدث لهم، حتى إذا نجحوا في الوصول إلى سفارة كوريا الجنوبية في «بكين» -وهي ليست مهمة سهلة، إذا أخذنا في الحسبان المسافة والمخاطر- يُقابَلوا ببرود، ويُقال لهم: «لا نريد أن نفسد علاقتنا مع الصين، أخشى أننا لا يمكننا مساعدتكم، أنتم وحدكم»، بعبارة أخرى، أسدونا معروفًا وحلّوا عنّا.

عقدت الصين وكوريا الشمالية، بعد الحرب الكورية، اتفاق «صداقة ممهورة بالدماء»، وفيه اتفقوا على «بروتوكول التعاون بشأن أمن الحدود»، وهي كلمات لطيفة مُنمَّقة مضمونها إجراء بسيط: إذا هرب شخص من كوريا الشمالية.. لكن نَفَدَ حظّه وأُلقيَ القبض عليه، يُعاد إلى كوريا الشمالية.

مع إخطار فرقة الإعدام.

أما كوريا الجنوبية، فلم يهمّها سوى التجارة مع الصين، ومن الواضح أنها أهم بكثير من مساعدة إخوانهم.

لكنّ «كيم» كان رجلًا فاضلًا، ووثِقتُ به ثقة تامة.

قال: «دعني أُحدِّث أبنائي وبعض الأصدقاء الذين أثق بهم، سأتدبر أمرًا، لا تقلق».

أجلْتُ نظري في المكان مرة أخرى ورغِبت في البكاء، الهاتف على المنضدة، المذياع، بعض الفواكه في وعاء، الكلب يغفو قرب النافذة.. هذه كانت يوتوبيا مقارنة بكوريا.

عاد «كيم» بعد مرور بعض الوقت مع رجلين في الأربعينيات، اتضح أنهما ابناه، «تشوروسو» و«تشورو»، وكانا يبدوان بالنسبة إليَّ في غاية الثراء بملابسهما الأنيقة المفصَّلة حسب الطلب وساعتيهما اليابانيتين. ومثل أبيهما، كانا يعملان في تجارة الدقيق والأرز وسلع رئيسة أخرى، مع كوريا الشمالية، وهذا هو الجزء الشرعي من عملهم، إذ كانوا أيضًا يتاجرون في أشياء تحت الحظر، كالفضة وما إلى ذلك.

قال «تشوروسو»: «أشتري العملات اليابانية القديمة التي كانت مستخدمة في الحقبة الاستعمارية وأبيعها إلى جامع ياباني، لا يكتفي منها.. وهذا يناسبني!».

وقالوا إنهم يتاجرون بعيدًا عند أعلى النهر، حيث يكون النهر ضيِّقًا، ومن حسن حظهم، كان الشقيق الأصغر «تشورو» يعمل في الخدمة الأمنية، وما زال بعض أصدقائه يخدمون فيها؛ لذا كان يعلم كيفية عملهم، الأمر الذي كان مفيدًا. اقترحَ ألَّا أظل في مكان واحد، وهذا ما فعلتُه تحديدًا، مكثتُ معه ومع شقيقه ووالده وأصدقائه الموثوقين.

بدا منزل «تشوروسو» كأنه جنة، بكل ما فيه من أجهزة كهربائية، وجبال من الأرز الأبيض ولحم الخنزير، وأصدقائه التجار الذين يزورونه باستمرار ليلعبوا الورق، كان الجميع يدخِّنون ويقامرون ويستمتعون بوقتهم، وجميعهم كانوا ينادون بعضهم بـ «يا صاحبي» أو «يا صاح» أو «يا رفيقي»، فعادت إليَّ ذكريات المدرسة الثانوية الوسطى في اليابان. كان من الواضح بالنسبة إليَّ أنهم يحترمون «تشوروسو»، ولأنني ضيفه، دائمًا ما كانوا يعاملونني بلطف وتهذيب بالغين، الأمر

الذي كان تغييرًا منعشًا بالنسبة إليَّ. كنتُ أشعر بالذنب حيال الاستمتاع بكل هذه الرفاهيات عندما أفكر بأسرتي في كوريا الشمالية، لكنني كنت أعلم أنني إذا أردت استغلال الفرصة لمساعدتهم، فعليَّ أن أستعيد قواي أولًا.

وبعد بضعة أيام، خطر لي فجأة أن أتصل بالصليب الأحمر في «طوكيو»، ومن حيث لا أدري، عادت إليّ ذكرى من أيام الثمانينيات عن رجل كان قد راسل الصليب الأحمر لمساعدته في التواصل مع أقارب مفقودين في اليابان، وبعد وقت قصير، تلقَّى ردًّا، كان «استمارة طلب تعقُّب»، كان الرجل سعيدًا جدًّا بتلقي الردّ، فحَمَله إلى كلّ من يهتم بأمره. ألقيتُ نظرة على العنوان ورقم الهاتف عندما أراني الرسالة، وقلت لنفسي: مهلاً! ربما يكون هذا مفيدًا؛ لذا حفظت المعلومات في الحال، ويمكنني تذكرها إلى اليوم.

سألت «تشوروسو» عن كيفية إجراء مكالمة دولية، ثم حملت السماعة وأدخلت الرقم، وحبست أنفاسي وأنا أستمع إلى الطنين والنقرات التي لا نهاية لها.

لكن نجحت، أجابني صوت امرأة.

لم أفهم منها كلمة، أنا ياباني بالطبع، لكن انقضى وقت طويل جدًّا، وصدئت لغتي اليابانية.

«أنا ياباني، أنا في الصين، أذهب إلى كوريا الشمالية مع أسرتي، قبل وقت طويل، 1960، أنا أعود إلى اليابان، أتوسل إليك».. كان هذا كل ما تمكنت من قوله بلُغةٍ ركيكة.

وكررتُ ما قلته مرارًا.

لم تفهم المرأة ما كنتُ أقوله، لكنّ حِسّها السليم جعلها توصلني بقسم آخر.

سألني رجل: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

وفجأة صرت قادرًا على الحديث بمزيد من الوضوح، وبدأت أتذكر لغتي اليابانية.

«اسمي إيشيكاوا، وأنا مواطن ياباني، من أبٍ كوري وأمٍّ يابانية، خُدِع أبي ليصطحبنا إلى كوريا الشمالية في عام 1960، ووُعِدنا بحياة جديدة في جنة على الأرض، ودعمت الحكومة اليابانية الأمر، وكانت الأمم المتحدة على علم بكل شيء، وجمعيتكم الخيرية كانت سعيدة بالإشراف على أكبر هجرة جماعية في تاريخ العالم، ألديكم أدنى فكرة عما فعلتموه بنا؟ أودعتمونا في الجحيم، هربتُ أخيرًا دون الآخرين، أنا الأول، بقيَّتنا إما ماتوا أو يحتضرون، سيكون لطفًا منكم أن تساعدوني في العودة إلى الديار»، تدفق الكلام مني دون انقطاع.

صَمْت.

قلت لنفسي: لقد تماديتُ كثيرًا.

ثم تحدثَ، وبدا مرتبكًا.

قال: «حسنًا، انتظر لحظة من فضلك، سأتصل بالصليب الأحمر في الصين».

ردٌّ لطيف، لكنه يبعث على السخرية.

- هل فقدتَ صوابك؟ إن فعلتَ هذا، فأنا في عداد الموتى.

لفَتُّ نظره إلى أنَّ السلطات الصينية لن تكترث بما يقوله الصليب الأحمر، سيُعيدونني ببساطة، وسوف أُعدَم.

أخيرًا تفهَّم دِقَّة الوضع الذي كنت فيه.

وقال: «حسنًا، سأتصل بوزارة الخارجية على الفور».

أعطيتُه رقم «تشوروسو» وشكرته، وأغلقت الخط.

عليَّ أن أُقرَّ بفضل الرجل، فقد تحرك سريعًا جدًّا؛ إذ تلقيت مكالمة، بعد ربع ساعة، من شخص في قسم شمال شرق آسيا التابع لمكتب الوزارة الخاص بآسيا، وطلب مني الاتصال بالسفارة اليابانية في «بكين»، كانوا يتوقعون أن يسمعوا مني.

أدخلتُ الرقم الذي أعطاني إياه ورويتُ قصتي مجددًا.

– وأنت ياباني الجنسية بالتأكيد؟

أعطيته تفاصيلي: مكان الميلاد، وتاريخ الميلاد، والتاريخ المحدد لنقلنا إلى كوريا الشمالية، لا بد من وجود سجلات.

قال إنه سيُبَلِّغ الأمر لرئيسه ويعاود الاتصال بي.

بدا أن الجميع كانت تراودهم الشكوك في أنني ياباني فعلًا، وعندما أعود بذاكرتي الآن، لا يمكنني أن ألومهم، فرغم كل شيء، كنت أتحدث اللغة بالكاد، لكنني كنت مرعوبًا من أن أُعتقَل في أيّ لحظة، وكنت أشعر بأن الوقت ينفد من أُسْرتي في كوريا الشمالية، لم يكن لديّ وقت للتعاطف، كنت بحاجة إلى مَن يساعدني في العودة إلى اليابان، حتى أبدأ العمل على مساعدة أطفالي.

كان التنصُّت على الهواتف، بحسب «تشورو»، هو الأمر العادي والمُتوقَّع بالقرب من الحدود، لم يكن مجرد مسألة مراقبة الهاربين، كان هناك جواسيس روس وكوريون جنوبيون في المنطقة أيضًا، يبحثون عن المُنْشَقِّين أو يحققون في أنشطة مُريبة، فقررت أنه من الأفضل أن أشدّ رحالي مجددًا.

ظللتُ أتنقَّل من منزل إلى منزل خلال الأيام القليلة التالية، وظللت أتصل بالسفارة، ثم أحالوني إلى القنصلية اليابانية في «شينيانغ».

قالوا: «كُن صبورًا، إننا نحاول أن نتواصل مع أقربائك في اليابان»، لكنّ صبري كاد أن ينفد.

وأخيرًا نجحوا.

قالوا لي: «تهانينا، لديك التصريح».

بحلول هذا الوقت، انقضى أسبوع على وجودي في الصين، كنت أعيش في رعب من أنني سأُعتقَل في أيّ لحظة، فاتصلت بالقنصلية في «شينيانغ» وقلت لهم إنني لم أعد قادرًا على الانتظار.

- حسنًا، إذن عليك المجيء إلى شينيانغ، اطلب من الذين يؤونك أن يصطحبوك، وسندفع لهم مقابل أتعابهم، هناك برج إرسال تلفزيوني ضخم أمامه جسر، كُن هناك بعد غد عند الخامسة عصرًا، فهمتَ ما قلتُه لك؟

أغلقتُ الخط والتفتُّ إلى الأخوين.

قلت: «لقد قمتم بأكثر من واجبكم، لكنني بحاجة إلى معروف أخير.. كبير، أيمكنكم إيصالي إلى شينيانغ؟ ستُغَطِّي القنصلية نفقاتكم».

لم يتردد «تشورو» لحظة، وسأل: «بالتأكيد، متى نغادر؟».

بذلتُ كلّ ما بوسعي كي لا أجهش بالبكاء.

سألتُ: «ماذا عن الآن؟».

ضحكنا جميعًا.

اتصل «تشوروسو» بصديق لديه سيارة، وسأله إن كان بإمكانه إيصالنا.

والمق.

كانت الخطة بأكملها مُعدَّة قبل غروب الشمس.

وكانت زوجة «تشورو» متلهفة للذهاب معنا، فكان مجموعنا خمسة.

ذهبت لزيارة السيد «كيم» الكبير قبل مغادرتي، وعجزت عن شكره بما يكفي على كل ما فعله من أجلي، وانهمرت الدموع على وجهي وأنا أحاول التعبير عن شُكري، كنت أعرف أنني لن أراه مجددًا أبدًا، وأنني لن أتمكن أبدًا من ردِّ جميل عطفه وإنقاذه حياتي.

ثم ركبنا نحن الخمسة في السيارة وانطلقنا.

تبعد «شينيانغ» قرابة مئتين وخمسين ميلًا في خط مستقيم، وللوصول إليها بالسيارة، كان علينا عبور «تشانباي»، ويمكننا الوصول في يومين إذا سِرْنا دون توقف، كانت الطرق الجبلية ضيقة ومتشابكة وتعجّ بنقاط التفتيش.

عندما لمح سائقنا أول نقطة تفتيش أمامنا، حذَّرني، فانخفضتُ في المقعد الخلفي وغطيتُ نفسي بحصيرة، وقلبي يُرعِد في صدري، وقعد الأخوان «كيم» فوقي.

سمعت صوت الجندي، وبدا شابًّا وودودًا.

- إلى أين يا رفاق؟

- في زيارة إلى بعض الأقارب في «شينيانغ».

وكان هذا كلّ ما في الأمر، لم يسألنا الجندي حتى عن تصريح سفرنا. تركَنا نمر فحسب.

قال «تشوروسو» وهو يزيح الحصيرة: «نحن بمأمن».

فاعتدلتُ جالسًا.

دُهِشتُ من عبورنا نقطة التفتيش بهذه السهولة، فلم يسعْنِي سوى السؤال:

«هؤلاء الجنود، كما ترى... وحيدون تمامًا في نقاط التفتيش المنعزلة هذه في الأماكن النائية، لساعات طويلة؛ لذا يحبُّون أيّ تواصل مع الناس».

بعد ستة وثلاثين عامًا من العيش في كوريا الشمالية، أحسستُ كما لو أنني في كوكب آخر.

سِرْنا يومين دون توقف تقريبًا، كنا نقف عند دورات المياه ونغفو من وقت لآخر، ولا شيء. وصلنا إلى «شينيانغ» قرابة الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الموعد، لم أرَ سيارات كثيرة بهذا العدد من قبل قطّ، كانت في كلّ مكان، بأعداد هائلة، لكنني كنت أستوعب ما حولي بالكاد، كنتُ مأخوذ الأنفاس بالإثارة، لكنني أيضًا في غاية التوتر؛ إذ توجد قنصلية كورية شمالية في المدينة، وتوجد الشرطة السرية.

وجدنا برج التلفاز الضخم، كان الرجل الذي تحدث معي محقًا، لا يمكن إخطاؤه.

ركَنَّا السيارة على مقربة، وترجَّلنا، ومشينا ناحية الجسر، وكان الأخوان «كيم» يسيران إلى جانبَيَّ.

وعندما بلغنا الجسر، اتصلتُ بالقنصلية من هاتف عامّ، كانت يدِي ترتعش وأنا أضع السماعة على أذنِي.

«مرحبا؟ أنا إيشيكاوا، أنا عند الجسر، لا أعتقد أنَّ بإمكاني الانتظار حتى الموعد الذي اتفقنا عليه، ثمة خطورة كبيرة، ربما يجري التنصُّت على هذه المكالمة، لا أريد أن يُلقى القبض عليَّ، أرجو أن تأتوا وتصطحبوني الآن».

وضعتُ السماعة دون أن أنتظر ردًا.

قال «تشوروسو» لي: «لا تقلق! إذا حدث شيء، فسأخاطر بحياتي لحمايتك».. لن أنسى ما حييت جملتَه تلك.

أومأتُ، لكنني كنت عاجزًا عن التركيز حقًا، شعرت كما لو أنَّ كلّ مَن حولي يُمثِّل تهديدًا، كنت موقنًا بأنني سيُلقى القبض عليّ في أيّ لحظة، كان قلبي يخفق بشدة، وجفَّ حلقي، وصارت راحتا يديّ دَبِقتين بالعرق.

فجأة نادى أحدهم اسمي من خلفي.

«هل أنت السيد إيشيكاوا؟»

التفتُّ لأجد رَجُلين يرتديان بدلتين غاليتين يقفان أمامي.

قال أحدهم: «اسمي كوساكاري، وأنا من القنصلية، لقد مررتَ بمحنة فظيعة.. أُحيِّيك، فلنذهب!».

أخذَ بذراعي وبدأنا نسير مبتعدين.

شكر الرجل الثاني «تشورو» و«تشوروسو» وسلَّمهما أوراقًا نقدية، بدت لي رِزْمة كبيرة، فشعرت بالارتياح لتعويضهما على كل ما فعلاه من أجلي.

بدا الأخوان مذهولَين.

قلت: «لا أدري ما أقوله، لساني يعجز عن الشكر، اعتنيا بنفسيكما!».

هتفا: «اعتنِ بنفسك! صَحِبَتك السلامة!»، ثم لوَّحا لي، وكان فراقنا، ولم أرَهما أبدًا.

سِرنا إلى القنصلية التي لم تكن تبعد سوى قرابة خمسمئة ياردة، ومحاطة بأربعة جدران عالية، وهو أمر يناسبني تمامًا، كان هناك رجال شرطة صينيون يقفون أمام البوابة، مدججين بالسلاح، دخلنا

إلى القنصلية عند الثانية والنصف بعد الظهر، لن أقدر على التعبير عن شعوري بوجودي هناك، كانت مشاعري قوية ومختلطة، وحتى في خِضَمّ ارتياحي وعدم تصديقي المضطرب، بَرَقَت في ذهني الصور المؤرِّقة لأطفالي، وأحسست بوخزة حادة من الشعور بالذنب، ولم تتوقف أبدًا.

ما فتئتُ أستيقظ في منتصف الليل، كان الجزء العقلاني مني يعرف أنني بمأمن، لكنني ما زلت أرى كوابيس القبض عليّ واعتقالي، وغالبًا ما كنت أستيقظ مبلّلًا بعرق بارد، وقلبي يخفق بشدة، وكنت أجفل لأدنى صوت، بمجرد صرير الباب أو حفيف فروع الأشجار بالخارج، كنت مقتنعًا بأن الشرطة السرية ستأتي وتأخذني.

ألجمَت الدهشةُ القنصلَ عندما وقعت عيناه عليَّ أول مرة، وقال: «يا إلهي! كيف أمكنهم أن يعاملوك هكذا؟ تبدو كهيكل عظمي»، وأجهشتْ زوجته بالبكاء عندما أخبرتُها بأن الناس حقًّا يتضورون جوعًا حتى الموت، كانت قد سمعت الإشاعات، لكن الواقع كان أسوأ من تصورها.

لم أرَ شيئًا مثل الغرفة التي أُفرِدَت لي، كان بها سريران مريحان وحمام ملحق، بدَت كأنها من عالمٍ ما كنت لأحلم به أبدًا وأنا أجاهد للإبقاء على حياتي. وبمرور الأيام، صارت مشاعري في غاية الاضطراب، كنت لا أزال في حالة صدمة وعدم تصديق أنني نجوت فعلًا، معتقدًا أنَّ الغرفة ليست سوى خدعة متقنة، وفي حين غمرني الشعور بالارتياح لأنني نجحت في الوصول إلى هذا الحد، كان التفكير بأطفالي يقضُّ مضجعي، لم أكن أسمع في ذهني إلا نداءاتهم لي، أبي! أبي! كان من الصعب أن أستمتع بالطعام الذي يوضع بين يدَيَّ عندما أتخيَّلهم يتضورون جوعًا في كوريا الشمالية، تذكرت كيف كنت أغنِّي مع أطفالي قبل أن يخلدوا إلى فراشهم كلّ ليلة، ثلاثتهم كانوا مغنِّين بارعين جدًّا، كان يمكنهم التعبير عن أنفسهم عندما يُغنون، وعندما ينشدون أغنية

حزينة، يغنونها بدموعهم، لا يمكنني تذكر هذا -حتى الآن- دون أن تفيض عيناي بالدمع.

انقضى أسبوعان، كنتُ أحْلِق ذات صباح ولاحظت أنَّ وجهي أخذ يستعيد لونه، وأنَّ خدّيَّ لم يعودا مجوّفين كما في السابق، كنت مُلْزمًا بالبقاء في غرفتي من أجل الأمان، ولم يُخبَر الطهاة والخَدَم بوجودي؛ إذ ربما يكون بعضهم عملاء متخفِّين، كما كان هناك احتمال أن يُبلِّغ أحدٌ ما عني السلطات، ولكلّ ذلك، اتفقنا على شفرة احترازية؛ أفتحُ الباب بعد سماعي خمس طرقات، عدا عن ذلك، أدعه موصدًا، الموظفون اليابانيون وحدهم هم الذين كانوا يعرفون أيّ شيء عني.

كانت الوجبات التي تُعدُّ لي يُزعم أنها تخص زوجة القنصل، وكانت تتظاهر بتناولها لكنها تجلبها سرًا إليَّ، الله يعلم ما كانت تتناولُه. ما زلت أتذكر تلك الوجبات، كانت من عالم آخر، على الأقل بالنسبة إليَّ، كانت مليئة بالخضراوات واللحم، إذا قُدِّمتْ لي أشياء كهذه في كوريا الشمالية، لالتهمتها بشراهة، لكنني كنت من القلق بحيث فقدتُ شهيتي.

كنت أرى رجالًا يعبرون الشارع عندما أنظر خارج النافذة في أثناء النهار، ويقع في نفسي أنهم من الشرطة السرية ويراقبون نافذتي، ثم سمعت وقع أقدام على السقف، أو ظننت أنني سمعتها، فأخبرت «كوساكاري» عنها، فقام بصيانة بعض الأجزاء على السقف، التي زعم أنها لم تكن ثابتة، وخُيِّل لي أنه فعل هذا لطمأنتي فحسب.

حاول القنصل تهدئة أعصابي قائلًا: «لا تقلق! سوف نعيدك إلى اليابان»، وكان يصطحبني أحيانًا إلى قاعة الترفيه بعد الساعة التاسعة مساءً بعدما يغادر جميع العاملين، يوجد في القاعة جهاز كاريوكي وتلفاز، وأحضر لوح تشوغي قائلًا بمرح: «هيا! لنلعب جولة!».

لم أكن أعلم ما يفعله القنصل وطاقمه في أثناء النهار؛ لأنني لم أكن قادرًا على مغادرة غرفتي، لكنني كنت متأكدًا تقريبًا من أنهم يتفاوضون مع الحكومة الصينية بطريقةٍ ما، ثم جاء السكرتير الأول من السفارة اليابانية بـ «بكين»، فأيقنت أنني كنت محقًّا.

كان السكرتير الأول من النوع المثقف، وطرحتُ عليه بضعة أسئلة لأفهم وضعي فهمًا أفضل، لكنه لم يجبْنِي بسوى: «لا تقلق، كن قويًّا!»، ولم يُعقِّب.

وبعد بضعة أيام، جاء إلى غرفتي وأعطاني وثيقة، وقال: «اقرأ هذه ثم وقِّعها من فضلك».

كانت الوثيقة رسالة شخصية من وزارة الخارجية. «**لا تقل لأيّ أحد، لبعض الوقت، أنَّ الحكومة اليابانية ساعدت في إنقاذك**». فوقَّعتُها على الفور، بطبيعة الحال، وعاد السكرتير الأول إلى «بكين».

استدعاني القنصل بعد قرابة أسبوع، والتُقِطتْ صورة لوجهي، وقيل لي إنها ستُستخدم في جواز السفر.

كنتُ قلقًا من أنَّ شيئًا يجري وراء ظهري؛ أعني أنني بالطبع كنت سعيدًا بشأن جواز السفر، فقد كان تطوُّرًا واعدًا، لكن لماذا تستغرق المفاوضات وقتًا طويلًا؟ كنت موقنًا أنهم اصطدموا بصعوباتٍ من نوعٍ ما.

وفي تلك الليلة، عندما كنت ألعب الشوغي مع القنصل، سألته عن الأمر، كان قد أعطاني كونياكًا فرنسيًّا غاليًا؛ لذا ربما تجرَّأت معه في الحديث مجافيًا آداب اللياقة، لكنني كنت قلقًا على أسرتي، وأزداد توتُّرًا بشأن المستقبل.

قلتُ: «متى يمكنني العودة إلى اليابان؟ أعتقد أنَّ الوقت قد حان لإخباري».

أوقفَ يده في منتصف حركة وتطلَّع إليّ.

– لم تُصدر الحكومة الصينية تأشيرة خروج لك بعد، لكنها مجرد شكليات، ظلّ السكرتير الأول يبذل كل ما بوسعه لترتيب كل شيء، وأنا متأكد أنك ستعبر إلى برّ الأمان قريبًا؛ لذا لا تقلق! استرخِ!

وَفقًا للحكومة اليابانية، فإن الذين انتقلوا إلى كوريا الشمالية ولم يُغيِّروا جنسيتهم فإنهم لا يزالون مواطنين يابانيين، لكن حكومة كوريا الشمالية لها رأي آخر، فوَفقًا لها، جميع اليابانيين الذين هاجروا إلى كوريا الشمالية أصبحوا الآن، بحكم الواقع، كوريين شماليين، ومن وجهة نظرهم، فقد اختطفتني الحكومة اليابانية عمليًا.

وكان السكرتير الأول ووزارة الخارجية يُصِرّون على أنني «ماساجي إيشيكاوا»، مواطن ياباني؛ لذا ليس لدى الحكومة الصينية سبب لترحيلي إلى كوريا الشمالية، كان هذا هو محور المفاوضات، والنقطة الرئيسة هي ضمان حفظ ماء وجه الحكومة الصينية.

بعد بضعة أيام، كنت أتحدث مع القنصل عندما وردت مكالمة من السكرتير الأول في «بكين»، وفي أثناء التقاطه السماعة، رفع صوت المذياع ثم أوضح لي قائلًا: «هكذا لن يتمكنوا من التنصُّت».

وبعد المكالمة، استدعى جميع المعنيين بقضيتي.

– سوف تغضُّ الحكومة الصينية الطّرْف عن هذه الحالة، ولأكون دقيقًا، قرروا أنه لا يهم إذا غادر السيد «إيشيكاوا» الصين دون إذن منهم، هذا هو الخبر الجيد، والخبر السيئ هو، إذا قبضت

عليه الشرطة السرية أو جاسوس، فلن تتمكن الحكومة الصينية من مساعدته إطلاقًا.

قدَّر السكرتير الأول أنَّ الأمر سيتطلب بضعة أيام إضافية لتهيئة طائرة ووضع اللمسات النهائية على المفاوضات، وقال إنه سوف يتصل بنا مجددًا في غضون أربعة أيام، وعندئذٍ ينبغي لنا الانتقال إلى مدينة «داليان»، التي سوف أستقل الطائرة منها.

لم أوافق على ذلك، وقلتُ: «إذا تحركنا إلى داليان بعد اتصال السكرتير وقُبِض عليَّ، فستفشل المسألة برُمَّتها، أعتقد أنه ينبغي لنا التحرك إلى داليان الآن وانتظار اتصاله بنا هناك»، كنت أظن أنَّ الحكومة الصينية تتنصت على خط الهاتف في القنصلية، وإذا تحركنا، فستكون الشرطة بانتظارنا في أيّ وقت نتفق عليه عبر الهاتف.

فكّر القنصل بما قلتُه، وألقى نظرة سريعة على ساعته، وقال: «حسنًا، لنفعلها، فلنغادر الآن!» كان قد حان منتصف الليل.

انشغل طاقم الموظفين بالاستعدادات.

أعطتني زوجة القنصل إحدى بدلات القنصل لأرتديها، كانت ثيابًا جميلة، لم أرتدِ شيئًا مثلها من قبل قط، وصدقًا، لم أرَ شيئًا مثلها من قبل قط، ورغم أنني أدركت لاحقًا أنها لم تكن أنيقة على نحو خاصّ أو من آخر صيحات الموضة، بدت -بالنسبة إليَّ- كارتداء ملابس أمير، وبعدما غيَّرت ملابسي، أعطتني حقيبة بها بعض الملابس الأخرى.

هبطنا السلالم ونحن نُشابك ذراعينا، كان بعض رجال الشرطة يحرسون المبنى؛ لذا تظاهرت بأنني زوجها، تمشينا في الحديقة ببطء، كزوجين عاشقَين يستمتعان بهواء الليل، وكانت تدندن بأغنية لا أعرفها،

تساءلت في بادئ الأمر عن سبب غنائها، ثم أدركت أنَّ السبب هو صمتي المتواصل.

لم تكُن في السماء نجمة واحدة، وكان الليل في غاية السكون، لم أستمتع باللحظة؛ لاستغراقي في التفكير بما نحن مقبلون عليه، لكنني كنت أرى المغزى فيما تفعله، وقد كانت بارعة، فهي لم تخدع رجال الشرطة فحسب، بل كانت أيضًا تحاول تهدئتي.

تأثرتُ حتى طفرت الدموع من عينيّ.

وفي دورتنا الثانية حول الحديقة، قالت فجأة: «يا سيد إيشيكاوا، اذهب إلى المرأب من فضلك، أتمنى لك رحلة آمنة!».

لم أفهم ما كانت تتحدث عنه، لكنني سمعت صوت محركات سيارات، ثم لاحظت أنَّ إحدى زوايا الأرضية محفورة، نزلتُ في الحفرة فوجدت نفقًا كبيرًا بما يكفي لأزحف عبره، لم أكن بحاجة إلى كتيِّب إرشادات، جثَوتُ على ركبتيَّ وزحفت للأمام بأسرع ما يمكنني.

كانت هناك ثلاث سيارات تنتظر عندما خرجت من النفق، وسمعت صوتًا مكتومًا ينادي من إحداها.. صوْتُ القنصل.

ركضتُ إلى السيارة وقفزت إلى داخلها.

أغلق أحدهم الباب، وانطلقتِ السيارات الثلاث مسرعة في موكب.

كانت توجد عدة نقاط تفتيش على الطريق إلى «داليان»، وكنت عند اقترابنا من كل نقطة، أتمدد على المقعد الخلفي، مختبئًا تحت بطانية، كنا نأكل في السيارة، ولا نتوقف إلا لدخول دورة المياه، كانت وجهتنا هي أحد مراكز اتصال الشركات اليابانية التي تعمل في «داليان»، وستوفِّر لي الغطاء المناسب، بما أنَّ الحكومة اليابانية هي التي تديرها، وأخيرًا وصلنا إلى مكتب مركز الاتصال في مساء اليوم التالي.

لا أستطيع أن أعبّر عن مدى ارتياحي بالهرب من «شينيانغ» دون أن يُقبض عليّ.

إذا نظرتَ إلى خريطة، فسترى أنّ «داليان» تقع غرب كوريا الشمالية، أمّا اليابان ففي الشرق بالطبع. إذن، بدقيق العبارة، كانت بؤرة الجحيم التي أفسدتْ حياتي لا تزال تقف بتَحَدٍ بين المكان الذي وجَدتُ فيه نفسي وبين المكان الذي أردتُ أن أكون فيه.

لكن رغم هذا، «داليان» ميناء ويمكن للمرء على الأقل أن ينظر إلى البحر، حيث يمكنه رؤية الأفق الشاسع والسفن تُبحِر نحو الحرية. دعونا من الجغرافيا، ركّزتُ على البحر، بما أنني وجدتني حبيسًا في مكتب مركز الاتصال، غير موقن مما إذا كانت الحكومة الصينية ستسمح لي بالمغادرة. وأمدّتني فكرة وجود البحر بقربي بالأمل وجعلتني أبتسم، فاليابان وراء الأفق فحسب.

كان المبنى باردًا، حتى مع تشغيل التدفئة؛ لذا مكثنا جميعنا في غرفة واحدة، الأمر الذي كان يناسبني تمامًا، شعرت بالأمان، وكان من الجيد أن أحظى بالرفقة، فكنت أتحدث عن أحلامي المستقبلية وخططي لمساعدة أسرتي في الهرب.

«أريد الحصول على عمل فورًا، لا يهمني أيّ عمل هو، سأفعل أيّ شيء، وسأكدّ في العمل، كدأبي دومًا، لا أريد سوى ادّخار بعض المال لأحضر أسرتي إلى اليابان، هذا هو سبب وجودي هنا، هذا ما خاطرت بحياتي في سبيله».

وكان الجميع يومئون ويهمهمون بدعمهم.

وصل السكرتير الأول في اليوم التالي، وفوجئ بشدة عندما وجدَنا في «داليان» بالفعل، عمِلَ جاهدًا على القضية، مُجريًا الاتصالات بالسفارة

في «بكين»، ومتحققًا من هذا التفصيل، ومشددًا على أهمية تلك النقطة، كان شديد التدقيق في تفاصيل خطته، ورأيت أنه متفانٍ في مهمته، وأحسست بالأمان التامّ بين يديه.

كان شديد الحماسة عندما جاء لرؤيتي في الصباح التالي، وقال إننا ينبغي أن نلتقط صورة معًا.

قال: «رُتِّب كلّ شيء أخيرًا، لكن عليّ أن أحذِّرك، إذا وقع مكروهٌ ما، فنحن لم نسمع بك قط، يؤسفني أنَّ هذا ما هو عليه الوضع، لكن لا تقلق، لن يقع أيّ مكروه، وتأكدتُ من هذا تمامًا، لنستعدّ لمغادرة هذا المكان، لكن أولًا دعنا نلتقط صورة نستعيد بها الذكريات لبقية حياتنا».

ما زالت الصورة لديّ حتى اليوم، أبدو فيها متوَتِّرًا للغاية، لكن عينيَّ تشعَّان، وتلتمعان بأحلامي المستقبلية.

جاء القنصل إليَّ بُعَيد الغداء وصافحني.

سألني: «هل أنت مستعد؟» فأومأت، محاولًا ألّا أُبدي مدى توتري.

وسلَّمني شيئًا قائلًا: «استخدم هذه عندما تصل إلى اليابان، ربما تحتاج إليها».

كانت خمسمئة دولار.

لم أحمل بيدي مثل هذا المبلغ من قبل قط، وكنت مصعوقًا بسخائه، لكن لم يكن ثمة وقت للتعبير المطوَّل عن الشُّكر، فأقحمتها في جيب سترتي وغمغمت بشكر سريع.

- حسنًا، جميعكم.. لقد حان الوقت، لنذهب!

ركبنا على عجل في السيارات التي تنتظرنا، فحملتنا على جناح السرعة إلى المطار الذي يبعد قرابة خمس عشرة دقيقة.

رأيت مبنى المطار أمامنا، ولم أرَ أيّ طائرات، لكنني سمعت طائرة تهبط.

وعندما هممت بفتح باب السيارة، أمسك السكرتير الأول بيدي، وقال: «لا كلام من الآن فصاعدًا، اتفقنا؟ اتبعني فحسب، لا تقل أي كلمة!».

أحاط بي طاقم القنصل حالما ترجّلت عن السيارة واقتادوني سريعًا إلى ردهة المطار، كان الجميع يتحركون بحذر وسرعة بالغَين، دون تلفُّت.

وكان الناس القادمون من الاتجاه المعاكس يتوقفون ليحدقوا إلينا، أتخيل أننا كنا مجموعة غريبة المظهر.

لم نقف عند فحص الجوازات، وسِرْنا مباشرةً إلى بوابة المغادرة، لا يزال معي الجواز الذي لم أضطر إلى إظهاره، كان مختومًا من القنصل في «شينيانغ»، على أن يُستخدم بحلول 11 من نوفمبر، استخدامًا واحدًا، ويُظهِر أنني وصلت إلى «ناريتا»، وثمة ختم يثبت هذا. لكن من أين سافرت؟ كان هذا لغزًا. صفحة بيضاء.

غمرتني موجة ارتياحٍ ما إن بلغت البوابة، وكان من الواضح أنَّ الأمر برُمَّته مدبَّرًا، وتتحكم به الحكومة الصينية، سأذهب في حال سبيلي قريبًا.

خرجنا إلى مدرج الطائرات، كان الطقس غائمًا وباردًا، ورأيت أمامي طائرة كبيرة ذات جناحين فضِّيَّين.

صعدتُ السُّلَّم مع السكرتير الأول، وعندما بلغتُ الباب، ظهرتْ أمامي امرأتان؛ مضيفتا طيران، بابتسامتين واسعتين.

- مرحبًا بعودتك!

نظرتُ بداخل الطائرة، ما من أحد على متنها، كانت مستأجَرة لنا نحن فقط.

التفتُّ لأقول وداعًا، فرأيت القنصل وطاقمه يلوِّحون لي جميعًا. حاولت أن أقول: «شكرًا لكم»، لكن غصَّ حلقي لأنني كنت أبكي كطفل.

اصطحبتني المضيفتان إلى مقعدي، ووضعتُ حزام الأمان، وبدأت المحركات تَهْدِر، وتحركت الطائرة، وسرعان ما كنا على المدرج بأقصى سرعة، وغاصت معدتي مع إقلاع الطائرة.

كنا في مساء 15 من أكتوبر 1996، حطت الطائرة في مطار «طوكيو» بعد وقت قصير.. عدت إلى اليابان.

استغرقتُ ستة وثلاثين عامًا لأعود إلى الديار، لكنني فعلتُها أخيرًا.

خاتمة

هأنذا، وُلِدتُ مجددًا.. مجددًا، لكن كيف كان شعوري؟ تكتنفني مشاعر معقدة، لم أكَد أُصدِّق منظر وطني الأم وأنا أنظر خارج النافذة في أثناء هبوط الطائرة، بدت كل الأضواء التي تتلألأ بالأسفل كأنها جواهر، كنت منتشيًا بعودتي أخيرًا، وبوضع جحيم كوريا الشمالية خلف ظهري، وبحصولي على فرصةٍ لبناء مستقبل من تصميمي الخاصّ، سأتمكن أخيرًا من فعل شيء لأُسْرَتي، بعد سنوات طويلة من العجز والقنوط. أمدَّتني تلك الأضواء المتلألئة بدفعة من الأمل، سأفعل كل ما سيتطلَّبه إخراج أُسْرتي من كوريا الشمالية، كان صعبًا عليَّ التفكير بما يمرُّون به، لكنني حَمَلت نفسي على تخيُّل اللحظة التي نجتمع فيها جميعنا في اليابان.

لكن أحلامي ستذهب أدراج الرياح مرة أخرى، والآن؟ الآن ما عدت أملك سوى شيء واحد؛ مِلكيَّتي الحقيقية الوحيدة، يؤسفني القول إنها المرارة.. المرارة تجاه قسوة الحياة.

عندما عدت إلى اليابان، رتَّبتْ وزارة الخارجية لإقامتي في الأيام القليلة الأولى بفنادق مختلفة في «طوكيو». بقي السكرتير الأول معي يومين، لكنه سرعان ما اضْطُرّ إلى العودة إلى عمله في «بكين»، وحلَّ محله رجلٌ يُدعى «ماتسوي»، و«ماتسوي» هذا -الذي عمل نائب مدير مكتب شؤون آسيا وأوقيانوسيا، قسم شمال شرق آسيا- ساعدني في الانتقال إلى شقة تُؤجَّر أسبوعيًّا، ثم ذهب، وغدوتُ وحيدًا، وحيدًا تمامًا.

جاء «ماتسوي» لزيارتي ذات يوم، وسألني عن الوضع الغذائي في كوريا الشمالية، لكنه لم يسألني أيّ سؤال عن أيٍّ من الآخرين ممن يُسمَّون بالعائدين، ولم يسألني عن أُسْرتي، التي كانت أهمّ ما أريد الحديث عنه، لم أهرب من كوريا لأنفذ بجلدي فحسب، كان الهدف كله هو إخراج أُسْرتي، وإذا لم يتمكنوا من الخروج، ففي رأيي أنَّ كل جهودي كانت إهدارًا للوقت.

أُرسِل «ماتسوي» إلى «بكين» ليحلّ محلَ السكرتير الأول، ثم عُيِّن لي مسؤول جديد، اصطحبني إلى مكتب البلدية المحلي لمساعدتي في الحصول على بطاقة إقامتي وما إلى ذلك، وبعدها اصطحبني إلى مؤسسة.

قال لي: «ستعيش هنا من الآن فصاعدًا».

كان مركز إعادة تأهيل خاضع لوزارة الصحة والعمل والرعاية، مليء بمدمني الكحول والمرضى الذين أقعدهم مرضهم عن كسب معيشتهم، كان اسمه «هاماكاوا»، يقع في محلية «شيناغوا» بـ «طوكيو».. يا له من مكان!

كنت محبَطًا، وهذا أخفّ تعبير، لماذا كنتُ أُعامَل كأنني مريض؟ كنا أربعة محشورين في غرفة صغيرة جدًّا لا تفصلنا سوى ستائر، وكان هناك مدمنو مخدرات ترتجف أجسادهم وهم يعانون أعراض الانسحاب، وأناس تغطيهم الوشوم يتمْتِمون مع أنفسهم آناء الليل وأطراف النهار، لَشعرتُ بالأسف حيالهم إذا كنت صافي الذهن والقلب لمثل هذه الأشياء، لكنني لم أكن، كنت يائسًا من أجل الحصول على عمل وكسب عيشي، وغاضبًا من كلّ ما يقف في طريقي.

ثم حدث شيء لا يُصدَّق، بعد بضعة أيام، بدأتْ وسائل الإعلام تتصل بي، أشخاص من الصحف، بما فيها «ماينيتشي»، و«يوميوري»، و«التايمز اليابانية»... لم تكن لديّ فكرة عن كيفية سماعهم عني، فالوحيدون الذين يُفترض أنهم يعرفون أنني عدتُ إلى اليابان كانوا بضعة أفراد في وزارة الخارجية، وبضعة آخرين في مكتب الهجرة.

ذُعِرتُ واتصلت بالسكرتير الأول، بَيْد أنه لم يعد السكرتير الأول، فبحلول ذلك الوقت، كان يعمل في مكتب آسيا والمحيط الهادي.

صُدِم عندما أخبرتُه بما حدث.

توسل إليَّ قائلًا: «يا إلهي! إذا ذاع خبرٌ أنَّ الحكومة اليابانية ساعدتك، فسنُطرد جميعنا من عملنا، أرجوك لا تتحدث مع أيِّ أحد».

كنت أُقدِّر كل ما فعلَتْه الوزارة من أجلي؛ لذا من البديهي أنني ما كنت لأبدأ الحديث إلى الصحفيين، ثم قال عضو برلمان أنه يودُّ مقابلتي، كانت تربطه صلة بِلَجنةٍ برلمانية تعمل على فضيحة اختطافٍ متورِّطةٌ فيها كوريا الشمالية عندما اختُطِف عدد من المواطنين اليابانيين وخُدِّروا ورُحِّلوا إلى كوريا الشمالية.

قررتُ الذهاب لمقابلته وأنا يحدوني أمل أنه ربما يتمكن، بطريقةٍ ما، من ممارسة بعض نفوذه ليساعدني في إجلاء أُسْرتي.

كان صريحًا وودودًا، قال: «أردتُ مقابلتك فحسب، لقد مررتَ بمحنة قاسية، أليس كذلك؟».

لبثتُ أنتظره ليخبرني عما يريده مني، أو ليمنحني الفرصة للحديث عن أُسْرتي، لكن لم يكن لديه الكثير ليقوله باستثناء «حظًّا موفقًا!».

غادرتُ بعد ثلاثين دقيقة.

وجدت فرصة لمقابلة عضو برلمان آخر، لكنه أيضًا تجاهل مناشدتي للمساعدة، بل أسوأ، أحسست أنه لا يريد أن يتدخل بأيِّ طريقةٍ كانت.

كانوا جميعهم متشابهين، وصُدِمت لإدراكي أنهم غير مهتمين بكوريا الشمالية، وما فتئتُ أحاول الجدل في سبيل أُسْرتي، لكنني لم أجد أُذُنًا مصغية.

غادرتُ «هاماكاوا» بعد عام، والحقيقة هي أنني لم أنجح في إيجاد عمل لائق. حاولت كلَّ شيء، لكن الأمر لم يكن سهلًا، كرهت أنني أعيش

على الإعانات الاجتماعية وأنني غير قادر على إرسال أيّ شيء لزوجتي وأطفالي، بَيْد أنني لم أكن المرشح المثالي لأيّ وظيفة، تخيَّلوا كيف تبدو سيرتي الذاتية، الخلفية التعليمية.. هذه مسألة شائكة، الخبرة العملية، هل تريدون حقًا أن تعرفوا؟

وجدتُ ذات مرة عملًا في شركة تنظيف، وزعمتُ في سيرتي الذاتية أنني عدت من كوريا الجنوبية، عملًا بنصيحة السكرتير الأول، لكن المشكلة كانت أنَّ الناس يطرحون الكثير من الأسئلة، كيف كانت كوريا الجنوبية؟ كيف كان هذا؟ وكيف كان ذاك؟ لم أذهب إليها قط، فبالطبع ما كنت أقدر على الإجابة، وتدريجيًا انتشرت إشاعة مفادها أنني جاسوس كوري شمالي، واضطررتُ للمغادرة في نهاية المطاف.

ذهبتُ إلى عدة مقابلات عمل، لكنني فشلت في كل واحدة منها بسبب الاقتصاد السيئ وسِنِّي وخلفيتي غير الواضحة، ومَن يدري ماذا أيضًا.

وإضافة إلى وضع عملي، كان عليّ تحمُّل مصدر حزن آخر، ذي طابع شخصي. تعقَّبتْ وزارة الخارجية أقارب أمي، لكن لم يرغب في رؤيتي أيّ أحد، اقترح أحد أقاربي أن نلتقي عندما هاتفتُه، لكن عندما اتصلتُ المرة الثانية، أخبرني بألَّا أتصل به مجددًا، وأغلق الخط في وجهي، على الأرجح ظن أنني سأطلب منه مالًا.

إذن ما من عمل، وما من عائلة، وما من أصدقاء، بالطبع كنت سعيدًا بأنني لم أعد أتضوّر جوعًا، لكن كان من الصعب أن أكون وحيدًا تمامًا، وكان من الصعب أن أشعر بأن الحكومة تخلَّت عني وهي مدركة تمامًا؛ لأنها أرهبتنا تقريبًا لترغمنا على الهجرة قديمًا، ومع هذا، كانوا يزعمون -بما أننا غادرنا بمحض إرادتنا- أننا لا نستحق الدعم أو المساعدة.

كنتُ ذات يوم مُعدَمًا ويائسًا لدرجة أنني اتصلتُ بالسكرتير الأول.

قلت: «أحتاج إلى مساعدتك».

قال: «لا يمكنني مقابلتك، أنا مشغول جدًا، قدّمت الحكومة اليابانية تضحيات من أجلك، يجب أن تفهم هذا، وعليك إيجاد طريقة لتعيش وحدك وتُعيل نفسك».

أردتُ بشدة أن أقول له: «هل سبق لك أن بنيت كوخًا بيديك العاريتين؟ هل حملت جثة أمك إلى جانب جبل؟ هل كافحت لتبقى على قيد الحياة بأكل الأعشاب؟».

لكن لا ذنب له في كل هذا، كان رجلًا طيّبًا في أعماقه، لكنه لم يفهم فحسب.

عُقِدت أول قمة بين الكوريتين في «بيونغيانغ» في يونيو 2000، وقالت وسائل الإعلام اليابانية: إنها تُمثّل «تقدُّمًا نحو المصالحة بين الشمال والجنوب».

انسوا أمر الصواريخ.

انسوا انتهاكات حدود المياه الإقليمية.

آه، ولقد أخطأنا بشأن «كيم جونغ إيل»، ربما لا يكون سيّئًا رغم كل شيء، حان الوقت لـــ «تعديل آرائنا».

رأيت صور «كيم جونغ إيل» وهو يتحدث مع «كيم داي جونغ»، رئيس كوريا الجنوبية، وكانت صورهم تُعْرَض على التلفاز طوال الوقت، لكنني لم أحتمل المشاهدة.

كنت أفكر كلّ يوم بأُسْرَتي التي لا تزال تكافح من أجل النجاة في كوريا الشمالية، وأمثالهم ممن يُعدُّون ولا يُحصَون، الذين يتضورون جوعًا ببطء حتى الموت، وكنت أمضي لياليَّ مضّجعًا مستيقظًا، تعذّبني رُؤاهم.

كانت قبضة «كيم جونغ إيل» على السلطة ضعيفة في أحسن الأحوال، فبعد موت والده، غيَّر الأعضاءُ القياديون في الحزب ولاءهم وذهبوا إلى كوريا الجنوبية، ثم اختفت أيضًا أبرز قيادات الجيش التي كانت مُقرَّبة

من «كيم إيل سونغ»، وكان «كيم جونغ إيل» يعلم أنَّ الحديث عن توحيد الكوريتين مجرد مسرحية هزلية، لم يكن يكترث بشيء سوى أنه أصبح على المسرح العالمي وبأنه أخيرًا صار يُؤخذ على محمل الجد.

«ربما تتعرض دولة للدمار، لكن جبالها وأنهارها ستبقى دائمًا»، لطالما عددتُ أنَّ هذه المقولة تعني: مهما حدث، فإن مشهد موطنكم لن يتغير أبدًا. لكنني كنت مخطئًا، أو بالأحرى، كانت المقولة خاطئة، فبعدما عدت إلى اليابان، زرت البلدة التي وُلدتُ فيها، كنت أتوق لاستعادة الإحساس بالانتماء، وظننت أنَّ مشهدًا كان مألوفًا ذات يوم سيُعيد إليَّ بعض الذكريات الجميلة من أيام طفولتي، ويساعدني في شفاء ألمي، لكن هيهات، ضاعت معالم البلدة، وتلاشى المشهد الذي كنت أُعوِّل عليه لِيُعزِّيني.. لم أفقد موطني فحسب، بل ومسقط رأسي أيضًا. إذن هأنذا أجدني في مكان لا أنتمي إليه.

كنت لا أزال، بمعنى من المعاني، غير موجود، عالقًا بين عالمين، لم تُقِرّ الحكومة اليابانية رسميًا بعودتي إلى اليابان، فكنت رسميًا «لا أعيش» هنا. حياةٌ «دون عيش»، يبدو أنَّ هذه هي لعنتي.

رغم أنَّ الحياة صارت أسهل بكثير فيما يخص الحصول على الاحتياجات الأساسية، كانت بعض الأشياء البسيطة لا تزال تؤرِّقني، فعندما أتناول شيئًا يُعدُّ طعامًا رئيسًا في اليابان -أبسط بكثير مما يتناوله معظم اليابانيين، فلنقل الأرز العادي- أنظر إليه وأتساءل عن عدد الوجبات التي سيوفرها في كوريا الشمالية، وليس عدد الوجبات فحسب، بل عدد الأيام التي يمكن أن يطعِمنا خلالها. والمشكلة هي أنَّ مثل هذه الخواطر تجعل الأكل مستحيلًا بالنسبة إليَّ؛ لأن قلبي يَعتصِر حزنًا، وعندما يحدث هذا، أتدرون ما أفعله؟ أذهب إلى المحيط وألقي بالبقية للنوارس، أريد أن أمنح هذا الطعام لأُسْرتي في كوريا الشمالية، لكن لا يمكنني؛ لذا أعهد بالمهمة للنوارس، وفي قلبي، يطيرون بها إلى أسرتي.. وأنتحب.

عرَفتُ من رسالة أُرسلت منذ مدة طويلة أنَّ زوجتي ماتت، ودُفنت على جانب جبل في «هامجو»، وآخر رسالة تلقيتُها من «ميونغ هوا» جاءت في خريف 2005.

«ساعدني! أريد أن أعيش معك، لا أملك شيئًا إطلاقًا، لديَّ طفلان، أحدهما صَبِيٌّ في الثانية من عمره، والآخر في الخامسة».

اضطربتُ أيّما اضطراب، إذ لم يكن لديّ ما يكفي من المال لإرساله إليها؛ لضآلة مُرتَزَقي عندئذٍ، فبحثت عن عمل آخر على الفور ووجدت عملًا في مصبغة بمكان قريب من برج «طوكيو». عملت فيها شهرًا واحدًا، لساعات طويلة، من الخامسة صباحًا إلى الواحدة ظهرًا، وحالما تلقيت أَجْري، قصدت مكتب بريد «طوكيو» وأرسلت لها مئة ألف ين. ولاحقًا، تلقيت رسالة من «هو سون» يخبرني بأنها ماتت من الجوع، كانت في أواخر العشرينيات من عمرها، والمال الذي أرسلته كان متأخرًا. سمعت من «هو سون» آخر مرة عام 1998، وآخر خبر أرسله هو أنَّ «هو تشول» يبحث عن عمل في منطقة تعدين فحم مع أطفاله الأربعة، ثم انقطعت الرسائل فجأة. لم أتمكن من النوم أكثر من ساعات قليلة متَّصلة منذئذٍ، ما زلتُ آمل أن أنقذ أطفالي الباقين. إنها لعنة فظيعة ألَّا أعرف حتى إذا كانوا على قيد الحياة، لكنني أعتقد أنهم أحياء، وعليَّ أن أعتقد هذا، وإلاَّ فلن أستمر في الحياة.

غالبًا ما أفكر بما كان لِيحدث لي إذا بقيت في كوريا الشمالية، لَمُتُّ من الجوع على الأرجح، لكن على الأقل لَمُتُّ بين يديْ أحدهم وعائلتي مجتمعة حولي، ولَتمكّنا من توديع بعضنا.. ما فرصة حدوث هذا الآن؟

يتحدث الناس عن الله، ورغم أنني لا أراه بنفسي، ما زلت أصلِّي من أجل نهاية سعيدة.

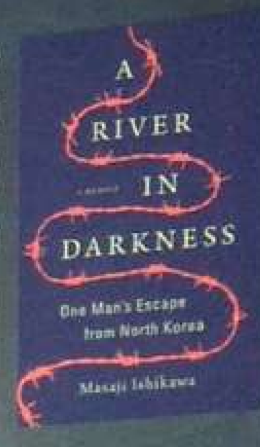
عن المؤلف

وُلد «ماساجي إيشيكاوا» عام 1947 في «كاواساكي» باليابان، وانتقل مع والديه وشقيقاته الثلاث إلى كوريا الشمالية عام 1960 وهو بعمر الثالثة عشرة، حيث عاش حتى هربه عام 1996، وهو الآن يقيم في اليابان.



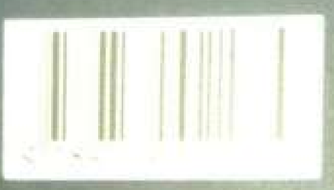
قصة حقيقية مُروِّعة عن حياة رجل في كوريا الشمالية وهروبه منها لاحقًا.

عاش ماساجي إيشيكاوا، الكوري من جهة الأب والياباني من جهة الأم، حياته بأكملها وهو يشعر بأنه رجلٌ بلا وطن. ولم يَزِدْ هذا الشعور إلَّا تعمُّقًا عندما انتقلت أسرته من اليابان إلى كوريا الشمالية، عندما كان إيشيكاوا في الثالثة عشرة من عمره فحسب، وصار دون رغبته ضمن أدنى طبقة اجتماعية. أُغرِيَ والده، الكوري، بالذهاب إلى الدولة الشيوعية الجديدة بوعود توفُّر العمل والتعليم لأطفاله ومكانة رفيعة في المجتمع. لكن واقع حياتهم كان أبعد ما يكون عن اليوتوبيا.



في هذه السيرة الذاتية، يسرد إيشيكاوا صراحةً نشأته المُضطربة والستة والثلاثين عامًا القاسية التي أمضاها في العيش في ظل نظام شمولي ساحق، علاوة على التحديات التي واجهها عند عودته إلى اليابان بعدما نجح بالكاد في النجاة بحياته والهروب من كوريا الشمالية. لا يُمثِّل كتاب "نهر في الظلام" تصويرًا صادمًا للحياة في الدولة فحسب، لكنه أيضًا شاهد على سُمو الروح البشرية وطبيعتها التي لا تُقهر.

تصميم الغلاف كريم آدم karimadam.com






aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb